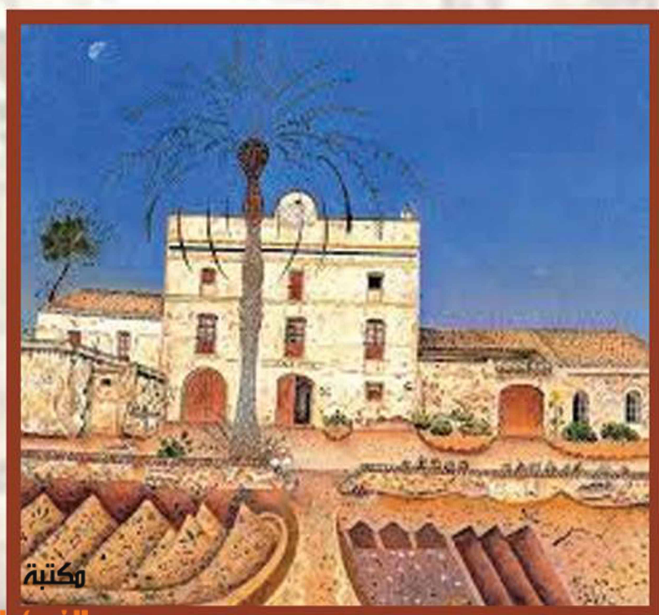


شَهِلا العُجَيْلي سَمَاءٌ قريبة من بيتنا



مكتبة

الفكر الجديد

القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية 2016

مروّاة

الطبعة الثانية

سَمَاءُ قَرِيبَةٍ مِنْ بَيْتِنَا

طبع في لبنان

سَمَاءٌ²⁹
قريبة من بيتنا
رواية

شَهِلا العُجيلي

منشورات الاختلاف
Editions El-khtllef



منشورات دفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

الطبعة الثانية: 1437 هـ - 2016 م

ردمك 0-1321-02-614-978

جميع الحقوق محفوظة



عمّان - خلدا - امتداد شارع الجاردينز

هاتف: 00962-79-5584993

البريد الإلكتروني: majaz.publishing@yahoo.com

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: +213 21676179

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: +9613223227

editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إهداء:

إلى بابا،
إلى إياد وديمة،
إلى مصلح دائماً...

شهاد

ليالي الأُنس

كان يوم الإثنين 1947/4/28 يوماً ربيعياً مشرقاً من أيام حلب. الشمس تحتجب وراء غيوم بيضاء هادئة، وتسمح بتمرير الدفء الذي دعا كثيراً من الناس إلى ترك متعلقاتهم في ذلك العصر، والخروج للتريّض حول النهر، في الموقع الذي سيصير بعد سنوات حديقة عامّة من أشهر حدائق الشرق، تحاكي حدائق قصر (فرساي) الخلاّبة.

تقع الحديقة في حيّ العزيزيّة، الذي يحتلّ قلب المدينة، وتطلّ على طرفها الشماليّ، باتجاه محطة القطار، شرفة الفيلاّ الأنيقة ذات الحجر الورديّ الحلبيّ، التي تعود ملكيّتها إلى المحامي بهجت الحفّار.

ساعتان لا أكثر، تواطأت سماء نيسان مع المتنزّهين، بعدها أبرقت وأرعدت، وجاد المزن بمائه، حين رنّ هاتف بهجت بيك رنيناً متواصلاً. دخلت مديحة خاتم زوجته، بصينيّة عليها فنجانا القهوة المسائيّان، وكأس ماء، ومزهريّة صغيرة فيها زهرتا فلّ ناصعتا البياض. كان زوجها قد أغلق للتوّ سماعة الهاتف، وغادرت الطمأنينة ملامحه. انتظرها حتّى تترتاح في جلستها، وتضع القهوة أمامه. أخذ رشفة من فنجانها، وفعلت مثله. ثمّ قال بصوته الرزين:

- جهّزي نفسك والأولاد، سنرحل إلى دمشق.
اضطربت مديحة خاتم قليلاً، لكنّها حافظت على ثباتها، فقد أعدّت نفسها منذ أيام لاستقبال مثل هذا الخبر، بل كانت جاهزة لحالات الطوارئ، منذ أن أوغل زوجها في درب السياسة.
العام الفائت كان عاماً صاخباً في حياة السوريين، واستمرّ صخبه سنوات تلت، حين انقسمت "الكتلة الوطنيّة" على نفسها، وانشقّ عدد من أفرادها، وكونوا "حزب الشعب"، وبقي الآخرون ضمن حزب يحمل اسم "الكتلة الوطنيّة" ذاته. ونهض "حزب الشعب" على أكتاف مجموعة من البورجوازيين يملكون مصالح خاصّة في إعلان الوحدة الاقتصاديّة مع العراق، وعلى رأسهم ناظم القدسي، ورشدي كيخيا، الأمر الذي عارضه بهجت الحفّار بشدّة، وهو يعلم أنّه في موقفه هذا سيّتعرّض إلى النبذ من قواعد الحزب قبل قياداته، والتي يتركّز ثقلها في حلب، مسقط رأسه، وربّما يتجاوز الأمر النبذ والمقاطعة إلى مواقف أشدّ عنفاً، فقرّر أن يغادر حلب، ليعيش وأسرته في دمشق، حتّى تستقرّ الحياة الحزبيّة في سورية من جديد.

منذ وصوله إلى دمشق، بدأ الأصدقاء الحليّون يتردّدون إلى منزل بهجت بيك، من موظّفين كبار في الحكومة، وسياسيّين، وأساتذة في الجامعة السوريّة، يبحثون عن طيف مدينتهم الذي مازال طازجاً في هذا المكان، ويللمون تفاصيله من ثنايا الجلسات والأحاديث، التي كانت السياسة تطفئ على معظمها،

ويليها مباشرة الحديث عن الطبخ وفنونه، إذ يُجمع الحلبيّون، كما يُجمع غيرهم، على أنّ المطبخ الحلبيّ لا يتفوّق عليه في اللذة والإتقان والتنوّع، مطبخ في العالم على الإطلاق.

كان بهجت بيك، تحسّياً للقادمات من الأيام، قد اشترى منزلاً واسعاً منفرداً عن بقية المنازل، في شارع شقّ حديثاً، يربط بين "المهاجرين" و"الصالحية"، الحيين الدمشقيين العتيقين، ويقع هذا الشارع تحديداً في حيّ "أبو رمانة"، على مقربة من ضريح الوليّ الصالح المجهول، والذي ظلّته منذ أمد بعيد شجرة رمان، فأكسبته الاسم الذي تمّ تبديله إلى شارع الجلاء، بمناسبة جلاء القوّات الفرنسيّة عن سورية، ولكن هي عادة الناس، إذ يحبّون استخدام الأسماء القديمة التي استقرّت في الذاكرة.

كان من حسن حظّ بهجت بيك أن تستحدث الحكومة دار الإذاعة اللاسلكيّة في ذلك العام، وأن تفتتح معهد الموسيقى التابع لها، وأن تستقدم من حلب الشيخ عمر البطش، صديقه العزيز، ليدرّس في المعهد فنّ الموشّحات!

كان الشيخ عمر البطش يحفظ ما يزيد على ألف موشّح، وكان قد أتمّ ما عجز سيّد درويش عن صياغة خاناته من موشّحات ذاع صيتها فيما بعد، مثلما تلقّى عن أستاذه صالح الجلبة الحلبيّ فنّ رقص السماح، فنقله من التكايا إلى المسارح الموسيقيّة، وصار يتردّد على منزل صاحبه بهجت بيك، يستعيدان مع مجموعة من الأصدقاء صدى جلساتهم الحلبيّة، التي تتحدّد

بكلّ ما يحمله لهم عبقرى الفنّ الأصيل. يتصدّر عمر البطش المجلس محتضناً عوده الثمين، الذي أهداه إياه في شبابه، جمال باشا الصغير، حاكم سورية، يدوزن أوتاره، ويبدأ بالغناء.

كلّما ضمّت سهرات الخميس التي صارت تُعقد في منزل بهجت بيك، ضيوفاً جددًا، كان صاحب الدار يطلب إلى الشيخ عمر أن يُحدّثهم بحديث الواقعة الشهيرة التي وقعت بينه وبين محمّد عبد الوهاب، فيبدأ صاحب البدلة الإفرنجيّة، والطربوش التركيّ الأحمر، الحديث بصوته الرخيم، مشدّداً فيه على حرف الجيم تحديداً، ليقول:

في العام 1934 زارنا المطرب محمّد عبد الوهاب، وأقام حفلات غنائيّة في كلّ من حلب ودمشق. وفي حفلته الأولى بينا، دخل القاعة، ففوجئ بها فارغة من الجمهور، بضعة عشر شخصاً لا غير، فغنى على مضض، وهو المعتاد على الغناء أمام حشود. لكنّه في الحقيقة أبدع فيما غنى، فتحلّقنا حوله، وقلنا له، وهو في حيرة من أمره، إنّه اجتاز الامتحان، وإنّه سيجد في حفلته الثانية، القاعة وقد غصّت بعشاق الفنّ.

حفظها لنا عبد الوهاب، وحين دعونا لقضاء سهرة طرب حليّة، لئسمعه روائعنا، سألنا، وكان معي الشيخ علي الدرويش، بأن نسمعه موشحاً من نغمة "السيكاه" الأصليّة الصافية!

بُهِت الحضور لهذا الطلب، فليس ثمة موشح على نغمة "السيكاه" الأصليّة إلّا وخالطته نغمة "الخزام" كما يسمّيها

العرب، أو "الهزام" كما يسمّيها الترك، فالسيكاه الصافية صعبة جداً ليتمّ توشيحها! لكنني انبريت وقلت له: أبشر! غداً نسهر، وأسمعك منها.

حينما انتهت السهرة، وبّخني الشيخ علي الدرويش بشدة على تبجّحي:

- إنك تعلم جيداً أنّه لا يوجد موشّح سيكاه أصلي، فما الذي ورّطتنا فيه!؟

- أليس من المعيب أن يكون عبد الوهاب في حلب، ولا يسمع العجب!

سهرت طيلة الليل حتّى أنجزت موشّحين، ألفتهما ولختهما بنفسي من مقام السيكاه الأصليّ بلا نعمة الهزام، واستدعيت جماعتي من المنشدين، فحفظوا الموشّحين، ولما حانت السهرة، أدّوهما بشكل عظيم، فانبهر عبد الوهاب، لقد سرّ سروراً كبيراً، كأنما ملك علم اللّحن في تلك الليلة.

بعد ذلك، يبدأ الشيخ عمر البطش بدوزنة أوتاره، ويصدق بأحد الموشّحين:

رمى قلبي رشا أحور

يا لا لا لا لا لا يا ليل

بأهداب العيون

يا لا لا لا لا لا يا لا لا لا لي

العيون، العيون السود

يا ليل يا ليل آه يا لا لا لي
ومعسول اللّمي كوثر
ولكن ليس بالمرود...

في غمرة تلك السهرات البهيجة، والتي لا ينقصها سوى همّ
السياسة، كانت الطفلة ذات السنوات الخمس، تجلس مع أمّها
وإخوتها في الغرفة الصغيرة، المجاورة للصالة الرئيسة، تستمع لذلك
الغناء، وكثيراً ما تنسرب من مكانها، وتقرب من الباب، أو
تدخل لترقب المشهد، أو ترقص في مكان قصي من غير أن يأبه
لوجودها أحد.

تلك الفتاة الصغيرة، ستعلّم فيما بعد العزف على العود،
وستؤدّي مع رفيقاتها رقصة السماح على مسرح مدرسة
(دوحة الآداب)، في حفلتها السنويّة، وسيعجب الحاضرون أيّما
إعجاب، حينما تُنشد، ووراءها فرقة صغيرة من البنات
الدمشقيّات، موشّح ابن زيدون "لم يكن هجري حبيبي عن
قلّي"، الذي وضع لحنه صديق والدها، الشيخ عمر البطش.
سيصفّقون لها كثيراً حينما يرتفع صوتها، الموقّع بإيقاع
الطفولة:

يا فتيت المسك يا شمس الضحى
يا قضيب البان يا ريم الفلا
إن يكن لي أمل غير الرضى
منك، لا بُلغتُ ذاك الأمل

تلك الفتاة الشقراء، ذات الشريط الوردِيّ في شعرها،
والجوربين الأبيضين القصيرين، ستصبح فيما بعد السيّدة "شهيرة
الحفّار"، التي كانت جنازتها هذا اليوم.

* * *

جلستُ في صالة الترانزيت، بانتظار أن أدخل البوابة المحدّدة،
فانطلق نحو الطائرة، ورحتُ أرقب الموظفين والمسافرين من
حولي، خلف الزجاج، يروحون ويغدون في حركة لا تتوقّف. إنّ
لمراقبة المسافرين، وقت صفاء التأمل، متعة خاصّة، إذ يكونون
أكثر عفويّة وبساطة، وهم خارج نطاق جاذبيّة العوالم التي
ينتمون إليها، أو في حالة مؤقتة من الانعتاق. هنا يستعدّ معظم
الناس لبدء حكاية ما، فالمطارات سلام الحكايات، ونحن
السوريّين ربّما لنا حكايتنا المختلفة معها، فبمجرّد مرورنا من
الكوة الأخيرة لأيّ موظّف جوازات، نكون قد استلمنا صكّ
ولادة جديدة، يعلن أنّنا لسنا مطلوبين لأيّة جهة أمنيّة وطنيّة أو
دوليّة، ذلك الشعور يعتري أيّ واحد منّا، حتّى لو لم يتفوّه
بكلمة واحدة لها علاقة بالسياسة، طيلة حياته، إذ تنصوّر دائماً
أنّا سنقع في قبضة أمنيّة بسبب تشابه الأسماء، على أقلّ تقدير!
أعلن المضيف الأرضيّ عن فتح البوابة، فذهبت لأصطفّ مع
أربعة آخرين في المعبر المخصّص لركّاب الدرجة الأولى، متبّعة
إيقاع خطوات رجوليّة هادئة تمشي أمامي. بعد أن تمّت عمليّة

التأكد من جوازات السفر، لاحظت وجهه، فوجدته مرهقاً ومستسلماً. كان في الخمسين ربّما، فاتح البشرة والشعر، ربع القامة، أميل إلى النحول، وتبدو أناقته عفويةً وأصيلة، بجينز أزرق، وقميص أسود، وحذاء رياضيّ أسود بلا أنشطة. وحينما استقرّ بي المطاف في مقعدي، وجدته قد سبقني إلى المقعد المجاور.

لست في مزاج يسمح لي بأن أتحمّس لصحبة أيّ شخص، كنت ممتلئة بكثير من الإنجاز والأوقات الحلوة التي قضيتها في تونس، حيث التقيت كلّ من أحبّ رفقتهم، ممّن حضروا معي مؤتمر "الشباب العربيّ والتنمية الثقافيّة"، الذي أقيم في مدينة "قابس" جنوب البلاد، على ساحل المتوسطّ، قضينا سهرات مليئة بالضحك، الذي كنت بأمسّ الحاجة إليه، بعد أشهر من الشقاء، مرّت كأنّها أعوام، فهذا المؤتمر الأوّل الذي أشارك فيه بعد خروجي من سورية إثر الاضطرابات، فالحرب التي طفقت تدور هناك.

استقبلني جار الرحلة بوداعة، بل أكثر قليلاً، ربّما بحماسة من يعرف الآخر، ويريد أن يقول له شيئاً. مرّت دقائق الاستقرار، والتهيؤ للإقلاع، وكلّ منّا في جزيرته، حتّى حانت لحظة التحليق، لحظة القلق الذي يعتري الجميع، مهما كانوا قد تمرّسوا في السفر، اللّحظة ذاها التي تقرّب بين البشر. التفت إليّ، وتفرّس في وجهي مرّتين أو ثلاث، ثمّ قال:

- أمّي ماتت اليوم، وأنا ذاهب كي أدفنها!
كلّ ما استطعت أن أفعله هو أن أشدّ على يده طوال الرحلة
تقريباً، علّ نسغ الحنان يسري عبرها، من قلبي إلى قلبه. كنت
أريد أن أضمه إلى صدري، لكن ليس كلّ ما نريده، نستطيع أن
نفعله!

بعد أن أطلقت يده، عرّفتُ بنفسي:

- ناصر العامريّ، خبير دوليّ في المناخ والجفاف؟
اممم... ماذا أعرف أنا عن الأجواء والأنواء! إنّ كلّ ما
أعرفه عن الجغرافيا لا يتجاوز ما قاله "إدوارد سعيد": "الجغرافيا
عدونا الأوّل".!

ما أسعفني لدخول عالمه في تلك البرهة، هو أنّي قبل شهور
حضرت مؤتمراً في الجمعيّة الأردنيّة للبحث العلميّ، توزّعت
أعماله حول محاور عدّة: العلوم الصحيّة، والاقتصاد، والتعليم...
مدربو الحياة يقولون: عرّض نفسك لأكبر قدر من
العشوائية. احضر مؤتمرات لا يحضرها أيّ شخص، واقرأ كتباً لا
يقرؤها أيّ شخص، وتحدّث إلى أشخاص لا يتحدّث إليهم أحد،
وثق في احتمالات الحظّ. لذا اخترت محور التغيّر المناخيّ، في
حين مضى الناس إلى الاقتصاد والتعليم. كانت المحاضرة الأولى
للبروفيسور الهندي مانا سيف كومار، وبناء عليها قرّرت متابعة
الأوراق كلّها، من العاشرة صباحاً حتّى الرابعة عصراً. أعجبت
جداً بورقة الدكتور سيف كومار عن الأخطاء الصغيرة التي

نرتكبها كلّ يوم بحقّ المناخ، من غير وعي أو مراقبة ذاتيّة، لتصير بالتراكم كوارث طبيعيّة. جلسنا معاً إلى مائدة الغداء، وتحدّثنا، واستغرب حضوري في محور بعيد عن تخصّصي، وفي عصر اليوم التالي مررت به في الفندق، واصطحبته في جولة إلى قلب عمّان، وسط البلد، والمدرّج الروماني. تناولنا الكنافة عند محلّ "حبيبة"، وشربنا قهوتنا على شرفة "جفرا" وسط الحوانيت القديمة. حدّثني سيفاً كومار عن أنّ مشكلات التغيّر المناخي تبدأ من عند تخصّصي، لا من عند تخصّصه هو، أي بالثقافة وليس بالجغرافيا العامّة، بتغيّر عقلية الناس في التعامل مع مواردهم، والتصدّي لمشكلاتهم، لا بإرسال رسائل سرّيّة إلى الغيوم والرياح والأمواج....

لعلّ ذلك اليوم الجغرافيّ كان تدريباً أعدّه لي القدر شخصياً، كي يؤهّلني للتأمّل في الخريطة الشخصيّة للدكتور ناصر العامري!

* * *

حطّت الطائرة التي جمعتنا في مطار الملكة علياء الدوليّ، وكنا خلال رحلة الترانزيت لكلينا، من إسطنبول إلى عمّان، قد تبادلنا أحاديث، تراوح بين عامّة وشخصيّة. عرفت أنّ ناصر درس في جامعة "سانتا باربارا" في كاليفورنيا، وأنّه مطلق من سيّدة أميركيّة، وله ثلاثة أبناء، ولدان يدرسان في الجامعة هناك، وبنّت تعيش مع جدّها التي توفيت أمس في عمّان. جدّها شاميّة،

قال ناصر، على عادة الفلسطينيين والأردنيين، الذين يلقَّبون السوريين بالشوام، وهي من مدينة حلب، من عائلة الحفَّار المعروفة هناك، وآثمه يعمل الآن في مركز إغناء المناطق الجافّة في دبيّ. سرحت عن هذه التفاصيل، ورحت أفكّر بالبنت، بنت ناصر التي تعيش مع جدّتها، ماذا سيحلّ بها بعد موت الجدّة! حزنت لأجلها، ثمّ انتبهت، قبل أن يأخذني التعاطف، إلى سؤال ناصر:

- هل أنت منفصلة أيضاً؟

استغربت! فهل هذا ما يبدو عليّ، أم أنّها رغبة ابتدائية ساورت رفيق رحليّ! لقد كان هذا السؤال مقياس الرسم، إذا ما استعرت لغة الجغرافيين. سؤال بحجم محدّد، لكنّه يفصح عن الحجم الحقيقيّ للمساحات التي نكون قد احتلناها في عقول الآخرين.

حاولت أن أكون واضحة وبسيطة، ومقتضبة في طرح نفسي، وأن أفتح الباب بيننا بالمقدار الذي تفرضه العلاقات الطبعيّة بين بشر ناضجين، يقدّرون أنفسهم والآخرين بشكل صحيح، ويأملون بعلاقات أعمق من أن تكون عابرة:

- جُمان بدران، دكتورة في الأنثروبولوجيا الثقافيّة، سورية، مقيمة في عمّان، وأعمل حالياً مع مؤسسة "تضامن" الهولنديّة. لست منفصلة عن أحد، بل لم يسبق لي الزواج. لقد مررت بتجربة الفقد ذاتها قبل

خمس سنوات. مؤلمة جداً! لكن صدّقني دكتور ناصر،
ستنتقل هذه الفجيرة التي تراها الآن أمام عينيك إلى
الداخل، إلى القلب، مخلفة نقطة سوداء حالكة،
وعميقة، ولا يمكن لشيء أن يمحوها، وسيصير هذا
السواد جزءاً لا يتجزأ من شخصيتك، ونظرتك، وحتى
طريقة مشيتك، وبالطبع يمكن لك أن تداريه عن
الجميع، ولكنه سيبقى علامة تشير إلى أنك عشت،
واختبرت، وتألمت.

هنا أدركت نفسي قبل أن أتحوّل إلى واعظة. في الحقيقة،
الذين يمرّون بتلك التجارب المؤلمة بوعي، مولعون بتعزية
الآخرين، يحكون عنها من منطلق العطاء الإنساني، والتشارك
العاطفي، وبكثير من الفخر المستغرب بنضجهم، وبثرائهم الأليم،
وأكثر من ذلك بشجاعتهم في تجاوز الفجيرة. ارتحت لعباراتي
الأخيرة التي أطلقتها على مسامعه، إذ كشفت عن أنّ تعبيري
الجسديّ في احتضان يده وقتاً طويلاً، لم يكن اعتباطياً، هو نوع
من التعاطف الذي يمتلك مسوّغاً قوياً.

قبل أن يشقّ كلّ منا طريقه عبر المسافرين، سأل ناصر عن
رقم هاتفي، كان حزيناً وواعياً في الوقت ذاته! أدخل الأرقام في
هاتفه وطلبني فوراً، فظهر رقمه على شاشتي، الرقم الذي لن
أحتاج سواه في المستقبل من أيامي.

* * *

عشرة أيام مرّت، كنت خلالها أعمل بعمّة عالية. أحاول أن أستعيد ذاتي التي غيّبتها الحرب في بلدي. أغرق بين المعلومات والإحصاءات، وقصص النساء المهجّرات والنازحات، الهاربات من القصف، واللواتي كنت قبل أشهر واحدة منهنّ، وما زالت أختاي جود وسلمى بين بقيّتهنّ، وكلّما قفزت أمامي تلك الفكرة، أستسلم إلى الكتابة من جديد! أنا هنا لا لأقدم شيئاً لأحد، بل لأهرب من الحرب، إذ بدأ هناك في حلب حيث أعمل، استهداف الأكاديميين. زميلي الدكتور محمّد، أستاذ التاريخ، وشريك في المكتب ذاته في كليّة العلوم الإنسانيّة، أصيب برصاص قناص، وهو عائد من الجامعة إلى بيته في "بستان القصر". من بين تلك المناقضات كلّها: الشعور بالحظّ لأنّي وجدت ملاذاً آمناً وعملاً مجزياً، والشعور بالانهمزام، وعذاب الضمير لترك بابا وأختي داخل دائرة الخطر والمعاناة، يطلّ وجه ناصر، يحدّق بي بعينين عميقتين ووادعتين، فيغمرنني شعور بالحبور، وأترك نفسي لابتسامة عريضة، أفتح لها الطريق، ولا أمنعها، علّها تجرف في طريقها ما أحمله من الأسى.

اتصل ناصر كما، توقّعت، وذلك بعد أن هدأت سَورة الفقد، وبقيت حلاوة العزاء الذي تركته في نفسه حينما كان وحيداً في ساعات مصابرة الأولى. اتصل يبحث عن شكل آخر من أشكال السلوى الذي أعرفه تماماً، إنّهُ الآن بحاجة إلى الكلام. تواعدنا على اللقاء مساءً، في مقهى الـ "بلو فيج" في

عبدون. ما زالت علاقتي بالأمكنة هنا محدودة ومرتبكة. كان لي في حلب مكاني الخاص الذي أجلس فيه في مواعيد محدّدة، لي طاولتي المحجوزة، يعرفني العاملون جميعاً، يخصّصونني وضيوفي باهتمامهم، ويعرفون ما أحبّ وما لا أحبّ، ومتى أريد أن أكتب، ومتى أريد أن ألتقي بالأصدقاء....

لا مطاعم الريتز، ولا مقاهي الشانزليزيه أو مقاهي أرصفة براغ، تساوي الجلسة على تيرّاس أوتيل بارون. مبنى صغير في قلب مدينة حلب، وفي الشارع الذي سُمّي منذ العام 1946 باسمه "شارع بارون"، تقديراً للدور الوطني الذي لعبه الفندق في مرحلة الاستعمار الفرنسيّ، حيث كان الشارع ذاته يحمل اسم "غورو"، الجنرال الفرنسيّ الذي دخل دمشق، بعد معركة ميسلون، ورفس بقدمه الضريح قائلاً عبارته الشهيرة: "ها قد عدنا يا صلاح الدين!". يعود بناء أوتيل بارون إلى العام 1906، إذ قام على إحدى وثلاثين غرفة، وحمّامين، وبعدها رفع الأخوان "مظلوميان" طابقه الثالث، الذي حوى حمّاماً في كلّ غرفة من غرفه السبع عشرة.

إلى شرقه يقع حيّ العزیزیة الشهير، معقل البورجوازیة الكبيرة، المسيحيّة تحديداً، حيث تتناثر على الأرصفة مقاهٍ لمطاعم أنيقة: وانيس، والشلّال، وقرطبة، وأمامها جزر من الشجيرات الخضراء والورود التي زرعت في مجرى نهر "قُویق" بعد أن تمّ ردمه حين تكاثرت فيه الحشرات، مهدّدة بانتشار وباء

الليشمانيا. في هذه المطاعم يلتقي فنانون، وكتاب، ورجال أعمال، ورجال دولة، يسهرون على موسيقى فرق أرمنية مغمورة، لكنّها موهوبة في خلق حالة من النوستالجيا لسنوات الأربعينيات والخمسينيات، حيث رقص الحليّون كثيراً على أنغام التانغو والفالسات الشهيرة....

إلى جنوب أوتيل بارون، تنتصب ساعة باب الفرج، واحدة من معالم المدينة التاريخية، إذ يُقال لشهرتها: "فلان لا يعرف حلب إلاّ من باب الفرج"، وذلك على الرغم من أبواب المدينة الستة الأخرى المتبقية. أمام الساعة ينتصب مبنى المكتبة الوطنية محجاً لمحبي القراءة والبحث والمسرح والفنون، وبين الأوتيل وساحة باب الفرج، شوارع ضيقة متوازية، يطلق على المنطقة التي تمتدّ بينها اسم "بستان كلّ آب" أو "بستان كليب" بالإمالة التي تقتضيها اللهجة المحليّة، حيث ينتشر بائعو قطع تبديل السيّارات والآليات الزراعيّة، مثلما تتناثر الفنادق الرخيصة التي تشترك فيها كلّ مجموعة من الغرف بحمّام واحد، وتحمل أسماء من مثل: فندق قناة السويس، وفندق الوحدة، وفندق سورية ولبنان، ومطاعم تصنع الكباب الأرمنيّ، وصينيّة الملك، وملاّه ليليّة أشهرها "المولان روج" والـ "الكريزي هورس"، تمرّ على أرصفتها ذوات الأحزمة والخمُر، وموظّفات شركات الطيران، ويعجّ قاعها بعاملات روسيّات وأوكرانيّات، وأقلّ منهنّ بنات ليل محليّات.

إذا جلس المرء على تيرّاس الأوتيل، سيقابله على الرصيف الآخر، فرع اتّحاد الكتّاب العرب، الشقّة العتيقة، التي دارت فيها محاضرات وأمسيات أدبيّة طالما أنقذتنا من رتابة الأكاديميا. وفي الشارع المجاور تقف سينما الكندي، لتعرض على بوابتها دعايات حارّة لأفلام قديمة وخاسرة، يتسمّر أمامها المراهقون، يقضون سندويشات الفلافل، وعيونهم معلقة بصور النساء العاريات التي تعدّهم بالكثير، ولكنّهم في الغالب يتركونها، ويمضون لوجهتهم نحو البنايات القديمة المرصوفة إلى بعضها، أو نحو محلات الملابس والأحذية، التي تصطفّ في شارع القوّلي، معلنة دائماً عن عروض وتنزيلات مغرية، لبضائع سورّيّة الصنع، أو صينيّة متوسّطة الجودة، ورخيصة. لا تعدم مثل هذه السينما رواداً لها، مهما كان نوع الفيلم الذي تعرضه، إذ غالباً ما تجد صبايا وشباناً، مراهقين أو على أعتاب النضج، وربّما جامعيّين، يتسوّون أن يجدوا مكاناً للقاء أو خلوة، فيدخلون الصالة، ويقبعون في الصفوف الخلفيّة يتبادلون الغرام، والجنس السريع، بعد أن يضيء لهم مسؤول الصالة الطريق بمصباحه الصغير، ثمّ يغضّ البصر عنهم، ليغرقوا في ظلمة آمنة، معرضين عن الفيلم الدائر، والذي دخلوا إليه مرّات ومرّات، ولم يفكّر أحد منهم بالطبع عن سبب تسمية السينما بـ "الكندي"، وعن سبب تسمية الشارع بـ "القوّلي"، الشيء الذي يتكرّر في كلّ مدينة سورّيّة تقريباً!

في مساءات الصيف، نجلس على التراس العريض الذي يشكّل مدخل الفندق، وتفصله عن الشارع بضع درجات من نفس حجر السور الواطئ، وخلفنا الباب الرئيس الذي يعلوه اسم الفندق، يشكّله ضوء نيون أزرق رفيع وأنيق، "Baron Hotel"، وننتقل في الشتاء إلى "اللوبي" الذي يجمع بين اللاّونج والبار، فتبادل أحاديث الثقافة والسياسة والمجتمع، أمام الموقد الرخامي، المتناسق في أبهته مع البلاط الشطرنجيّ بلونيه الأبيض والأسود. ومع أنّي لم أصعد ولا مرّة إلى غرف الفندق التي سكنها المشاهير، فاحتفظ المالكون بغرفهم، كما تركها أولئك، وسمّوها بأسمائهم، لكنني أتوقع كلّ مرّة أنّ أجاثا كريستي ستنزل من فوق في آية لحظة، لتجلس قبالتنا، وأنّ جمال عبد الناصر يقف الآن على الشرفة الواسعة ملوّحاً للجماهير، وأنّ قادة عسكريين، أتراكاً، وإنكليزاً وفرنسيين، يحكون مؤامراتهم التي ما زالت متوارية في ملفات الحرين العالميتين، على الطاولة المستقلة خلفنا. نحن أيضاً، أصدقائي وأنا، كنّا نحوك مؤامراتنا الخاصة، ونصنع أساطيرنا الشخصية، والمستلهمة من الطاقة المبتوثة من هذا المكان الذي يشبه كهفاً سحيقاً، جمّع وجوهاً كثيرة لأفراد، ما تزال زواياه تحتفظ بصدى أسرارهم، مثلما تحفظ بريق عيون أحبة مضوا، وضحكات، ومشاريع حبّ لم تكتمل، ودموعاً صادقة، ترشح من ذلك الزمن النديّ في حلب.

في هذا المشرب ذاته، وفي شتاء العام 2000 قابلت سامي للمرة الأولى عن قرب. كان جالساً مع جماعة من الروس، رجال

ونساء، يتناولون كؤوسهم، ويضحكون بصخب. لم يخطر في بالي أن ألتقي شاباً من مدينتي "الرقّة" هنا! أعرفه بالشكل، إذ درسنا في المدرسة ذاتها، وكان أخوه في صفّي، وحين كنّا في السابع، كان هو في العاشر. يومذاك، كنت أتناول عشائي مع "نجوان"، صديقة سنوات الجامعة. اقترب منّي بثقة، وصافحني، وعرفني بنفسه. لم أكن على صلة وثيقة بأبناء مدينتي الصغيرة، الذين يأتون إلى حلب لمتابعة دراستهم الجامعيّة. يفتحون سريعاً في علاقاتهم، يتساندون، ويتواطؤون، لكنّهم يقتحمون الخصوصيّات، ويتحرّون عن بعضهم البعض، ويوهم كلّ منهم الآخر أنّ ما يحدث في حلب، يبقى في حلب، في حين أنّ الأسرار تسافر عجلى إلى الرقّة، تقطع ساعتين من الزمن شرقاً، قبل أن يكون أصحابها قد قفلوا عائدين في نهاية الأسبوع غالباً.

أعجبتني ثقة سامي، وكذلك عفويّته! قال إنّّه يعرفني من أيام المدرسة، تبادلنا نظرات عدّة، وابتسامات، ثمّ مضى مع صحبه. كان سامي قد درس هندسة البرمجيات في جامعة موسكو، ثمّ عاد ليعمل في محطة توليد الطاقة الحراريّة الواقعة بين حلب والرقّة. حينما رأيته كنت أشعر بالبرد، وكان يرتدي جاكيت من الجلد الأسود الفاخر، يصل أسفل وركيه، بحزام عريض عند الخصر، وياقة محاطة بفرو رماديّ كثيف. شعرت بحاجةٍ لأغمر وجهي البارد عميقاً في هذا الدغل من الفراء. رأسه كبير مستطيل، وبشرته قمحيّة، وعينه واسعتان، يعتريهما ذبول

بسبب الجفنين المشدودين إلى الأسفل، وأنفه علامته المميّزة، كبير وعريض، وكانت عمّتي تقول: الأنف الكبير دلالة العنفوان! في حين كان فمه مدوّراً وصغيراً، بشفتين عريضتين، ويبدو أصغر ممّا يقتضيه التناسب مع تراسيمه الأخرى.

في اليوم التالي قابلت سامي في المكان عينه، ومع الأشخاص ذاهم، وبدا لي أنّهم نزلاء في الأوتيل. تبادلنا التحيّة، وجلسنا قليلاً، تحدّثنا عن أيّام الدراسة، وعن بعض الأصدقاء، وعن البلد ومعارف مشتركين فيها، وهكذا توالد الكلام، تماماً كدمى (الماتريوشكا) الروسية، حوارات كبيرة أفضت إلى حوارات أصغر، فأصغر، حتّى وصلنا إلى الأكثر خصوصيّة. كنّا سامي وأنا مناسبين جدّاً لنكون معاً، فغالباً حينما تكون شروط الأفراد الموضوعيّة متناسبة، يكون انجذابهم نحو بعضهم البعض أكثر منطقيّة وأسهل، وهكذا تقاربنا....

يتردّد عليّ في الجامعة، نتناول معاً قهوة مسائيّة في مقاهي حيّ الشهباء الهادئة، نخكي ثمّ نخكي. ثمّ صار يحرص على أن يقضي نهاية الأسبوع في حلب، نسهّر عند باب القلعة، ونتعشّى في مطعم دار زمرّيّا في حيّ (الجديدة)، حيث يقدّمون كرات اللحم المطبوخة بفاكهة الكرز، على نغمات القدود الحليّية، يعزفها عوّادون قد شربوا الفنّ مع حليب أمّهاهم.

أدخل سامي بهجة إلى أيّامي التي تحدّدت بإطار البحث العلميّ في برنامج الماجستير، فتح كوّة صغيرة انسربت إليها

عواطف حارة، متوهجة، لكنّها قصيرة الأجل، مثل أسهم
الألعاب النارية. كان طيباً ولبقاً، لكنّه لم يكن ذكياً! اصطادني
بقصيدة لبوشكين في زيارته الأولى لمكتبي في الجامعة، إذ
احتضن يدي بين يديه، وأنشد بصوت هادئ تعتريه بحّة جميلة،
وهو ينظر عميقاً في عينيّ:

"أيّها الحبّ

أصغ لصراخي أيّها الحبّ

وأرسل رؤاك ثانية إليّ

وعندما ينبلج الصبح

لا توقظني

بل دعني أرقد رقدتي الأبدية!".

اكتشفت فيما بعد، أنّها القصيدة ذاتها التي يتعلّمها الطلبة
العرب جميعاً، في سنتهم التمهيديّة الأولى، التي يدرسون فيها اللّغة
الروسية، قبل أن يتوزّعوا نحو تخصّصاتهم العلميّة. حينما رويت
هذه التفاصيل لنجوان، صديقتي، قالت ببرود: طبعاً، من كنت
تظنّينه، ماياكوفسكي مثلاً! وخجلت وقتها من اندفاعي الساذج.

* * *

كان سامي ينتظر أن أناقش أطروحة الماجستير ليتقدّم
لخطبتي. خلال السنتين اللتين كنّا فيهما معاً، كان قد استأجر
استوديو قريباً من الجامعة، للقائنا، أقضي في حضنه ساعات

بدأت حماسية وشهية، وراحت تفقد ألقها سريعاً. امتصصته بسرعة، حفظته عن ظهر قلب، كل نكاته وردود أفعاله، وترهاته كان يمكنني التنبؤ بها. لم يكن لديه أية هواية! في الواقع، أول مرة أعرف أن هناك شخصاً ليس لديه أية هواية. لم يقرأ أي كتاب غير مقرراته الدراسية التي خدمه الحظ في إنهاؤها. كان يطلب إلي أن أحكي له عما يوجد في الصحف أو الكتب والمجلات التي كانت دائماً بين يدي، يسمع مني المعلومات الأولية، ويهز رأسه. لم يكن يابه كثيراً لدراسي أو لعملي، وكانت تبدو له أشياء أقوم بها، لأنني لم أتزوج بعد. همّ انحصر في أن يكون لنا بيت صغير وسيارة، وأن نكون معاً. لم أكن أفهم هذا النوع من الحب، لكنني اكتشفت فيما بعد أنه كان حباً حقيقياً وآمناً، بعيداً عن أية ادعاءات مقلقة.

الحب لا يشترط فيه الطموح والتشويق، ولا بذل جهود لإقناع الآخر بنفسك، يكفي أنك تريد البقاء معه، وترغب في حمايته، وتكون له صخرة بالمقدار ذاته الذي تكون فيه شجرة وارفة. هذا ما واجهتني به بعد سنوات مارغريت برانت، واحدة من أهم الكاتبات النسويات في العالم، اللواتي عملن في الأعمال التطوعية لتحسين أوضاع ضحايا الحروب من النساء في غواتيمالا ونيروبي. البروفيسورة برانت تزوجت من رجل يكاد يكون أمياً، يعمل في صيانة قوارب الصيد البخارية، وعاشت معه أربعين عاماً في بيت صغير على شاطئ الكاريبي. قالت لي: إنها كانت تحبه

بلا أية فلسفة أو شروحات، ولم تأبه يوماً بالفروقات الثقافية بينهما. قالت أيضاً: من الطبيعيّ ألاّ يشبه الناس بعضهم البعض، وليس من الضرورة أن يمتلكوا الشغف بالأشياء ذاتها، فإذا ما أحبّ المرء آخر، فسيحبّه كما هو بظروفه الراهنة والمستقبلية. عاشت معه سعيدة جداً، لأنّه منحها الحبّ والأمان، وكان كريماً، ولم تكن تخشى في صحبته شيئاً على الإطلاق.

انسحبت من حياة سامي، لكن ليس ببساطة، فلم تكن لديّ أعذار يمكن تقديمها، كان مسوّغي الوحيد أنّني لم أكن سعيدة، وهذا ما يصعب تفصيله لإقناع الآخرين به، كنت أشعر أنّه يخنقني، وكان بإمكانني أن أتحمّس قضبان الحياة التي سأسجن بها معه قبل أن أدخلها. بعد ليال طويلة من الأرق، والبكاء المتواصل الذي يمليه عذاب الضمير، تجاه شخص كان نبيلاً معي حتّى اللحظة الأخيرة، قرّرت أن أهرب منه. لم يصدّق طبعاً، ولم يستسلم، وأخذت هذه المرحلة أشهراً خمسة أوسّته، بين أخذ وردّ، وتوسّلات، وضغوطات، لكن في النهاية، تغلّبت الرغبة في الانعتاق لديّ على كلّ ما يمكن أن يكون. تركته مدمناً على الكحول، وتركني مريضة بعقدة ذنب أبدية.

كان طارق الصديق الحميم لسامي، قضيا معاً طفولة سعيدة، جاران، وفي المدرسة ذاتها، بل في مقعد الدراسة نفسه، يقضيان بعد الظهر في نصب فخاخ للعصافير، أو في ملاحقة سيّارات نصف النقل، والتعلّق بها، والسير مسافات، قبل أن

يكتشفهما سائقها. طارق ولد ذكيّ، ويتمتّع بحسّ فكاهة عالٍ، كان واثقاً جداً بنفسه، ويحاول دائماً أن يتعلّم ماذا يقول، وكيف يمكن أن يقوله بأفضل طريقة، وهو ابن ريف مجاور، وكان والده معلّم الرياضيّات في مدرستنا، رجلاً مهيباً، وصعباً، وكان طارق يظهر للطلبة تواطؤه مع شقاواتهم ضدّ قسوة أبيه. في يوم من أيام الشتاء، ألقى طارق في مدفأة الصفّ المشتعلة، قطعة من الكاوتشوك، فعبقت غرفة الصفّ برائحتها الكريهة، بطريقة لم ينفع معها فتح الباب والنوافذ، وبدأ الطلاب يسعلون، وبعض الفتيات مثلن دور المختنقات، اللواتي سيغمى عليهنّ، وهكذا نجح طارق في تعطيل الحصّة، والحصص الدراسيّة كلّها لذلك اليوم. وبعد التحقيق، انقسمت أصوات الطلبة إلى من يتّهم طارق، ومن يتّهم سامي الذي كان معه. سامي سكت تماماً، وطارق استمات في الدفاع عن مستقبله، الذي يمكن لحصّة دراسيّة أن تدمّره، وبكى بكاء حارّاً، فصدّق الجميع دموعه، لأنّه طالب متفوّق، وطُرد سامي من المدرسة لثلاثة أيّام، وعاد مع أبيه الطبيب ليوّقع على تعهّد عدم الإساءة ثانية. وفي إحدى المرّات، قصقص طارق ورق الدفتر، وجمّعه ليصنع ما يشبه ذنباً طويلاً، ألصقه على مؤخّرة مدرّس اللّغة العربيّة البديل، حينما مرّ بمحاذاته، وهو يتحوّل بين مقاعد الطلبة، منفعلّاً في قراءة قصيدة "ابن زيدون":

إني رأيتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

انفجر الطلاب مقهقهين بطريقة أربكت الأستاذ، حتّى استدلّ أخيراً على الذنب المركّب على مؤخرته، فاحمرّ بين خجلٍ ومغناظ، ورمى الكتاب، وغادر غرفة الصفّ. طبعاً دارت الشبهات حول ذلك المقعد الذي يجلس فيه كلّ من طارق وسامي. سامي لن يشي بصاحبه، ولا يقبل أن يُقال عنه "ولد فسّاد"، وطارق برّاً نفسه بتلميحات مدروسة إلى غيره، فتمّ فصل سامي أسبوعاً من المدرسة، مع إحضار وليّ أمره.

عند التقدّم إلى الجامعة، تمكّن طارق بمعدّله المرتفع، من دخول كليّة هندسة البرمجيات في جامعة دمشق. لم يحالف الحظّ سامي في الحصول على درجات عالية، لكنّه تمكّن بمال أبيه من دخول الفرع ذاته، في جامعة موسكو، حيث ذهب كثير من السوريّين، وبخاصّة أهل الرقّة، للدراسة هناك، قبل افتتاح الجامعات الخاصّة في البلاد.

عملاً معاً في المحطّة الحراريّة، وكانت لديهما فرصتان متكافئتان ليكون كلّ منهما رئيس قسم الضخّ فيها. طارق خبّر الشرطة العسكريّة عن سامي الذي ما زال يؤجّل خدمة العلم، ولم تفلح الآن وساطات تأجيل التجنيد أو الرشاوي المتعارف عليها، لأنّ الاضطرابات اشتعلت في أكثر من مكان في سورية، وتجاوزت درعا إلى حمص ودير الزور، وتمّ تجنيد كلّ المؤجّلين، بل تمّ تأجيل تسريح من أرف تسريحهم من العسكريّين، حتّى إشعار آخر.

جاء فرز سامي في ريف حمص، في محطة توليد الطاقة الكهربائية، وقُتل في مواجهة مسلّحة بين الجيشين النظامي والحرّ. في سنوات الدراسة الجامعيّة، كان طارق عضواً عاملاً لامعاً في الفرقة الحزبيّة لكتيّته، وغالباً ما كان يمثلها في المناسبات الرسميّة، نقل تنظيمه بعد التخرّج إلى شعبة المدينة في الرقّة، وكان طموحه أن يدخل القيادة، فيصير أمين فرع الحزب في المحافظة، مردّداً أنّ أمانة الفرع هي القدر الجميل الذي يتطلّع إليه كلّ ريفي!

فيما بعد، صار يسافر كثيراً لحضور دورات تدريبيّة في التنمية والإعلام، وحقوق الإنسان، وظهرت عليه أمارات الثراء! مع إعلان الثورة على النظام، وانتشار حمّى المظاهرات والانشقاقات، ظهر طارق على شاشة قناة "الجزيرة" الفضائيّة من إسطنبول، ناطقاً رسمياً باسم تحالف الثورة، يندّد بديكتاتوريّة النظام، ويعلن تمّافت الحزب، ويبيّش بانتصار الثورة.

محطّة بغداد النوتوراكي

تعمّدت ألاّ أتكلّف في مذهري، فاكثفت بينطلون من الكتّان
لونه بيّج، وبلوز موسلين أبيض، وعقد قصير من المايوركا الملّون
بالوان الباستيل، كآتني ذاهبة إلى لقاء مسائيّ مع صديقة قرية.
أقبل ناصر. كان هذه المرّة أكثر هيبّة، كان الدكتور ناصر
بحقّ، لا رفيق السفر المرتبك والحزين. ارتدى بنطلونا رمادياً، مع
قميص أبيض، وبليزر كحليّ، وقد ثبتّ شعره بكرّيم، ومثّطه
نحو الخلف، فبانت جبهته العريضة، وبدا شبيه جدّي لأميّ.
كنّا، ناصر وأنا، متناسقين تماماً في مظهرينا، بسيطين،
وأنيقين، وحقيقيّين، كما هي الحياة في نظر علم الجمال
البورجوازيّ المعاصر. ارتحنا على أرائك مقهى "بلو فيج" الجلديّة
الوثيرة، نطلّ على فيلات ومنازل جميلة من حولنا، ومن بعيد نحو
الشمال، يرفرف علم السفارة السوريّة بثقة، ليشتيع في النفوس أن
ما يحدث هناك في البلاد، هو أضغاث أحلام.
لا أعرف ما الذي دعاني لأشبهه بجدّي، ربّما بسبب "البريل
كرّيم" على شعره، إذ خطرت في بالي علبة الحمراء، التي بقيت
في مكانها الأزليّ، حتّى بعد رحيله بسنوات، موضوعة على
"التواليت" في غرفة النوم الإيطاليّة، المزينة بلوحة الكوبلان
الفريدة، التي تمثّل صورة لمجموعة من الجنودولات المتهداية في مدينة

البندقية. تفتح شبابيك تلك الغرفة على شارعين من شوارع حيّ محطة بغداد النوتوراكيّ، الذي ما زلت أجهل معنى اللاحقة الأخيرة فيه. تلك الشبايك حاكت قصص هوى، وأحلاماً بالفنّ والسفر والنجاح، تحفّزها أصوات القطارات القادمة من محطات كثيرة: إسطنبول، واللاذقية، والقامشلي، وبودابست، والتي دائماً تشير إلى اتجاه الحياة.

كان حيّ محطة بغداد من أجمل أحياء حلب الخمسينيات، ثلاثة شوارع واسعة متوازية، يقطعها عرضياً الشارع الذي يفصلها عن الحديقة العامة، التي يتوسطها تمثال أبي فراس الحمدانيّ، وتنتشر في أرجائها نوافير المياه، وأشجار راسخة من صفصاف، وسرو، ودردار، وورود الجوريّ، والورد البلديّ بألوانه: الأحمر والأصفر والبنفسجيّ، ويتعالى الياسمين فوق الأسوار، بأبيضه، وأزرقه، وتمتدّ الرياحين على القضبان الحديدية التي وضعت لتسلّقها تلك الخضرة اللاهائية، على مساحة 17 هكتاراً. تصطفّ فيها مقاعد خشبية خضراء، وقد خصّص قسم لألعاب الأطفال، وآخر يمنع فيه الضجيج منعاً باتاً، فيه أقفاص لطواويس، تفرش ذيوها للمتفرّجين بين الفينة والأخرى، وتمتنع أحياناً من شدة الغيّ والدلال، في حين يمضي البجع في بحيرته المخصّصة غير آبه حتّى بالزرقة التي اعتاد أن يصبح ويمسي فيها، محاطاً بتمائيل لأجساد صارت أليفة بحكم الزمن، خلقتها أصابع نحاتين سوريين متنوّرين من مثل جاك وردة، ووحد إستانبولي.

يسمى الصفصاف أمام عمارات محطة بغداد، التي تصل إلى أدوار ستة، وتدخل أغصانه من الشبايك المفتوحة في الطابقين الأولين، تطلّ على الساكنين، وتلتصص عليهم في غرف النوم، وتصافح فناجين قهوتهم التي تدور في الصباحات والمساءات، حيث تقيم عائلات مسيحية ومسلمة، وبعض العائلات الأرمنية، والتي تصنّف على أنّها بورجوازية حلب الكبيرة: آل الدلال، والصقال، والكيالي، والمارتيني، والصباغ، والمدرس، والعقاد، والطرابلسي، والعطار، وأنطاكي، ومكرنة، وحلاق، والحموي، ومرجانة، وقناعة، وسركيسيان، وإزميريان، وسواهم، وفي محيطها نحو الشرق، أحياء أكثر شعبية واكتظاظاً تسكنها البورجوازية الصغيرة، والبروليتاريا، كحيّ الشيخ طه، والسريان، والأشرفيّة، والشيخ مقصود، حيث يتجمّع الأكراد القادمون من مراكزهم القروية كعفرين واعزاز، وكذلك الأرمن والتركماني، وغيرهم من العرب القادمين من المنطقة الشرقية.

يقع بيت جدّي في الطابق الأول، وله شبايك على الشارع، بلا "برندات"، إذ تبدأ البرندات في تصاميم تلك العمارات القديمة، اعتباراً من الطابق الثاني. في الصيف نفتح الشبايك القريبة من الشارع، وننام على هبوب نسيمات ليالي حلب العابقة بالجمال والبهجة والحياة. أقدم العابرين القلائل تهدي لي إيقاع النوم، وهمهماتهم تضيع بين يقظتي ومنامي، فأسمع أحياناً مفتحات قصصهم، لأكملها في أحلامي الطويلة. أوّل مثل

أتذكر أنني سمعته في حياتي، كان لعجوز مرّت تحت الشبّاك. كانت تبكي وتقول: "قلبي على ولدي انفطر، وقلب ولدي على الحجر"، وكان حلمي كفيلاً تلك الليلة بإتمام قصّتها. تفتّح تلك الشباييك باتجاه الغرب، حيث يقطن مدير السكك الحديدية، في بيت ملاصق لمحطّة الرّكّاب. بيت كبير من طابق واحد، محاط بحديقة جميلة، فيها بركة ماء صغيرة، ومشجّرة بأشجار مثمرة، مشمش وخوخ ولوز، وكثير من ورد الجوري الأحمر والأصفر، وخلف السور الحجريّ الرماديّ، سور آخر من أشجار الصنوبر، وعلى الباب الرئيس من جهة اليمين، غرفة خشبيّة صغيرة للعسكريّ الذي يحرس البيت، برشّاش آليّ لا يفارق ذراعه.

كان باسل، ابن مدير السكك الحديدية، يدرس في كليّة الهندسة المدنيّة، وكان واقعاً في غرام خالتي دالية، التي تدرس في كليّة الآداب في قسم اللّغة الإنكليزيّة. ظلّ يلحق بها كلّ صباح، إلى حيث تصعد بالباص من الموقف الذي أمام الحديقة العامّة إلى الجامعة، وهو يركب سيّارة الحكومة المرسيدس التي فرزها أبوه خصيصاً لتنقلاته. يوماً إثر آخر، صارت تستقل مطر الشتاء، وتستعذب المرسيدس، فصار يمرّ بها أمام الحديقة ليوصلها إلى كليّتها، ثمّ يعيدها إلى موقف الباص ذاته.

دخل خالي إلى البيت عصراً وهو في حالة هستيريّة، فقد أغلقت الطرقات في معظم شوارع حلب، وما تزال خالتي دالية

خارج البيت، ذهب إلى محيط الجامعة بحثاً عنها، وعاد يائساً مذعوراً، إذ كان قبلها بأيام قد تمّ اقتحام كلية الآداب من قبل الإخوان المسلمين، الذين دخلت عناصرهم إلى المدرّجات، بدعم من كوادهم الطلّائيّة. وصل البيت بصعوبة إذ كان الناس يشيّعون جثمان وزير الداخليّة عدنان دبّاغ، الذي قضى في ظروف غامضة.

مرّت الجنّازة المهيبة من أمام الحديقة العامّة، وركض كلّ من في البيت نحو نافذة غرفة الجلوس ليتابع الحشود البعيدة، وفلّوها المتسرّبة من الفرجة في الشارع الرئيس، حيث مرّ النعش محمولاً على الأكتاف. كان وزير الداخليّة قد تزوّج سرّاً بالمطربة ميّادة الحناوي، التي ورثت عنه ثروة طائلة، ودخلت مع عائلته في مشاكل عميقة، لم تنته بمحاولة إطلاق النار عليها، كما أشيع، من قبل مجهول.

لم تكن ميّادة الحناوي مطربة الجيل فحسب، بل "ديفا" كما يطلق على النساء اللّواتي يصرن ملهّمات. وكان الشاعر الظريف أحمد الجندي، ابن مدينة السلميّة يقول: أقبل الرائي أي التلفزيون، كلّما طلعت ميّادة الحناوي، وحين كان أيهم ابن حيراننا، ولداً في الصفّ الأوّل الابتدائيّ، كان يفتعل مشكلة عويصة يغضب بها أباه، كي يعاقبه الأخير بجرمانه من التوصيلة إلى المدرسة بالسيّارة، ليذهب ماشياً، فيقف أمام محلّ الحلّاقة ندى، التي ألصقت على بلور الباب من الداخل، بوسترًا كبيراً

لميادة الحناوي، فيغرق في نظرها البعيدة المليئة بالشجن، وفي ملاحظتها التي تجعل الحجر يذوب عشقاً. كان الولد يقف طويلاً، نصف ساعة ربّما، وهو يتأمل في ذلك العنق الرخاميّ الأجلد، حتّى تخرج الحلاقة ندى، فتطرده.

خالتي دالية كانت تعشق ميّادة الحناوي أيضاً، تعشق طلّتها، وأغانيها، وشجنها المتجاوز، وبلّور بشرتها الذي يشفّ عن روح جاهزة لتتحوّل إلى ملاك. كانت تعتقد أنّها تشبهها، وكلّنا اعتقدنا معها بذلك، لها قصّة الشعر نفسها، وهي تغيّر ألوانه كما تفعل ميّادة، وتقلّد ماكياجها، وطلاء أظافرها، وحينما تطلق ميّادة كاسيتاً جديداً، يكون عندها في اليوم التالي لصدوره.

مساء اتصلت دالية بالهاتف، وقالت إنّها استطاعت الوصول عبر طرق خلفيّة من الجامعة إلى بيت صديقتها في حيّ السليمانية، وإنّ أهل الأخيرة سيعيدونها إلى البيت، حينما يصير التنقّل آمناً. كانت خالتي تتكلّم من البيت المقابل تماماً لبيت أهلها، بيت مدير السكك الحديدية، إذ لم تكن في ذلك اليوم قد توجّهت إلى الجامعة أصلاً، لقد قضت الوقت مع باسل في غرفته.

* * *

بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، تهدأ الحركة في الشارع الغربيّ، شارع محطة القطار الرئيس، الذي انفتح منذ أواخر الثمانينيات على جسر تشرين، فتغرق المنطقة في سكون محبّب،

إلى أن يصل قطار الساعة الثانية ليلاً، والقادم من دمشق، ثم يجيئ السكون حتى السادسة صباحاً، حيث يصل القطار القادم من اللاذقية، وبين منتصف الليل ووصول قطار دمشق، يكون باسل قد أحضر للحارس على باهم، زجاجة عرق "أندرين جويّد"، وكيلو كباب مشويّ، وتكون دالية قد تأكّدت من خلود الجميع إلى النوم، فأغلقت الباب مهدوء، وتسوّلت عبر الدرج بخطوات قليلة إلى يمين البناية، تقطع الشارع، فتدخل البيت، وتوجه مباشرة إلى غرفة باسل، التي لها باب جانبيّ يفتح على الحديقة، من دون الاضطرار إلى الدخول من الباب الرئيس. لقد أحبّ باسل دالية من كلّ قلبه. كلّما رآها، كان يقبّل يديها بشغف، ويتنهد عميقاً وكانت دالية جميلة جداً، شقراء بعينين عسلتين، وجسد نحيل أبيض. دائماً كانت ترتدي بنطلون جينز straight cut، من Lee، بخصر عال، وقميص "كاريه" أزرق وأبيض وأحمر، ضيق عند الصدر، وكانت تربطه بعقدة أمامية أو جانبية عند الخصر، فييدي نهود ثديها، ورقة وسطها، فتبدو كأنها خارجة من مسلسل "الفيرجين". أظافرها طويلة ومقلّمة، ولذيذة بطلائها الأحمر اللامع الذي يتماوج وهي تقلّب المراجع والقواميس على طاولة مكتبها الصغيرة، وتتناول شطائر "الباتيه" التي تعشقها، والتي كان باسل يحضرها لها كلّ مساء من محل "سومر" أو "سيروب"، فأنزل أنا الدرجات العشرين بخفة، أتناول منه الكيس، فتطعمني من شطائرها اللذيذة، التي نحتفظ بها يوم

الجمعة حتّى منتصف اللّيل، لناكلها ونحن نتابع مسلسل "سفينة الحبّ".

في ليلة من ليالي الصيف تلك، دعاها باسل إلى حفل مسائيّ في القلعة، كان عرض باليه كسّارة البندق، لفرقة مسرح البولشوي الروسيّ، وقد حصل باسل على بطاقات دعوة مجانيّة، تأتي لأبيه، كما تأتي لغالبية المسؤولين الكبار في الدولة. قالت دالية لجدّتي إنّ زملاءها في الجامعة سيكونون هناك، وأقنعتها بالسماح لها بالذهاب، فوافقت بشرط أن تصطحبني معها كمرافقة، ولم يكن أمام دالية خيار سوى الموافقة.

صعدنا إلى مدرّج القلعة، في مساء من مساءات صيف تمّوز الحليّ، المرهف، بهوائه الرزين، وسمائه المضاءة بنجوم واثقة، وقمر يعلن وضوحه، مثل كلّ شيء في حلب: حجارها، وطرقاتها، وصناعاتها، ومواقف أهلها، وتجارها، فليس ثمة الكثير من الأسرار.

على نأامات الخطّوات الراقصة، والموسيقى العبقريّة لتشايكوفسكي، والنسمات الحانية، نمت، وتركت دالية بفستانها الحريريّ الأحمر في حضن باسل، يأبى أن يحرّر ذراعها العارية من ذراعه، يقبل عنقها بين الفينة والأخرى، ويدسّ أنفه بين خصلات شعرها الأشقر، المغسول بشامبو هامول برائحة التفاح الفوّاحة. أيقظني صوت جلبة، وانسحاب باسل ودالية من المكان، وهي تجرّني من يدي. كان معنا في الصفّ ذاته،

المخصّص لضيوف مدير السكك الحديدية، امرأة ثلاثينية، وبنت في حوالي السادسة من عمرها. المرأة فاتنة في الحقيقة! طويلة وضخمة، بعينين زرقاوين وشعر أشقر، وتنحسر فتحة تنورتها الحريرية السوداء عن فخذين في بياض محمرّ، وفي أصابعها تبرق خواتم الألماس الحرّ. بنتها تشبهها، معتنى بنظافتها وهندامها بشكل فائق. في تلك السهرة، اكتشف باسل أنّ تلك المرأة هي زوجة أبيه، وأنّ البنت الصغيرة أخته! كان في جلسته، يداعب الطفلة، فسألها عن اسمها، فكانت لهما الكنية ذاتها، واسم الأب ذاته، وكذلك عمله. لقد تزوّج مدير السكك الحديدية من غادة، إحدى الموظّفات في مكتب الإدارة الرئيس، وأخفيا الزواج عن الناس، لاسيّما أنّها سنيّة، وهو علويّ.

بعد تلك الحفلة، تغيّرت تفاصيل كثيرة في بيت مدير السكك الحديدية، إذ بدأ باسل بابتزاز أبيه مقابل صمته أمام العائلة عن ذلك الزواج، كما تغيّرت تفاصيل أخرى في بيت جدّي: عادت خالتي رجاء من السعودية، والتي كانت قد تزوّجت بأحد أبناء خالتها "سميّة"، التي سمّيناها أمّ الإخوان. رجاء تحجّبت، وعادت لتبشّر في بيت جدّي بالإسلام، على طريقتها. في نهاية ذلك الصيف، صار الحجاب ثيمة مستجدّة في بيت جدّي، إذ تحجّبت جدّتي، وكذلك خالتي دالية التي أزوجت الوقت كلّه في بكاء حار، ندماً على أيّامها التي قضتها سافرة، مستسلمة لذراعي باسل.

باسل أيضاً تحجّب هو الآخر بطريقته، بل بطريقة دالية التي صارت تلقي عليه العظات، وهو غارق في حالة نفسيّة بائسة، فانخرط في الصلاة، لا ييارح جامع "التوحيد" القريب.

* * *

تغرب شمس حلب كلّ مساء من السماء التي تقع وراء بيت مدير السكك الحديدية في محطة بغداد، مصبوغة بحمرة حارقة، ويعرف سائقو التاكسي مواعيد وصول كلّ قطار، فيتزاحمون وقتها على رصيف المحطة، ثمّ يهجرونه وقت انطلاق العربات الملوّنة بالرماديّ والأحمر، والمطبوع على جانبها ثلاثة حروف (خ ح س)، اختصاراً للخطوط الحديدية السورية.

ومع بداية العام الجديد، غادر باسل وأهله ذلك البيت، خرجوا بحقائبهم، ودخلوا باب المحطة المجاور لما كان يبيتهم، وركبوا القطار المتّجه إلى اللاذقية، ولم يعودوا أبداً.

لم تودّع دالية باسل ولا بكلمة. كانت قبل مغادرتهم بليلة قد أغلقت كلّ النوافذ المطلة على الشارع الغربيّ، فغطّ جناح غرف النوم في بيت جدّي في ظلام دامس.

قالت دالية إنّ باسل كان مجنوناً، وإنّه لا يعرف من الحياة سوى السيّارات والسائقين والمسدّسات، مثل كلّ أولاد المسؤولين. مرّة انتظرها، وهي تنزل من باص النقل الداخليّ، فسألها: لماذا يرتدي كلّ الركب ملابس خضراء؟! أليس ذلك

عجيباً! في الواقع كان يلصق آنذاك على زجاج باصات النقل العامة لاصقاً شفافاً باللون الأخضر. ومرة قال لها إنه يشتهي أن يقتحم بسيّارته طابور الناس الذين يقفون أمام المؤسسة الاستهلاكية، بانتظار الزيت والسمنة ومحارم الكليנקس، فيراهم يتطايرون في الهواء، حيث تصير تنانير السيّدات مظلات مقلوبة، وتسقط على رؤوسهنّ أحذية الرجال! ومرة قال لها إنهم فقراء، لأنّ سائقهم فقير، وخادمتهم فقيرة، وحارسهم فقير، ولديهم مرسيدس واحدة، وباقي سيّاراتهم من ماركة بيجو، في حين أنّ الذين يعملون عند المحافظ كلّهم أغنياء، لذلك فهو غنيّ، وسيّارته كلّها مرسيدس!

قالت دالية إنّ باسل بعد أن عرف بزواج أبيه ليلة القلعة، أخذها معه، ودخلا قاطرة أثناء استراحتها، وقرّر أن يخطفها، فهذّد سائق القاطرة بمسدّس تبين أنّه فارغ، إن لم يسمح له بقيادة القاطرة حتّى محطة جبرين على بعد خمس عشرة كيلو متراً نحو الجنوب الشرقيّ. خضع السائق لتهديده، بينما كانت دالية تبكي وتتوسّل إليه ليتوقف.

في المرّات التي صار فيها باسل يصليّ، ذهب إلى الجامع، مشكوكاً بوضوئه، وقف في الصفّ الثاني. كان أمامه رجل يرتدي دشداشة بيضاء، ولأنّه مازال جديداً على إيقاع الركوع والسجود، دخل رأسه أثناء القيام في ثوب الرجل الذي أمامه، ونطح به مؤخّرتة، ففزع الرجل وصاح، ولم يستطع باسل

إخراج رأسه من الثوب، قال إنه حاول أن يشده، لكن المكان
أظلم فجأة وضاق نفسه. اضطرب المصلّون، ولحقوا به وهو
يهرب من الجامع، وضربوه.

* * *

كان ناصر ودوداً وقرياً، وتحاشى كلّ منّا، كيلا يبدو
طفولياً، أن يقول للآخر "كأني أعرفك من زمان"، رغم أنّها
العبارة الأنسب التي تعبّر عن اللحظة. بلا أيّ تحفّظ، قال إنه
مرهق، وإنه رغم حزنه في الأيام الماضية القليلة، كان يستحضر
كلامي وابتسامتي ولمسة يدي، فيصنع بذلك "غيمة تظلّله من
قسوة الوقت"، تعبّره الأخير كان جميلاً

قادنا الحديث إلى حلب. صار يحكي، وأنا أحاول البحث
عن تعبير آخر أكثر بلاغة من قولنا: "الدنيا صغيرة". قال إنّ بيت
جدّه، أهل السيّدة شهيرة، هو تلك الفيلا الأنيقة ذات الحجر
الورديّ، التي تطلّ على الطرف الشمالي للحديقة العامّة في حيّ
العزّيزيّة، باتجاه محطة بغداد، وجدّه هو المحامي بهجت الحفّار....

- ماذا، ماذا...؟! الفيلاً أمام "كان يا ما كان" يّباع
الكوكيتل! شعرت بدوار خفيف ومبهج، أعقبه وقت
للصمت.

لو تعرف يا ناصر: أستطيع أن أخبرك بعدد قضبان إفريز
الحديقة الصغيرة، بلون كراسي الشرفة، بأنواع النباتات في

الأصص الموزّعة على حوافّها العريضة... أخبرك عن شجرة الكينا أمام الباب الصغير على الشارع الخلفيّ، ذي الاتجاه الممنوع، الباب الذي كنت ألعب مع أولاد خالاتي أمامه.

ربّما تكون أمّك هي تلك السيّدة التي تضع على رأسها دائماً لفافات الشعر الشوكيّة، وأحمر شفاه فاقع اللون، وتخرج إلى الشرفة مرتدية الروب دي شامبر، لتطلب منّا أن نبتعد، أو أن نخفض أصواتنا قليلاً! أنا التي كنت أجلس على حافة سور الفيلا، مسندة ظهري إلى قضبان الحديد، وقدماي مرتاحتان على تنوء كبير في جذع شجرة الكينا.

كان ناصر يقول، وأنا أعطيه المزيد من الأدلّة على أنّنا نتكلّم على المكان ذاته، ونضحك، ونضحك غير مصدّقين الصدفة التي ألّفت بيننا.

- هل تعرف بيت الكيّالي، إنهم جيرانكم.
- تقصدين السيّدة رثيفة؟ إيه، إيه!
- رثيفة، هي نانا أم بشار، أخت جدّي. أمّا بيت جدّي فهو في العمارة الكبيرة في صدر الحارة، والتي تواجه الحديقة تماماً، عمارة جوزيف نصّور.
- لا، لا، لا أصدّق، تحتكم عبدو العجلاتي...
- تعرف عبدو أيضاً! مو معقول!
- كنّا ننفخ عنده إطارات درّاجاتنا قبل الخروج بها للتريّض في الحديقة.

- ماذا حلّ بها؟
- من؟
- السيّدة رثيفة!
- ماتت. أصيبت آخر أيّامها بجلطة دماغية، ثمّ ماتت.
- لا حول ولا قوّة إلّا بالله! وابنها بشّار، ألم يكن يسكن وزوجته معها؟
- صحيح، تركوا البيت، وسكنوا في حلب الجديدة، بيتهم كان مستأجراً على القانون القديم.
- وبيتكم، بيت جدّك أقصد؟
- بيت جدّي تملك، وما تزال تعيش فيه. الحارة آمنة في هذه الظروف، لذا خالتي وعائلتها انتقلوا للإقامة معها الآن، فبيتهم في "الموكامبو"، منطقة ساخنة.
- كانت السيّدة رثيفة كما يسمّيها ناصر، أو نانا أم بشّار، كما اعتدنا تسميتها، جارة قديمة لبيت الحفّار، وقد جاءت عروساً، حينما كانت مديحة خانم، جدّة ناصر، تسكن الفيلاً. أنا أتذكّرها تماماً، كانت تداوم على شرب قهوة الصباح عند جدّي، أختها. وأنا أحرص على الاستيقاظ باكراً أيّام الصيف التي نقضيها في بيت جدّي في حلب، كيلا أفوّت حديثها الحلو. كانت في أواخر الخمسينيّات، وكنت في العاشرة من عمري. تخرج من بيتها مرتدية "مانطو" صيفياً، يستر قامتها القصيرة، وكفّيتها الضيّقين، ومؤخّرتها العظيمة، وتحتّه ما يزال روب النوم

"الفاليزير" السماوي أو الزهريّ عالماً بجسدها، بياقة من الدانتيل
تكشف عن ثدين صغيرين أعجفين، نالت منهما بنات خمس،
وصبيان.

ترشف قهوتهما المسكوبة في فناجين جدّي الصيني بنقشة
روميو وجوليت، بكثير من المتعة، وتجبرنا بما لم يجبرنا به خالي
عن الأحداث الدائرة في حماة، بين السلطة والإخوان، تقول:
جاؤوا لتفتيش بيت البيرقدار. صاحب البيت أخفى مسدّسه
في المدفأة التي ما تزال منصوبة من أيام الشتاء. دخل الضابط
وعناصره، فقلبوا البيت فوقانيّ تحتانيّ، سألوه إن كان لديه
سلاح، فأجاب بالنفي، لكنّ طفله الصغير ذا السنوات الأربع،
والذي رأى أباه وهو يخفي السلاح، قال للضابط: عمّو، يوجد
مسدّس هنا! مشيراً إلى المدفأة. اعتقل الأب فوراً، وسيغيب إلى
الأبد. وتختتم نانا أمّ بشار كلامها، بتمتة وتأوّه، لتقول: إيه، الله
يفرجها على العباد! وبعد أن تفرغ جعبة حكاياتها اليومية، تخرج
من عند جدّي إلى عند السيّدة شهيرة، أمّ ناصر، التي تكون في
ذلك الوقت قد استيقظت، ووضعت قهوتهما على النار، بانتظار
رؤيفة خانم.

كان لها ولدان: بشار وفاتح. كان بشار طبيباً عامّاً، بلا
اختصاص، ونظراً لكونه بعثياً عتيداً، فقد تمّ تعيينه الطبيب
المسؤول عن صحّة المطاعم في حلب، وهذا المركز مرموق جداً،
ذلك أنّ حلب مدينة المطابخ التي تجمع الذوق التركيّ المتوسطيّ

إلى العربيّ، لذا كان للدكتور بشار عمل كثير، وسطوة، فهو المسؤول عن التراخيص، ومخالفات مواصفات النظافة والصحة، والذي يطلب الجميع رضاه، بدءاً من بائع السوس والسحلب الجوالين، مروراً بمحلات السندويش، وانتهاءً بأفخم الفنادق. لذلك كانت نانا أم بشار تقريباً لا تطبخ، إذ تأتي وجباتها كلّها من المطاعم بشكل دوريّ. تتوقّف أمام بيئتها وسائل مواصلات مختلفة: درّاجات هوائية يحمل سائقوها صواني مغلّقة بالسولوفان، ودراّجات ناريّة، تحمل في مؤخرتها أطباقاً تحتفي داخل أكياس ورقية، منضّدة بعضها فوق بعضها الآخر، وسيارات تابعة لمطاعم معيّنة، ينزل منها طعام وشراب مختلف ألوانه. دائماً غداؤها مشاوي وكبة نيّة، وعلى العشاء تجدها عندها سندويش السجق والشاورما، أمّا فطورها فمامونيّة، وشعبيّات بالقشطة والفتق، عدا عن التحليات، من هيطليّة وبوظة بالفواكه، ومهليّة بالكمكسرات، ولها غالباً طاولة محجوزة لسهرات نادي حلب، أو نادي الجلاء، أو سيروبيان، وطالما نال أقاربها أو ضيوفها تلك الخطوة.

أمّا فاتح، ابنها الثاني، فقد غادر بيتها صغيراً، لأنّه يرفض أكل الحرام الذي يأتي به أخوه من طعام ومال ونفوذ. قال لأُمّه: "وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما...". لقد تأثّر فاتح منذ يفاعته بأبناء خالته "سميّة"، الذين احتلّوا مكانة رفيعة في تنظيم الإخوان المسلمين، وهم الذين

فتحوا عينيه على الموبقات التي يقترفها أخوه، وظلّوا وراءه
بالسنتهم الذلقة، وسياساتهم الحاذقة في الترغيب والترهيب، حتّى
انضمّ إليهم، وصار فيما بعد عنصراً فاعلاً في جماعتهم.

انقطع فاتح عن دار أمّه وقتاً طويلاً، ولم تره إلى العام الذي
سبق الأحداث العنيفة التي عصفت بحلب في العام 1980. كان
عليه في ذلك المساء الذي منع فيه التجوّل، وقد فتح حزينان بيده
أبواب جهنّم، أن ينقل عشرة رشاشات آليّة، وعشر رمّانات
يدويّة موضوعة في صندوق خشبيّ معزول، من بيت أحد أعمدة
التنظيم في حيّ "الهّلك"، لمسافة خمسة وعشرين كيلو متر جنوباً،
فعاد إلى البيت، أخذ مفتاح سيّارة اللاندروفر المخصّصة للدكتور
بشار، والتي تحمل لوحة خضراء، تشير إلى ملكيّتها للدولة، ممّا
يعني أنّها لا تخضع للتفتيش، وضع فيها الصندوق، وأتمّ مهمّته
بأمان. بعد ساعات كان قد تمّ اقتحام مدرسة المدفعية في حلب،
وقتل حوالي مئة منتسب من الضبّاط العلويّين. بعدها غادر فاتح
إلى تركيا، ودرس الكيمياء في جامعة إسطنبول، وحصل على
الدكتوراه في علومها، وكان قد تزوّج بابنة خالته (سميّة)، وصار
صهراً لأولئك الذين دفعوا به إلى التنظيم، ثمّ غادر وعائلته إلى
السعودية، وهناك اكتشف سرّ التحنيط، كان يعمل على ذلك
منذ زمن طويل. كان قد حضّر خلطة كيميائيّة خاصّة، وحملها
إلى بيته كيلا يسرقها أحد من مختبر الجامعة حيث يعمل. صبّها في
علبة سائل تنظيف البلاط، وتركها قليلاً على طاولة المطبخ، في

تلك الأثناء كانت الخادمة تنظف الأرض، فصبت كمية من السائل الذي ظنته للتنظيف في سطل المسح، وفجأة تيسست يدها. وقبل أن يذيع صيته المتعلق بهذا الإنجاز، كان الشيخ عمّار، الجسر الذي يعبره المبعدون، والمهمومون، والمحكومون بأحكام صعبة قد تصل حدّ الإعدام، قد سوى أمره مع السلطات، لتعفو عنه، وتستفيد من عبقريته في خدمة الوطن، بعد أن دفع المبلغ الذي يتسق مع وزن قهمنه.

كان لفاتح ولدان، التقيت بهما بعد سنوات في بيت جدّي، بعد أن صار من المسموح دخول العائلة وخروجها إلى البلاد. جاء الولدان ليدرسا في جامعة حلب، بعد أن نالا شهادة البكالوريا السعودية، شكلهما غريب، شعرهما طويل وغير مهذب، وجهاهما طافحان بحبوب الشباب التي التهب الكثير منها، وتركت بلا علاج، يرتديان بنطلونات جينز، يصل خصرها إلى المعدة، وترتفع أطرافها إلى ما فوق الكعبين، كي تبقى ظاهرة للصلاة، على حدّ قول جدّي. كان حضورهما بعيداً عن حياة الناس في الشارع في تلك المرحلة. جدّي كان تصرّ على دعوتهما في المناسبات لتناول الطعام، في رمضان، وفي العيد، فهما في النهاية حفيدا أختها، وغريان أيضاً. حينما يحضران إلى دارها، كنت أختبئ في إحدى الغرف، أو أغادر المنزل، لأنهما، كما تقول، لا يحبّان رؤية غير المحجّبات، ولا يجالسان النساء، وكان ذلك من دواعي سروري.

في كانون الأول من العام 2009، بثت قناة الـ CNN شريطاً مصوراً يظهر معسكراً لتدريب عناصر للقاعدة في اليمن، الكاميرا التي دارت كان من الواضح أنها أعطيت أمر التباعد (زروم آوت)، بحيث لم أتمكن من رؤية الحفر التي تركها حبّ الشباب على وجه ذلك الذي يقف في مكان من الصحراء، خلف صخرة يصيح من ورائها بأمر إطلاق النار من الكلاشنكوفات، إنه الولد الأصغر لفاتح، كان هو فعلاً، لا يمكن أن أخطأه، فقد كان المتّم لما نقصني من عقد تجاه العالم، فكلّما تعرّثت به بالصدفة في الطريق أو في الجامعة، أو حتّى عند أحد أقارب جدّي، يرمقني بنظرات اتهام قاسية، تجعلني مضطّرة دائماً لإثبات حسن نيّتي تجاه الله، والدين، والعائلة، والأنوثة....

ماتت نانا أمّ بشار، ولا نعرف هي مع من، أو ضدّ من، مع فاتح، أم مع بشار؟! كانت تبكي بسبب الاثنين، وتدعو للاثنين، وتطلب لهما السداد والتوفيق، والنصر على الأعداء. في سنوات دراستي الجامعيّة التي قضيتها عند جدّي في حلب، كانت تجحد على مكتبتي كتباً كثيرة من المراجع الضخمة، فتسألني عمّا بها، فأنبري لأقرأ لها صفحة من الإمتاع والمؤانسة، بما فيها من عبارات جنسيّة وكلمات محظورة، فتصاب بحالة ذهول، ثمّ تضحك ملء قلبها، وتصيح:

- بي بي، ورجيني ورجيني، هل هذا مكتوب فعلاً؟! هل هذا ما تدرسونه؟ هذا أدب أم قلة أدب!

ثم تأتي في كل مرة لتسألني أن أفتح لها الصفحة التاسعة والخمسين من طبعة المجمع العلمي بدمشق، من كتاب "قطب السرور في أوصاف الخمر"، لتقرأ فيها المكتوب، بأم عينها، وتنتشي باكتشافاتها الجديدة. تأتي أحياناً وهي تحمل همّ العالم في صدرها، لفراق ولديها بشار الذي دخل السجن في قضية فساد مالي، وفاتح الذي غاب مرة ثانية في السعودية، وتقول سمعيني موالاً عراقياً، أفتح آلة التسجيل ليصدق ناظم الغزالي بروميّة أبي فراس الحمداني:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة... أيا جارتا لوتشعرين بحالي...
فتميل برأسها، وتترنّح، وتجهش بالبكاء، ويهتزّ جسدها كله.
قبل وفاتها بأيام، استيقظت جدّي من نومها غاضبة، لا تكلم أحداً، ولم تحمل لي فنجان القهوة إلى السرير كما تفعل كل صباح. سألتها عمّا بها، فلم تردّ، ألححت بالسؤال، فبكت وقالت إنّها حلمت بجدّي الذي كان قد توفي قبل ذلك بعشر سنوات، قد تركها وتزوّج بأختها أم بشار، وأنها مغتظة جداً، وتشعر بغيرة شديدة. وحينما جاءت نانا أم بشار لشرب القهوة، كانت جدّي ما تخلّصت بعد من غضبتها، وشرر الغيظ يتطاير من عينيها. في الليلة ذاتها، أصيبت نانا أم بشار بجلطة دماغية، وماتت بعدها بأيام. بكّت جدّي كثيراً، وكذلك فعلت أنا، وقالت لي: الحمد لله أنّ جدّك كان قد تزوّج بها، وأخذها معه، وتركني.

* * *

حينما تركت حلب، كانت نجوان قد أنجبت ولدها الثالث، بعد زواجها بمهندس صناعات غذائية، له شراكة في معمل كونسروة يقع على طريق "كفر حمرة"، المؤدّي إلى مدينة اعزاز على الحدود مع تركيا. في الشهر الأوّل من 2012، وبعد أن اشتدّت وطأة هجوم الجماعات المسلّحة على ريف حلب الشمالي، تمّ السطو على معمل زوجها، وتفكيكه، ونقله إلى تركيا، ليباع هناك خردة، أو ليتمّ تركيبه من قبل ما بات يطلق عليه قراصنة المعامل، الذين فككوا العشرات منها، ونقلوها إلى ديار العثمانيين. بعض وسائل الإعلام تشيخ أنّ رجال أعمال حلبّيين قاموا بمشاركة تلك الجماعات، طالبين منها تفكيك معاملهم، لإعادة افتتاحها هناك، لكنّ زوج نجوان لم يكن منهم. حتّى العام 2014 كان قد فقد مدّخراته كلّها، وبدأ يبيع على عربة أمام البيت، الحمّص والبقول النابت، الذي كانت نجوان تعدّه له في مطبخهم. كنت دائماً على حذر من معرفة موقف نجوان السياسيّ تجاه ما يحدث، فمواقفها دائماً غير متوقّعة. ترافقنا منذ سنتنا الجامعيّة الأولى، كانت قد قدمت قبلها بأربع سنوات من الإمارات، ودرست مرحلتها الثانويّة في حلب، ثمّ التحقت بالجامعة. هي ابنة عائلة تعود بأصولها إلى الريف. في أحداث الثمانينيّات، أي حينما كانت في السابعة من عمرها، اعتقل أبوها بتهمة الانتماء إلى الجماعة المحظورة. ما تزال تتذكّر مشهد اقتحام مدنيّين لبيتهم بالمسدّسات. اقتادوه عند الفجر، بلا

مقاومة، أمام زوجته وأمه وأبيه، وإخوتها جميعاً. ولم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك. خمس سنوات مرّت، وسَطُوا فيها كلّ من يعرفونه ومن لا يعرفونه للتدخل، دفعوا مالاَ كثيراً، وأعطت النساء الذهب الذي تملكه، ليتأكّدوا إذا ما كان حيّاً أو ميتاً فحسب. وجاءهم خبر بأنه قد تمّت تصفيته، أخبرهم بذلك سجين كان قد التقاه في سجن تدمر. بعدها تزوّجت أمّ نجوان بعمّها الأعزب، الذي كان يعيش معهم في بيتهم في منطقة بستان القصر، كي لا تتشّت أسرة أخيه بأطفالها الثلاثة، والزوجة الصبيّة الجميلة، التي لم تبلغ الثلاثين من العمر.

في مساء من مساءات أيلول من العام 1995، طرق باب البيت على الأسرة التي كانت قد فقدت الجدّة والجدّة، وإذ بالمعتقل يعود من السجن بعد خمس عشرة سنة، يبحث في بيت أبيه عن زوجته وأولاده. كانت أياماً قاسية، توزّعت فيها مشاعر كلّ منهم، بألم وحشيّ لا قبل للبشر به، بما فيهم الطفلان اللذان أنجبتهما أمّ نجوان من عمّها. اختار الجميع البقاء مع العمّ، وسافروا إلى الإمارات، تاركين أباهم وحيداً في البيت الذي تحوّل إلى مدرسة لتحفيظ القرآن. استطاعت نجوان تخطّي الحواجز التي انتصبت في وجهها ببسالة، كانت طبيّة ومجتهدة ومحبة للبحث، وتابعت دراستها حتّى نالت الماجستير، ولم يقف حجابها عائقاً في وجه اختلاطها بزملاء الجامعة، وأساتذتها، ورحلاتها وحفلاتها، مثلما لم يقف ماضيها في وجه حاضرها. قالت لي مرّة: حين

عجزتُ عن ترتيب ذاكرتي، تركتها، مثلما نياس من ترتيب غرفة
قدرة، تعمها الفوضى، والكركة، وحقائب السفر، فلا نعرف من
أين نبدأ، فنخرج منها، نغلق الباب وراءنا بقوة، ونمضي!

* * *

أعادي ناصر إلى مناطق محبة في ذاكرتي، كنت قد هجرتها،
ولم أظن أنني سأستعملها يوماً. أعادي إلى وقت كنت أتعجل فيه
المستقبل، وحينما وصلت إليه، عدت إلى الماضي، وناصر هو
المحرك.

كان في ذلك البيت، بيت الحفار، شباب وسيمون،
بشورتات بيضاء، وقمصان ملوثة، ولا بدّ من أنّه كان واحداً
منهم. كنت أحبّ بيتهم، أحبّ أضواءه الصفراء المنبعثة من ثريات
الكريستال المدلاة من السقوف العالية. أحبّ الصور العتيقة
المصفوفة بعناية على الجدار المكشوف على الشارع، وأكثر ما
أحبّ شجرة الكينا الكبيرة، بأغصانها المتسلقة نحو نوافذ الطابق
الثاني، لتخفي أهل البيت عن عيون الفضوليين، والتي كنت أتفيأ
ظلّها الظليل في فهارات تموز القائظة، قافلة من مشوار طويل من
سوق العريضة أو التل، فأتناول كأس تمر هندي من عند "كان
يا ما كان"، وأقف تحتها أستمع بطعمه الحامض المحلو.

كبرت السيّدة شهيرة في دمشق، وتخرّجت في كلّية الآداب،
قسم اللغة العربيّة، وتزوّجت بالسيّد أدهم العامري، ابن صديق

والدها، والذي كان اقتصادياً هاماً في فلسطين في سنوات الانتداب. جاؤوا من حيفا إلى عمّان، وكان من الذين ساهموا في تأسيس البنك العربي، ورسموا سياساته الاقتصادية، وقد تابع أدهم، والد ناصر، عمل والده في مجموعة البنك، بعد أن تخرّج من البوليتكنيك في باريس. توفي في الخمسينيات من عمره، إثر أزمة قلبية، وبعد وفاته صارت شهيرة تتردّد كثيراً على حلب، بعد أن اشترت حصّة إخوتها في فيلاً أبيها، وكان ناصر يرافقها في إجازاته المدرسيّة في الكليّة العلميّة الإسلاميّة في عمّان.

كانت آخر مرّة زار ناصر فيها حلب قبل أحداث 1982 العنيفة، التي اندلعت بين سلطة البعث وتيّار الإخوان المسلمين، الذي كان يجد حلب حاضنته الكبرى، باعتبارها معقل السنّة. بعدها سافر ناصر إلى أميركا، ولحقت به أمّه هناك، وعادت بعد زواجه لتقضي بقيّة حياتها في عمّان.

امتدّ حديثنا لساعات، أحيينا فيها روح الماضي، ورائحة الياسمين، والعسليّة، والزيزفون، والرطوبة العابقة ببخار مطابخ بيوت محطة بغداد العتيقة. إنّ ذاكرة مشتركة، لا تعني بالضرورة مشاعر مشتركة، لكنّ ناصر يشاركني ممتلكات في غاية الأهميّة، يشاركني في حلب، ذاكرتي الثانية، ونصف هويّتي.

قصر البنات

في صباح 28 آب من العام 1963، تدفقت جموع غفيرة نحو متنزه ناشيونال مول في العاصمة واشنطن، وتجمعت أمام نصب لنكولن التذكاري. لقد جاء مناصرو الحقوق المدنية في أميركا، ليستمعوا إلى ذلك الشاب الوسيم، الأسود، والذي تشعّ من عينيه مكابذات الأنبياء. كان مارتن لوثر كينغ، ببذلته السموكينغ، وقميصه ناصع البياض، يلقي خطاباً على مسامع مئتين وخمسين ألف شخص، من الرجال والنساء والأطفال، ليغيّر ببلاغة ساحرة تاريخ أعظم دولة في العالم الحديث:

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما أن هذه الأمة ستنهض،

لتعيش المعنى الحقيقي لعقيدها.

نحن نعدّ هذه الحقائق بدهية،

أنّ كلّ الناس خلقوا سواسية.

في ذلك الصباح المشرق، وعلى المنصة الرخامية، التي صارت منبراً للحرية، كانت ثلاثة مايكروفونات كافية لإسماع العالم بأسره، ولعشرات السنوات، صوت الشجاعة في عناقها للطوباوية، والذي رددته في ذلك المكان، أشجار الجميز والكرز،

ورآه العالم في دموع الرجال والنساء، المترققة في مياه البحيرة
مقابل قبة الكونغرس:

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما، على تلال جورجيا الحمراء
أبناء العبيد السابقين، وأبناء المستعبدين السابقين
سيكونون قادرين على الجلوس معاً على مائدة الأخوة.
كان يقف بين هذه الجماهير المحتشدة، شاب عربيّ سوريّ،
أسمر، بشعر أسود، وعينين سوداوين واسعتين، ممتلئتين بالحياة،
وبجسد رياضيّ مشربب، وبكثير من الزهو كان يستمع إلى
الخطاب، مدركاً أنّه يعيش لحظة تاريخيّة فاصلة. لقد كان سهيل
بدران، الذي سيصير أبي، طالباً في جامعة بوسطن، الجامعة
ذاتها التي درس فيها مارتن لوثر كينغ. كان قد بدأ للتوّ يعدّ العدة
لدخول كليّة الهندسة المعماريّة، بعد أن أنهى سنته التحضيريّة
بتفوّق.

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما، كلّ وادٍ سيصبح مرتفعاً
كلّ تلّ وجبل سينخفض
كلّ الأماكن الوعرة ستنبسط
والأماكن الملتوية ستستقيم

ومجد الله سيظهر

وسيراه جميع البشر معاً.

كان جدّي لوالدي إقطاعياً كبيراً في منطقة وادي الفرات، امتلك أراضي شاسعة، عمل فيها عشرات الفلاحين، وعاشوا حولها مع أسرهم. وسّع جدّي أعماله من بيع المحاصيل الوفيرة، نحو تجارة المستلزمات الزراعيّة، من حبوب وأدوات وآليّات، وازدهر ملك الله بين يديه. الإقطاعيّ الذي كانه جدّي لا يمتّ بصلة إلى دوقات روسيا القيصريّة أو إلى مالكي العبيد في الجنوب الأميركيّ، ولا يشبه حتّى إقطاعيّ حلب أو اللاذقيّة، الذين كانوا يضربون فلاحيهم بالسياط، ويشغلّوهم بلقمتهم ومأواهم، ويفضّون بكارّات بناتهم، ويدينّوهم بالربا، أو يغرّموهم ذلك الدين، بما يمكن أن يمتلكوا من أراضيهم.

الحاج علي بدران إقطاعيّ بعرف المنطقة، لا وفاقاً لكتب النظرية الاشتراكيّة. لم يرث الأرض عن آبائه الذين كانوا معلّمين وقضاة عشائر. كان مترجماً عن الفارسيّة والتركيّة في قيود الدولة العثمانيّة، واستطاع بذلك أن يدّخر المال الذي اشترى به، على عادة الناس، قطعاً من الأراضي على جانبي الفرات، والتي كانت مبدولة لشساعتها، ولقلّة الناس، وقصر وعيهم عن تملك ما يفيض عن حاجتهم.

أمّا ثراء العائلة فجاء من طرف جدّي، التي ورثت أراضي أبيها وليراته الذهبيّة، وحثّت زوجها على التملك، وكان هو ذا

عقليّة مغامرة، لا سيّما أنّ مغامراته الأولى كانت بمالها هي، وكانت ناجحة في معظمها.

خاض الحاج عليّ بين عامي 1915 و1965 خضمّ مستجدّات كثيرة، فقد بنى أوّل طاحونة جبوب في المنطقة، وذلك لسدّ حاجة الناس من الدقيق والجريش، ثمّ حوّلها إلى طاحونة آليّة. ولما كثر الناس، وزادت رغبتهم في الاستقرار في الرقة وما حولها، بنى مفخرة، أي فرناً لشواء الفخّار، الذي يتحوّل إلى طوب للبناء.

كان العالم في ذلك الوقت يتمخّض عن خرائط سياسيّة جديدة، شملت حربين عالميّتين، وكانت سورية في عين العاصفة، التي أسفرت عن تجمّع لمن قاوموا العثمانيّين وطالبوا بالاستقلال، وبعدها قارعوا الاستعمار الفرنسيّ. أغلب أولئك المنخرطين في سلك السياسة كانوا من العائلات الإقطاعيّة، وقد استلموا الحكم الذي عُرف بحكم الطبقة الأرستقراطيّة، فظلّ بسبب طبقيّته يشكّل مأخذاً على تاريخ النضال في سورّيّة، ومنهم الحاج علي بدران الذي كان ممثلاً للكتلة الوطنيّة في منطقة الرقة وما حولها. قبل ذلك المخاض السياسيّ العنيف، كان رحم جدّي قد تمخّض عن عمّي يوسف في العام 1920، والذي ولد بعد معركة ميسلون، التي استشهد فيها يوسف العظمة، وزير الحربيّة السوريّة في حكومة فيصل الأوّل، فسُمّي باسمه، وكان له منه نصيب، فقد صار بعد ما يزيد على أربعين سنة، وزيراً في حكومة الانفصال، التي أعقبت حكومة الوحدة بين سورية ومصر.

بعد عمّي يوسف، لم تنجب جدّي سوى عمّي ليلى،
فتزوّج جدّي بامرأتين، وأنجبنا منه خمسة ذكور وأربعة إناث،
وحرّمته جدّي على نفسها.

في العام 1936 دكّت المدافع الفرنسيّة الرقّة بحق ليس له
مثيل، فانتقلت العائلة لتقضي أياماً عشرة في ملجأ، هو في الأصل
مستودع للسمن والزيت والفواكه المجفّفة على طريق دير الزور،
وهناك وقع جدّي على جدّي، بعد أكثر من عشر سنوات من
القطيعة، فحملت بأبي.

تخرّج عمّي يوسف في معهد الطبّ في دمشق، مع نهاية
الحرب العالميّة الثانية، وعمل بقيّة أعمامي غير الأشقاء في أراضي
أيهم الممتدّة. كانت جدّي تجلس في غرفتها المطلّة على حديقتهما
الزاهية بشجر الرمان والسفرجل. أمامها دلال القهوة المرّة في
منقل نحاسيّ، تدير بيدها الموشومة بسنابل زرقاء، إبرة راديو
كيمبردج الإنكليزيّ في علبته الخشبيّة، في انتظار سماع نشرة
الأخبار، التي سيعلن فيها أنّ بكرها الدكتور يوسف بدران، وزير
الصحة، قد تمكّن من إيصال أوّل دفعة من لقاح شلل الأطفال
إلى سورية، وأنّ حصّة المنطقة الشرقيّة، ستكفي لتلقيح عشرة
آلاف طفل. كان ذلك هو اللقاح الذي أعلنه العالم الأميركيّ
جوناس سالك، وقدمه للعالم في العام 1955، مؤلفاً من جرعة من
فيروس شلل الأطفال غير النشط، يتمّ إعطاؤها عن طريق الحقن
العضليّ. في تلك النشرة، سمعت جدّي المذيع المصريّ "حسن أبو

العلّا" من القسم العربيّ في هيئة الإذاعة البريطانيّة يقول: إنّ أميركا ستكون سيّدة العالم، وستكون أوربة جارية تسعى عند قدميها. وقتها أصرّت جدّي على ان يدرس سهيل في أميركا، أميركا فحسب.

سافر سهيل بدران، بابا، إلى بوسطن بقدمي فيل، وجناحي نسر، وقلب عصفور! إذ كان له إرث ممتدّ وعتيّد، وحمل رغبة عارمة في النجاح والإنجاز، وعواطف عنيفة وحارقة. ماما السيّ قرأت مذكراته خلّسة، قالت: إنّهُ بلدوزر من الحبّ والرغبة، وإنّهُ كلّما صادف حسناء كان يقول: لقد عثرت على حبيبي!

أنهى دراسته حاصلًا على شهادتي ماجستير، إحداهما في ترميم المدن الأثريّة من جامعة بوسطن، والثانية في التخطيط العمرانيّ من جامعة كاليفورنيا. عمل بعد ذلك في مشاريع وادي تنسي في الجنوب، وشاهد أميركا تدخل لحظة بلحظة عالم الجبروت، بإنشاء حوالي ثلاثين سدًّا، غيّرت وجه المكان، مولّدة أعظم طاقة كهرومائيّة في العالم تقدّر بستين مليار كيلو واط سنويًّا. التحوّل الأكبر الذي استقطب اهتمام المهندس سهيل بدران تمثّل بالمشاريع الترميمية اللاحقة، التي أنشئت لخدمة المشروع الرئيس، فأسفرت عن حياة جديدة في أماكن كانت تعاني التهميش، وصارت مستقرًّا لبشر لهم مساكن ومدارس ومشافٍ وحدائق وأندية ومنتجعات سياحيّة ومراكز ثقافيّة، ممّا شجّع رؤوس الأموال المغامرة على التنافس من أجل النماء. لقد

اختبر المهندس سهيل أحلام شباب في العشرين، وهم يتحدّون
إمكانيّات المستحيل، فقرّر في لحظة إشراق وجوديّ، كما
بسميّها دائماً، أو في لحظة خذلان تاريخيّ، كما تصرّ أختي
سلمى على تسميتها، أن يعود من هذا العالم المتعاضم وراء
البحار، إلى الرقّة، مدينته البدائيّة، التائهة بين البادية والريف،
والتي تحمل إمكانيّات القيامة كلّها. بابا يقول إنّ الأسرار تقبع
دائماً في الأشياء المتناهية في الصغر، والتي تولد منها الأشياء
الكبيرة، وإنّ الشكل المكتمل كالدائرة، هو شكل ميّت، ليس فيه
مكان لسرّ محتمل!

كان وقتها قد قرأ مذكرات "والدو إمرسن"، ذلك الذي
بخياله الجامح، وبرؤياه المتنسّكة، كتب المدوّنة الروحيّة للحلم
الأميركيّ. كان إمرسن قد ذهب في القرن التاسع عشر إلى
أوروبا، ليعيش مجد العالم القديم، لكنّه وجدها تحتضر، بعد اكتمالها
فكراً وعلماً وفلسفة، وقرّر أنّ القدرة كامنة في اللّحظة الصفريّة
التي تعيشها بلاده "أميركا"، فعاد إليها مسرعاً، ومبشّراً بالعالم
الحُرّ. وكذلك كانت أميركا بالنسبة لسهيل بدران، عالماً وجد
مساره نحو النهاية، في حين أنّ اللّحظة الصفريّة التي تعيشها بلاده
سورية، هي الحلم الذي عليه أن يؤمن به ليكون، وستكون الرقّة
ووادي الفرات، مدن الآفاق الجديدة، كما كانت مدن وادي
تنسي. كانت سورية تنبني في ذلك الوقت في نطاق حركة
ترويك السبعينيّات، وعلى المواقف السياسيّة والأهواء التي قامت

على محاربة العائلات الإقطاعية، والتي ينعتها "البعث" بالرجعية،
ومنها عائلة بدران، ألا تكون عائقاً أمام البناء، كما يجب أن
تُضاء الهوامش بقناديل المحبة.

* * *

انخرط المهندس سهيل في العمل في مشاريع الفراتين الأوسط
والأدنى، حيث كان يتمّ في بلدة الطبقة على بعد أربعين كم
غرباً، بناء سدّ الفرات، الحلم الذي سيضيء أبعد قرية في سورية
بنور الكهرباء، وما سيتبعه من تنمية، وستكون المدارس والمشافي
والحدائق، ودور سينما في الهواء الطلق، ونواد رياضية،
وستتصلح آلاف الهكتارات الميّتة في أراضي الجزيرة السورية.
كان سهيل يقفز فوق العوائق والبيروقراطيات والمحسوبيات،
والإدارات التي كانت تعيّن في دمشق العاصمة، وتعمل غالباً عن
بعد، بولاية مسؤولين من البعثيين، بعيدين عن طبيعة الناس
والمكان، ويتحكّمون فيه بملايين الدولارات. والأهمّ من ذلك
كلّه أنّ المهندس سهيل، كان يحفظ تلك الأراضي، بالشبر، عن
ظهر قلب، يعرف تربتها وماءها، مثلما يعرف فرحها وغضبها،
فكثير منها كان ممّا سلبته الثورة من مال جدّي ببدعة "التأميم".

كان التأميم أشبه بطلقة قاتلة أصابت معظم الملاكين، الذين
تمّ تفكيك إقطاعيّاتهم، ومنحها للدولة التي ستوزّعها على
الفلاحين تحت الشعار الذي تغنينا به طويلاً في المدرسة: "الأرض

لمن يجرثها"، وأمّا في البيت فكانت عمّي ليلى تصبّ جام شتائمها على الذي وضعه، فقلبَ حياتها، أخذ مال أبيها، وساواها ببضعة فلاّحين كانوا يحملون السمن والعسل لفظورها، ويحرقون الناموس المحوّم في السماء، قبل أن يوقظها من غفوتها على سرير النحاس المنصوب على شرفة البيت الصيفيّ وسط الحقول المطّلة على الفرات.

في العام 1963 مات جدّي بالتأميم، أصيب بنوبة قلبيةّ، حينما رأى أحلامه وأفكاره وعرقه صار ملكاً للآخرين، بشرعيّة كلمات كان قد قالها قبل ذلك جمال عبد الناصر، الذي أراد أن يكون فارساً على ظهور بضعة مئات من أصحاب الأملاك، وحذا نظام الثورة في سورية حذوه: أن نأخذ من الذين يفكّرون ويعملون، لمنح الذين كانوا، كما يصفهم الخال إبراهيم، ناظر الأرض، يقعون على النساء بين الحقول، في مواسم الخصاد، ثمّ يستحمّون في مياه النهر!

كان العاملون في تلك المشاريع من مهندسين ومديرين وحتى عمّال، ينظرون إلى المهندس سهيل على أنّه إقطاعيّ، وريب ثقافة رأسماليّة درس في أهمّ مراكزها، مع إيمانهم أنّها الفضيلة المتخذة شكل قهمة، في حين كانت الخبرات جلّها قد قدمت من الدول الاشتراكيّة. ما أن حلّت الثمانينيّات حتّى كانوا يقفون بأبنائهم طواير أمام كوة صغيرة لبناء أبيض ضخم في حيّ الروضة في دمشق، يرفرف فوقه علم أميركا، ومعهم

رسائل توصية أو ضمان تعريفيّ من المهندس سهيل بدران،
يضمن مقابلات ناجحة لأبنائهم مع القنصل الأميركيّ من أجل
منحهم الفيزا إلى هناك.

أول بناء عمل المهندس سهيل على ترميمه بعد عودته من
أميركا، كان القصر الذي ولدت فيه، وعشت طفولتي
وشبابي، والذي يعود إلى أكثر من مئة وخمسين عاماً. ورثه
جدّي عن أبيه، ثمّ قايض به أبي إخوته، بالتخلّي عن بعض إرثه
مقابل أن يتخلّوا له عن البيت. قام بابا بعملية ترميم بيتنا مثلما
يفعل مع كلّ ما يحتاج إلى ترميم، يحتفظ بهويّة الأشياء، ويبني
حولها بانسجام لا يجرح العين ولا الروح! ماما ساعدته كثيراً،
منحته رؤيتها المدينيّة المختلفة، والمبنيّة على قراءات عميقة في
الفلسفة والفنون واللغة الفرنسيّة. كان أبي قد تعرّف إلى أمّي
عن طريق خالها الذي درس معه في بوسطن، والذي دعاه إلى
حفلة عشاء بمناسبة زواجه في نادي السعد في حلب، وهناك
التقى بماما وأحبّها. كانت ماما متزوّجة قبله من قبطان من قباطنة
أعالي البحار، وسليل إحدى عائلات حلب البورجوازيّة الكبيرة،
لكنّها انفصلت عنه بعد أقلّ من سنة من الزواج، إذ كان يصرّ
على اصطحابها في رحلاته البحريّة، وكانت هي تعاني من دوار
البحر الذي عذبها خلال الأشهر التي رافقته فيها، كان يحبّها
لدرجة أنّه لا يستطيع مفارقتها لليلة واحدة، وهي تراه أنانيّاً ولم
يتفهم معاناتها، فتركه، وتزوّجت بابا بعد لقاءهما بأيام قليلة.

عارضت جدّي الزواج، بسبب زواج أمّي السابق، لكنّ عمّي ليلي، التي كانت في خدمة جدتي في أيامها الأخيرة، كانت شديدة التأثير عليها، وقالت إنّ هذا ما يحدث في أرفع العائلات في العالم، وإنّ جاكين كيندي كانت متزوّجة من جون كيندي، قبل أوناسيس! لقد كانت عمّي ليلي مدمنة على قراءة مجلّات "الموعد" و"الشبكة"، و"روز اليوسف" في حين توافرها، تنلقط منها أخبار المشاهير.

صار في بيتنا جناحان، الجناح الشرقيّ أثريّ، مبنيّ من الطوب العتيق، المرمّم، وكأنّ بناءً من القرن الثامن عشر نفّض يديه من إتمامه بالأمس، سقوفه معقودة بالقباب والمقرنصات، على الطراز العبّاسيّ، وفيه مكتب وصالونا استقبال، وغرفة طعام واسعة، تفتح على حديقة داخلية مزروعة بأشجار الليمون والكباد والورود، حول بركة سباحة بطول سبعة أمتار، وعرض ثلاثة، وعمق متدرّج من متر ونصف إلى مترين ونصف، بأرضيّة من الغرانيت الأزرق. والجناح الآخر الغربيّ، حديث فيه غرف النوم، الموزّعة على طابقين، يربطهما درج داخليّ صغير، ينتهي بعلية، ويؤدّي من الأسفل إلى باب البيت الرئيس الذي يفتح على حديقة خارجيّة، بسيطة، مزروعة بالياسمين والعسلية، وشتلات الريحان والورد الأحمر، فيها كراسٍ مقشّشة، تحوّلت مقاعدها مع الزمن إلى حبال بلاستيكيّة ملوّنة، فصار كرسيّ أزرق، وآخر أحمر، وثالث أخضر...

كلّ المقتنيات في بيتنا ثمينة، ومنتقاة بعناية، ولها ذكرى. الصالونات من طراز لوي كانز، وغرف الجلوس من طراز هارودز، وكلّها بتنفيذ صانع الأثاث الحلبيّ "ليون مسابكي"، ثريّات الصالونات من الكريستال الخالص، جاء بها بابا من النمسا، وثرّيّات الغرف الأخرى من البرونز، وثلاثة كانت قناديل زيت قديمة، وجدتها ماما مرميّة في قبو البيت العتيق، تعود إلى أيام جدّ أبي، وحوّلتها في حلب في محلات الحموي للأنتيكات، لتصير ثريّات كهربائيّة. السجّاد كلّ عجميّ طبعاً، فنحن عائلة لا تقتنع لا بالصينيّ ولا بالألمانيّ مهما بلغت عرافته! ورث بابا سجّاده عن جدّي، الذي ورثه بدوره عن أبيه وجدّه، وهكذا... سجّادتان اثنتا عشريّتان، وثلاثة ستاويّات، وخمس من القطع الكاشانيّة الصغيرة. الـ (فازات)، والكؤوس، ومنافض الفضّة أو الكريستال الأبيض والملوّن، مربّبة بعناية على الكونسولات والطاولات وفي الفيرينات، جاء بها والدائيّ من أسفارهما المتعدّدة إلى بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا. اللّوحات على الجدران أيضاً كلّها أوريجينال، معلّقة بحميّة بادية، وتعود لتشكيليين سوريين وعرب، معظمهم من الأصدقاء، الذين يحبّ بابا اقتناء لوحاتهم من المعارض التي كانوا يقيمونها في دمشق وحلب وبيروت: لؤي كيالي، وفتاح المدرّس، وسعد يكن، ووحيد مغاربة، وشريف محرّم، وتمام الأكحل، وابن الرقّة فوزّ يونس. أمّا القطعة الأعزّ التي تزين الصالون الكبير في الجناح

العتيق، فهي خزانة الكتلة الوطنيّة، خزانة من خشب الجوز بارتفاع متر ونصف، وعرض متر، وعمق نصف متر، في أسفلها درفتان متجاورتان، وفي أعلاها ستّة أدراج، ثلاثة في كلّ جهة، كان جدّي يضع فيها الوثائق السياسيّة المتعلّقة بشؤون الكتلة الوطنيّة، حينما كان ممثّلها في المنطقة، ويعدّها أبي شاهد عيان على تاريخ أسرته السياسيّ. حينما عاد من أميركا، وجدها قطعة معدّدة، تضع فيها عمّتي ليلي جرائد قديمة، وفوط تنظيف الغبار، فطلب إلى السيّد ليون مسابكي تجديدها، فدهنها بلون الخشب الداكن، أعاد رسم زخارفها بقلم الذهب، ووضع لأدراجها مقابض برونزيّة جديدة، وألبس سطحها بقطعة من الرخام الأبيض الثمين، تتخلّلها عروق رماديّة وسوداء، اصطفت عليها ثلاث منافض صغيرة من الكريستال الأزرق، وأقفال نحاسيّة عتيقة بأشكال حيوانات: سلحفاة، وضبّ، وأنعى، اشتراها بابا من سوق مسقط القدم في عُمان، تتوسّط تلك الفرادة التي ظلّت تدهش كلّ من يراها، علبة مخمليّة حمراء، تحتوي على بيزو من الذهب الخالص ذي العيار 24، وقد نقش عليه اسم المهندس سهيل بدران، كذكرى لفوزه بالجائزة الأولى لمنظّمة المدن العربيّة، عن ترميمه لسور الرقّة الأثريّ، في العام 1984.

العمل المنزليّ الوحيد الذي نكاد نبرع به أنا وأختي، هو تلميع التحف، وتنظيف السجّاد، رغم أنّ بيتنا لم يعدم الخدم يوماً، وكنت أعني مرحلة خادمتنا رحيمة الكرديّة التي قُلت،

وجميلة النورية التي كانت تقول إنّ أخاها تبرّع بكلّيته للمطربة سميرة توفيق، ثمّ صباح العلوية التي تزوّجت بضابط في الجيش. كانت ماما تقول إنّ تلميع الأنتيكات هو شغلنا لا شغل الخدم، يجب أن نتأمّل في عظمة الروح التي صنعتها، ويجب أن نحملها بصماتنا. قليل من الماء على الكريستال، ثمّ نمسحه بفوطة جافة، أمّا الفضّة والنحاسيّات، فتمسح بقماشة من القطن مبلّلة بمستحضر خاصّ يأتي من بيروت، ولوحات الزيت ينفّض عنها الغبار بمنفضة الريش، كي نحفظ ثبات ألوانها.

منظر البيت من الخارج لا يمتّ على الفخامة التي تقبع في الداخل، وذلك وفاقاً لرؤية أبي المعمارية، التي أرادت له أن يكون منسجماً مع بيوت الأقارب والجيران البسيطة في الحارة، في حين يبدو بيت عمّي الوزير، والذي يبعد مسافة خمسة بيوت عن بيتنا، أشبه بقلعة مهيبة، يعرض المارّة عن المشي أمام بوابتها، فينزلون عن الرصيف، وينتقلون إلى الجهة المقابلة. لكنّ البيت الأكثر ألفة كان بيت عمّي فيصل، أصغر أعمامي، وابن هاجر ضرة جدّي. بيت يفيض بحياة مبهجة صنعتها زوجته الإيطالية وأبناءؤه الذكور الثلاثة. درس عمّي فيصل الفنّ التشكيليّ في روما. كان لديه نزعة مروق واضحة منذ صغره، بعد موت أمّه تربّي في حجور الخادومات، وفي السابعة عشرة من عمره وجدته جدّي في قبو المنزل، معتلياً خادمتهما رحيمة، التي اعترفت بأنّها لم تكن المرّة الأولى، وبناء على ذلك تمّ تسفيره إلى روما، وجاء أهل رحيمة من عفرين لاستعادتها، ومن ثمّ

قتلوها. قال أبي إنّ دماء الإقطاع استيقظت في عروقه، فاعترضت جدّي قائلة: بل هي الدماء الخنيسة التي ورثها عن أمّه في إشارة إلى ضرّتها الراحلة. ذكرّتها عمّي ليلي بأنّهم كانوا قد وجدوا عمّي يوسف في طفولته وقد عرّى إحدى الخادِمات، وأضجعها على مصطبة، وراح يحدّد أعضائها بقلم الفحم، مؤكّداً أنّه سيجري لها عمليّة جراحية، فأجابت جدّي بحدّة، أنّه وقتها لم يكن قد تجاوز العاشرة، وكان قد صمّم على أن يصير طبيباً، وأنّ ما فعله كان لأغراض علميّة بحتة.

تزوّج عمّي فيصل بالإيطاليّة ناتاليا، كانت مثله لديها ميول هيبيّة، سكنت الرقّة لسنوات قليلة، قضت جلّ أيامها تركّض في الحارة، وراء صبياتها المفعمين بالشقاوة، تقذفهم بما يقع تحت يدها من أحذية أو أغراض منزليّة، وهي تصيح بعريّة مكسّرة: "بسدان سرسري". وكانت العمّة "سويداء"، إحدى العوانس الشهيرات في الحارة، والتي تسكن في بيت مجاور، تستيقظ على صوت صياحها، فتخرج بثوب قصير ترتديه نساء الرقّة غالباً تحت الثوب الخارجيّ الطويل، بلا حمالة صدر، ثدياها يتفافزان أمامها مثل نذيرين لمعركة أكيدة، وهي تحاول تثبيت عصابة الرأس التي تروغ من بين أصابعها، وتصيح: الحقوا هذه المرأة الجنونة، ستقتل صبيتها! يهرب الصبية الثلاثة إلى عند العمّة سويداء، ويحتمون بدارها الأشبه بمحجر، فتردّ ناتاليا: "سويداء سرسري كمان"!

* * *

كانت العمة سويداء شديدة البياض، قصيرة، وسمينة، وبمؤخرة ضخمة، يعجز لباسها التقليديّ الواسع عن إخفائها، وبضفيرتين صغيرتين في شعرها البنيّ. كانت تخرج كلّ صباح لتكنس الرصيف أمام دارها، فيرتسم الشقّ الخلفيّ بين إلبتيها بوضوح، نتيجة دخول قماش الثوب فيه، ممّا يجعلها محطّ أنظار الصغار قبل الكبار من مقيمين وعابرين، تبين فيما بعد أنّها لا تستطيع ارتداء السراويل الداخليّة، لأنّها تحزّ لحمها، فقرّرت أن تتخلّى عنها، وأعلنت ذلك أمام الجميع. ماما كانت تستهجن هذا التصرف بشدّة، تقول إنّه غير لائق، وإنّ العمة سويداء تعيش في جاهليّة مفرطة، وأقول لها إنّها تصلّي وتصوم وتقرأ القرآن. عمّي فيصل يقول إنّها نموذج في الثوريّة، بل نسخة متقدّمة من جماعة الـ "سان كيلوت" *sans-culottes*، التي ظهرت في باريس إبّان الثورة الفرنسيّة، وتضمّ نساء كادحات، ثائرات على التقاليد الأرستقراطيّة، التي تتضمّن ارتداء البنطلونات القصيرة المعدّة لركوب الخيل، وتعدّ هذه الجماعة أحد أصول الحركة النسويّة في العالم.

وضوح العمة سويداء واستبدادها الثوريّ كان يبعث في نفسي إعجاباً وفرحاً، فأجلس على عتبة بيت الجيران وأتأمل حركتها الدائبة التي لا يعيقها جسدها الثقيل، فكانت تصرخ بي قائلة: جوجو، لا تجلسي على العتبة، فالجان يتناكحون على العتبات، وأنت تزعجينهم. كانت الوحيدة في العالم التي

تناديني جوجو، لأنّ أسماء الدلع ممنوعة في بيتنا، وكنت أنتفض
جرّاء قولها، أغيّر مكاني وأنا أفكّر: لماذا يترك الجان كلّ هذا
المكان الفسيح، ليفعلوا فعلتهم عند العتبات!

سافر عمّي فيصل بعائلته ليعلم الفنّ في جامعة بغداد، حصل
على عرض مغرٍ عن طريق أصدقائه الذين تعرّف إليهم في أثناء
دراسته في روما، في حين كانت فرص غير البعثيين ضعيفة في
تحصيل عمل في جامعتي دمشق أو حلب، وعلى الرغم من أنّه
ظلّ يحارب التملّك، والإقطاع والرجعيّة، متأثراً بخُلطة غريبة من
الوجوديّة والماركسيّة، كان يعيش من ريع ما تبقى من أرض
تركها له أبوه. كانت آخر مرّة رأيناه فيها حين ودّعنا العام
1983، بعد اعتقاله لمدة سنة نتيجة علاقاته بعراقيين بعد قطع
العلاقات برمتها بين البلدين، إذ غادر إلى روما، ومنها إلى بغداد،
وحصل هناك على الدكتوراه، ولم يترك العراق على الرغم من
الحروب التي دارت كلّها، كما أنّه لم يعد قادراً على العودة بعد
اتهامه بالانتماء لجناح البعث العراقيّ، وظلّ يحنّ إلى وطنه إلى أن
مات هناك قبيل دخول الأميركان بأشهر.

في العام 2005 سافرت من الدار البيضاء إلى ميلانو لحضور
مؤتمر عن أساطير نساء المتوسط، على متن الخطوط الجويّة
الإيطاليّة، فأعلن مضيف الرحلة عن ترحيب الكابتن قيس بدران
بالمسافرين، تأكّدت من الاسم بلغات أربع، كان قائد الطائرة
قيس ابن عمّي فيصل، طلبت لقاءه، فجاء إليّ حوالي منتصف

الرحلة في مقعدي، تعانقنا طويلاً! كان في غاية الوسامة والعنفوان، يشبه أبي كثيراً، وله نظرة البدرائين الحارقة. وقعت في حبّه، وتمنيت لو أبقى معه إلى الأبد! في ميلانو عرّفني إلى زوجته الإيطالية، قال إنهم انتقلوا جميعاً إلى إيطاليا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وأنّ نثاليا أمّه ماتت قبل سنة، أصيبت بتماس كهربائيّ، وهي تزيّن شجرة الميلاد.

سلیل کرملہایم

عاد ناصر إلى دبيّ، وتركني مع كثير من الفرح، أغيب في عملي، وحينما أغلق ملفّاتي عند المساء، يكون قد لمع في عقلي مثل فكرة عبقرية. لم نتواصل عبر آية وسيلة، لا عبر الهاتف، ولا الإيميل، ولا عبر أيّ ماسنجر. سلّمنا مسألة تواصلنا إلى يد الوقت. أنا اكتفيت بالألفة التي صنعها، وهو اكتفى بالعزاء الأثويّ كما أشار. الأخبار الموحجة التي تأتي من البلاد هي التي تخرجني من الغبطة التي صنعها، فأعود لأدخل في دوامة القلق الكئيب. أتصل بأهلي في الرقة لأطمئن، وحين تنقطع الاتصالات أبدأ إلى صفحتي في الفيسبوك، حيث أسأل عنهم أصدقائي الذين يكلّمون أهاليهم عبر الأقمار الصناعية المتمثلة بهواتف "الثرّيا"، والتي صار لها مراكز مأجورة في المدينة، يذهب الناس إليها، فيكلّمون أحبّتهم، أو يتلقّون منهم اتصالات، ليطمئنوا عن أوضاعهم. كنت أعطيهم هاتف بيتنا الأرضيّ، فينقلون لي رسائل أبي أو إحدى أختيّ، المطمئنة غالباً. لقد صارت حياتنا صعبة حقاً!

السريّر الواسع الذي أستلقي عليه في الاستوديو الأنيق المستأجر من أجلي في منطقة الراية غرب عمّان، يلتصق بالجدار الذي تشغله نافذة عريضة، أرى منها بوضوح السماء، والحديقة

الصغيرة التي تشغل المساحة المقابلة للشارع، والمزروعة بأشجار حرجية حولها أسلاك شائكة. النافذة الأخرى المقابلة، تطلّ على أحد فروع البنك العربيّ، ومقهى الماوردي، ومجمّع تجاريّ، لذا لا أقربها إلّا لماماً، نظراً للضجيج الذي تبعثه. هناك غرفة داخلية واحدة لها باب، وفيها سرير، وملحق بها حمام، في حين تفتح المساحة المتبقية من المكان على بعضها لتشكّل صالة واحدة واسعة، مقسّمة بالأثاث إلى منطقة نوم، ومنطقة جلوس بكنبتين صغيرتين، وكرسي كبير "بيرجير"، ومكتب صغير بطاولة وكرسيّ وخزانة ملفات، ومطبخ أميركيّ، وحمام. البيت مزين بلوحات صغيرة مصوّرة عن لوحات أصلية، وبـ "فازين" بورود صناعية، أوّل شيء فعلته حين دخولي المنزل، هو أنّي رميت بها جميعاً، وضعت اللّوحات الصغيرة التي اصطحبتهّا معي، والمرسومة بأيدي فنانين حقيقيّين، كان كلّما توافر لي فائض مال أقتني لوحة زيت أو إكرليك، بتوقيع اسم مرهف يشقّ طريقه في عالم التشكيل، وثمة بعض الهدايا من أصدقائي التشكيليين الذين عرفتهم في المناطق القصية التي سافرت إليها أبحث عن تجلّيات السمات الأنثروبولوجية للشعوب في فنونهم.

لم يتسنّ لي أن أحمل كلّ ما رغبت في حمله، بسبب خروجي السريع، اكتفيت بصورة للعائلة، وقنديل الزيت العتيق، وصورة تجمعني بنيكولاي تشاوشيسكو، الرئيس الرومانيّ الأسبق الذي تمّ إعدامه مع زوجته إلينا رمياً بالرصاص في العام 1989.

يعود قنديل الزيت العتيق حسب مخمّني الآثار إلى الحقبة العباسيّة، لقد وجدناه مع مجموعة من اللقى حينما حفرنا بركة السباحة الملحقة بأرض قصرنا، وكانت مجموعة من الدمى الخزفيّة الصغيرة، وكؤوساً، ومزهريّات، وأطباقاً لتقدم الطعام، ما زال بعضها يحتفظ بتمام شكله، وجدنا أيضاً جرنّاً كبيراً من المرمر الأبيض، المنحوت بأغصان زيتون تزين قاعدته، ورجّح بابا أنّه جرن المعموديّة، ويعود إلى العهد البيزنطيّ، وأنّ المكان يعود لعائلة مسيحيّة كانت تسكن بيتنا في قديم الزمان. أشاع بعض أقربائنا أنّا عثرنا على ذهب، وبقيت جود تراقب أعمال الحفر، وتنتظر كلّ ليلة أن تصبح على كنزها المتخيّل، لكنّ ذلك لم يحصل أبداً. في الحقيقة لو حفر أيّ من أهل هذا المكان تحت بيته لوجد مثلما وجدنا وأكثر، لقد اختلطت طبقات الأرض بفعل حركات الزمن، من زلازل وانهيارات، واشتبكت مخلفات البشر التي انتمت إلى مراحل متباينة. الكنز الذي عثرنا عليه أخذته لجنة التقصّي إلى متحف المدينة، احتفظنا بقنديل الزيت الذي يشبه فانوس علاء الدين السحريّ، وإحدى آنيّتي الزهر. رجوناهم أن يتركوا لنا جرن المعموديّة، لنحوّله إلى حوض للسّمك. لكنّ ذلك كان مخالفاً للقانون بحسب قول بابا.

كنت بارعة في جمع المساعدات الماليّة، ولديّ عدد كبير من دفاتر الإيصالات: فئة الخمس ليرات، فئة العشر، فئة الخمس والعشرين، أعطي المتبرّع إيصالاً مقطوعاً من دفتر، وأحتفظ

بكعب الورقة كدليل لإحصاء نسبة الدخل. وكانت مناسبات التبرّع في سورية كثيرة: تبرّعوا للانتفاضة الفلسطينية، تبرّعوا للسودان، تبرّعوا لجنوب لبنان... في الطريق، وفي السوق، وفي النقابات، وفي الدوائر الرسميّة. نذهب بتصريح من المدرسة لنجمع التبرّعات، ولم أكن أوفر أحداً، أمّي وأبي، وأعمامي، والجيران، ومصروفي. صارت التبرّعات شغلي الشاغل، جمعت مبالغ كبيرة، مرّة جمعت ألفي ليرة، ونتيجة لجهودي العظيمة رشّحتني المدرسة للسفر إلى دمشق، كي أشارك في استقبال نيكولاي تشاوشيسكو، القادم إلى القطر في زيارة رسميّة. حينما وصلت مع زميلتي مايا ابنة المسؤول الكبير التي رشّحت أيضاً للمشاركة، إلى مكان الاحتفال، سمعت مدير المسرح يطلب من مساعده أن يأتي له بفتاة حلوة كي تقدّم الورد لنيكولاي تشاوشيسكو، طار عقلي، وأسرعت نحوه، وقلت له أنا سأقدّم الورد! نظر إليّ وأنا لما أتجاوز العاشرة، بتنورة كحليّة قصيرة، وقميص أبيض، وجورين مزيّنين بشرائط حريريّة، وحذاء جديد، وقد عقدت شعري على هيئة كعكة تتوسّط رأسي. قال لي: تقدّمين له البوكيه، ولا تقترين كثيراً منه، إلّا إذا بادرك بقبلة. مايا أسقط في يدها، كانت ترميني بنظرات متوعّدة، فليس من حقّ أحد أن ينال آية حظوة بوجود بنت مسؤول كبير في الدولة، لا سيّما شرف تقديم الورد للرفيق نيكولاي تشاوشيسكو. حاول المشرف الذي يرافقنا أن يتدخل لتبديل الأدوار، لكنّ مدير

المسرح كان حازماً في قراراته. باقة الورد كانت كبيرة وفوَّاحة، زهورها بيضاء وحمراء، تحتضنها أوراق خضراء عريضة ويانعة، ما يزال لونها يضيء الصورة رغم مرور السنوات. وصل الضيف الكبير إلى مسرح نادي الضباط، وقبل أن يرتاح في مقعده كنت قد صرت أمامه، أرفع جسدي الصغير لأقترب من قامته الفارعة. انحنى بشعره الأبيض وسنواته القريبة من السبعين، مازلت أذكر بقع النمش الكثيرة على يده التي وضعها فوق يدي متناولاً منّي الورد، شعرت كأنه جدّي، فتجاهلت كلام مدير المسرح، اقتربت كثيراً كثيراً، ففاحت من جلد رقبته رائحة منعشة، وتبادلنا قبلتين قويتين.

دعني مايا لزيارتهم، بعد مرور أربع سنوات على لقائي التاريخي بتشاوشيسكو، شغلت جهاز الفيديو، وأرتني المحاكمة التي كان محظوراً آنذاك تداولها. تشاوشيسكو وزوجته إلينا يواجهان لجنة تحقيق من قيادي الثورة، الرجل الذي له رائحة الثلج الطازج حين يعانق أشجار الزان الباسقة، والذي قبلني بجنوّ بالغ سيمنعني من تصديق ما نسب إليه من قهم غريبة، يجلس الآن وزوجته البائسة مشعثين، مثل أبوين فقيرين ودّعا ولدهما الوحيد إلى القبر، يدافعان عن لحظاتهم الباقية بشراسة، ويصرّان على أن يموتا، إن كان لا بدّ من ذلك، معاً. إلى لحظة انتهاء المحاكمة لم يكونا مصدّقين ما يحصل لهما، وأنهما حقّاً طاغيتان، أنا أيضاً لا أصدّق كلّما تذكّرت النمش على يده البيضاء. كانت إلينا

تصرخ وتقول: لا تلمسوني، لماذا تربطوني، لقد كنت أمكم، أنا أمكم! كان صوتها ملعلاً كأنه صوت الحق، وكان نيكولاي أكثر تماسكاً. بكيت من كلّ جوارحي، والحارس الذي ساقهما إلى حتفهما كان يبكي أيضاً. نسمع بعد ذلك صوت الرصاص، ثمّ تسلّط الكاميرا على جثته الهامدة، يأتي طبيب الثورة، يغمض عينيه، ويعلن موت الرئيس.

مات والد مايا في دمشق بعد سنوات من تحوّل عمله إليها. ذهبت لتعزيته، جلسنا في صالون واسع مهيب، في الـ "فيلا" التي تحتل تلة رابية في إحدى ضواحي العاصمة. تأملت بنظرة الآثا الباذخ، وأنا أضع حقيبة يدي على طاولة بجوار مقعدي. كانت قاعدة الطاولة عبارة عن جرن المعموديّة البيزنطيّ الذي وجدناه في دارنا، يشكّل سطحها لوح من الزجاج، مقصوص بشكل دائري، مشطوفة الأطراف، وعليه صورة الفقيد في إطار ذهبيّ، ربط بشريط أسود، وإلى جوارها فنجان القهوة المرّة التي سأشربها لراحة نفسه.

* * *

حينما يحطّ الليل على منطقة الرابية تتحوّل الحديقة أمام سريري إلى مرتع للريح، أسمع أصواتاً تشبه النعيق، وهرير قطط، وتتحوّل الأشجار إلى أشباح متعانقة، فأنطوي على نفسي في السرير، وأهرب بعينيّ إلى السماء فأراها أكثر ألفة، أحلق فيها أكثر فأكثر، فأجدّها قرية، ونجومها مثل قطع حلوى غزل

البنات، وأستطيع أن أتناولها بمجرد أن أرفع يدي، تشبه السماء فوق بيتنا!

منذ أن عرفت ناصر لم أعد أتلهى بمناظر نافذتي بانتظار النوم كما كنت أفعل كل ليلة. صرت أفكر فيه، آخذه ليتجول في عقلي بلا رقيب، أحوّله إلى فكرة، أو أجسده فيتخذ شكل غار آوي إليه، أو وسادة، وربما يصير ولدًا صغيراً مدلاً! أعرف أنّها أخيلة، لكنّها متأّية من العقل، والعقل لا يولد الخيال من فراغ، بل من مواد خام منحني ناصر في هذه اللقاءات القصيرة أنقاها وأفخرها، فأسترجع لقاءاتنا، وكلامه، وملامحه، وأتخيّل اللقاء القادم الذي أنتظره على مهل، وأصحو في الصباح سعيدة! بعد أقلّ من شهر اتصل ناصر، قال إنّ طائرته حطّت للتوّ، وإنّه يحبّ أن نتعشّى معاً إن لم يكن لديّ ارتباطات. ضغطت على زر إنهاء المكالمة، وعضضت على شفّتي بقوة من المفاجأة السعيدة. ليس ضروريّاً أن تنفّوه بالحكمة، أو أن نخيط أنفسنا بالحذر الحجير، لنكون مؤثّرين، اتصال صغير من المطار يكفي، لأنّه يعني أنّنا نخاطر بأشياء كثيرة من أجل أن نكون صادقين مع مشاعرنا، وأننا أقوياء لتحمّل نتيجة صدقنا.

وجدته عند الثامنة والنصف ينتظرني في لوبي الإنتركونتيننتال. عانقني مثل أب استعاد طفلته الضائعة، وانتقلنا معاً إلى طاولة العشاء في "برج الحمام"، الذي سنرسو عليه مكاناً للقاءاتنا المستقبلية، ثمّ غرقنا في الحديث...

- أنقذتني...

قلت له أنقذتني، متعبة.. جداً!

- أعرف. الأخبار سيئة، الرقة خرابنة! كيف الأهل؟

- وضعهم صعب، القصف قريب، وعناصر الفصائل الأخرى

توغّلوا بين المدنيين، لكن إلى الآن أفضل من غيرهم.

- ألن يخرجوا؟!

- بابا يصرّ على البقاء.

رفع حاجبيه، وهمّ أن يقول شيئاً، ثم صمت، وتابعت:

- حينما كنّا صغاراً، كانوا يقولون إنّ ثمة حرباً في البلاد

البعيدة، وموتاً، وتنكيلاً، وتهجيراً، ومرضاً، وتدميراً،

وفقرًا، وذلاً، وكنت أعتقد تماماً أنّ تلك البلاد البعيدة،

ستبقى بعيدة، ولم يخطر لي في يوم أنّها ستكون بلادي!

- لا أعرف الرقة، لم أزرها مطلقاً، مرّة ذهبنا في رحلة إلى

قلعة جعبر، لكن لم نصل المدينة. قالوا كلّها مناطق

أثرية، وإنّ الفرات فيها جميل!

- تماماً، حضارات بنت فيها فوق بعضها البعض، منذ

الألف العاشر قبل الميلاد، وبقي من آثارها القائمة ما

يعود إلى الحقبة الرومانيّة، والإسلاميّة الأمويّة، والعباسيّة،

والسلجوقيّة، حتّى في أثناء حكم العثمانيين واحتلال

الفرنسيين كان لها حضور فاعل، ثمّ لم يعد أحد

يتذكّرها، الحكومة بذاتها نسيتهها، ولم تولها اهتماماً إلّا

- حين يتمّ التفكير في مكان لمسؤول ما تزال جيوبه فارغة، وبحاجة لأن تملأ. وها هي الحكومة الآن حينما أرادت أن تتخفّف من حملها، تخلّت عنها، وسلّمتها، كما تسلّم عظمة إلى كلب، لجماعات متطرّفة، صارت أرضاً لمعاركها ونزواتها المريضة. تجمّعوا فيها جميعاً: الجيش الحرّ، وجبهة النصرة، والدولة الإسلامية، في الواقع أنا أرفض أن أُميّز بينهم، كلّهم بالنسبة إليّ يساوون الخراب، وأشرسهم ما يسمّى بـ isis، القاعدة تبرّأت منهم لوحشيتهم، ويريد العالم من الرقّة أن تحتملهم!
- قد يكون لدى الدولة استراتيجية مرسومة لتنتهي وجودهم.
- أيّ حلّ سيكون على أكتافنا نحن فقط، سواء أقرّرت أن تجمعهم في محرقة واحدة، فتقتل المدنيين، أهلي ومواطني، أم أن تتخلّى عن المحافظة تماماً لتكون إقليماً يشكّل رقعة واحدة مع الموصل، وينفتح على تركيا الراعية لهذا المخطط.
- تعال ضحكات مقهقهة من طاولة قرية، فالتفت. مجموعة من الرجال، خمسة، وسيدتان، انتبهت إلى أنّي أعرف أحدهم:
- ذلك الرجل أكاديميّ من جامعة دمشق، تحوّل مؤخّراً إلى معارض شرس للنظام. السوريّون في كلّ مكان. الرجل الذي إلى جانبه أيضاً صار نجماً لبرامج تلفزيونيّة

سياسيّة، صرعوا رؤوسنا بالديمقراطيّة، ودولة المساواة،
والحرية قبل ذلك، أنا لم أحفظ أسماء أحزابهم وتياراتهم،
كلّهم مثل بعض، خربوا بيوت الناس، وانتشروا في البلاد،
هاهم يقهقهون في الإنترنت، والناس تموت كلّ
لحظة بسببهم، أنا هنا بسببهم أيضاً.

تغيّر مزاجي بوجودهم إلى جانبا، وشعرت أنّ الهواء صار
ثقيلاً.

ألقي ناصر عليهم نظرة متفحّصة:

- أيّ فصيل هو الأفضل؟
- كلّهم أسوأ من بعض، ضحايا صاروا جلّادين، أو
منتفعين بعضهم كان من صلب النظام وارتزق منه
سنوات، ثمّ انقلب عليه، وبعضهم مرّتهن للخارج،
وهناك الفقير، والجاهل، والمغيّب...
- تبالغين يا جمان، لا يخلو الأمر من الوطنيين، والشجعان،
والنبلاء!

- مراهقون، نظرهم قصير، غامروا بحياة الملايين.

- لماذا لا نقول: أحرار ناؤوا بالعبوديّة!

شعرت أنّ حرارة تخرج من أذنيّ، لم أكن أحبّ أن أدخل
معه في مثل هذه النقاشات، ولا سيّما اليوم، فأخذت نفساً عميقاً
وأنا أمسح على جفنيّ السفليّين بأطراف أصابعي، تلك الحركة
التي تمتصّ أيّ استفزاز يمارس عليّ:

- منذ متى كان البورجوازيون يشجعون الثورات!
ضحك وهو يرفع رأسه إلى الخلف، فانشدت عروق رقبتة،
وبانت عن يياضها المحمر:

- نسيت أنني لاجئ! اللاجئون لا يخضعون للتقسيمات
الطبقية التي تخص المجتمعات المستقرة، هم بذاتهم طبقة،
اللاجئ ثائر بطبعه إلى أن يثبت العكس. أنتِ مع من
إذن؟

- أنا مع بيتنا طبعاً!

هز رأسه وهو ينظر في عيني بقوة، كان قد فهمني تماماً.
ثقل الطاوله المجاورة للموا أغراضهم ورحلوا، فعاد الهواء
حولنا لطيفاً، واستعدت شعوري الإيجابي بوجودنا معاً.

التاريخ المشترك بين طرفين يبدأ بالحوار، لا قبل ذلك
إطلاقاً، مهما حدث من تجاذبات، ومتابعات، وردود أفعال
أحادية الجانب أو مشتركة. بحواراتنا أنا وناصر، بدأنا نصنع لنا
لاربخاً صغيراً خاصاً نربيّه في قلب هذا الحزن المحيق بالعالم من
حولنا، نبي بيتاً من الكلام: في القبو تلك الذكريات الموهلة في
العناقة عن أشياء أحببناها، وفي الطابق الأرضي كان كلّ شيء
لأصعاً وآمناً، ندخل ونخرج من حواراتنا، وكأننا نتحول في
لهرف أليفة، وهناك في قمة خيالنا عليّة مفتوحة على سماء ما.

- لماذا نكون نحن خطباً لمعارك الآخرين؟!

- من نحن؟

- نحن، الرقة. ربّما هي الطيبة، والفقر، والتجهيل،
والتهميش، والفساد والإفساد، ذلك كلّه ولّد هذا
العنف، وفتح سكة للهروب إلى منقذين لم يُختبروا بعد.
لماذا ينسحب الجيش، ومظاهر الدولة كلّها من مكان
قاوم التهميش بأن وجد آليّاته الممتعة للعيش؟ انفتح
على بعضه في علاقات عائليّة، فيها بساطة ووداد، ولّبي
رغبته في حبّ الحياة بالسهر، والطرب، والطعام،
والخمر، والشعر. الرقيّون يصبّحون على بعضهم بالعتابا
والمولّيّا، وينامون على سيرة أبي ليلي المهلهل، كيف
سيتحوّلون إلى مجتمع طالبانيّ! النساء لن يحتملن ذلك،
لن يحرّرنّ أحد، لأنهنّ حرّات بالفطرة، حرّات بلا
إديولوجيا ولا نظريّات، يمشين بطلاقة سهام عقدت
صدّاقة أبدية مع الريح، يرتدين اللّباس بعيداً عن قواعد
التراث أو المعاصرة، يذهبن لتسوّق البطاطا بالطريقة
ذاها التي يقصدن بها سوق الصاغة، ويهرعن إلى
وظائفهنّ المتواضعة بالمظهر ذاته الذي يمكن أن يقابلن
فيه رئيس الجمهوريّة. المشهد ذاته الذي يقف أمامه
عشرات الغرباء مشدوهين، هو الذي يشكّل العاديّ
اليوميّ في الشارع، ذلك أن تجد امرأة انحدرت من
قربتها القريبة، نحو أكثر الشوارع اكتظاظاً، وقد ارتدت
اللّباس العربيّ التقليديّ، ووضعت على رأسها قدر اللّبن

الكبير، تمسكه بيد، وتمسك سيكارتها باليد الأخرى، تأخذ نفساً، وتنفته، وهي تغذّ السير نحو تجارتها، لا تفكر في أن تجلس أو تقف، وليس لديها دليل تتبع إرشاداته في مسائل قد تشكّل قضايا محورية لآخرين يضيّعون حياتهم في شكليات مفرطة، وإذا ما مررت أمام عيادات الأطباء في شارع القوتلي أو شارع تنل أبيض، فمن الطبيعي أن ترى نساء قد دلّغن أثداءهنّ وألقمنها لأطفالهنّ الجوع بلا أيّ تحفظ، لا أحد ينظر إلى تلك الأثداء البيضاء سوى الغرباء! قد يجد أهل المدن أنّ في ذلك ردّة جاهليّة، لكنّها في الحقيقة شكل من أشكال الحرّيّة، شكل متخلّص من سطوة المتعاليات، هذا ما تقوله الأنثروبولوجيا.

- متعاليات... ماذا تعني؟
- كلّ ما هو من خارج النسق، أيّ المجتمع، ويتّخذ شكلاً سلطويّاً.
- هه!
- كيف سيخضعن للعرف الجديد، ويلبسن النقاب، ويخرجن بمحرم، ويقام عليهنّ الحدّ، تلك كلّها أشياء ليست في علمهنّ ولا عرفهنّ!
- نحن نعيش في علبة كبريت، متى اشتعل العود الأوّل، احترقت الأعواد كلّها. لقد احترقت بغداد والقاهرة

وطرابلس، وها هي دمشق، وقبلها القدس. الأيقونات
كلّها سقطت!

قاطعته بحدّة:

- لا يهمني. بيتي ليس في دمشق أو القدس.

فوجئ ناصر بنبرقي العنيفة، وتحمّد وجهه، وقد شعر أنّه
أخطأ التقدير. أنا أيضاً وجمت لأنني كنت حقيقة أكثر ممّا تختمل
اللياقة، فغيّرت طبقة صوتي، وتعاير وجهي التي صارت أقرب إلى
الاعتذار:

- يحزني جدّاً أن يحدث ذلك، لكنّ أيقونتي هي الرقّة.

يبدو أنّ صراحتي حينها، أسقطت كلّ الرِيايات الموروثة،
فقال ناصر:

- أمّا أنا، فلا مدينة لي لتعلو أو تسقط، أو ليحارب أحد
من أجلها. حتّى أنا لا يخطر لي أن أذكرها، ليس في
حديثي فحسب، بل في عقلي أيضاً. لا أعرف كيف
يكون للمرء مدينة ينتمي إليها ويحنّ، مثلما انتمى إليها
أبوه وجدّه، وجدّ جدّه، فأصولي من مكان، ومسقط
رأسي في مكان، وحياتي توزّعت بين أماكن أخرى
مختلفة. قدرتي هو قدر فلسطينيّ نموذجي. تعود عائلتنا
في أصولها إلى مرج ابن عامر، وقد سكن معظم أفرادها
بجوار ميناء حيفا، حيث تركوا زراعتهم في السهول
الشرقيّة، بسبب خلاف مع أحد الوكلاء الإقطاعيّين

الذي سجّل أراضيهم باسم عائلة أخرى، فانتقل معظمهم إلى العمل بتجارة الحبوب. جدّي الأكبر، أوّل فرد في العائلة له صورة واضحة المعالم، تعلّم في الأزهر، ودخل أبنائه فيما بعد سلك التدريس، في المرحلة التي صار يتنافس فيها الفلسطينيون على تعليم أبنائهم، ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتقل جدّ أبيّ إلى الإقامة في كرمهايم، وكان من القلائل الذين سمح لهم بالسكن في ذلك الحيّ الألماني الجديد الذي بني على سفح جبل الكرمل، حيث استقدم العثمانيون أصدقاءهم الألمان إلى حيفا، فقاموا بتشكيل كانتون يعمل على تطوير المكان، وصار جدّ والدي مدرّساً للغة العربيّة والتاريخ في المدرسة الألمانيّة التي أنشئت هناك. أمّا جدّي الذي تعلّم في المدرسة الألمانيّة ذاتها، ثمّ ذهب في بعثة لمدة سنة إلى فرانكفورت، فقد صار فيما بعد مديراً لفرع البنك الفلسطيني - الإنجليزي في حيفا.

تّبّت ناصر جذعه إلى ظهر الكرسيّ، وراحت أصابع يديه الاثنتين تتحرّك على شاشة الموبايل بحرفيّة، ثمّ أراني صورة محفوظة بالأبيض والأسود، جرت عليها تحسينات تقنيّة واضحة، لرجلين يرتديان بدلتين إفرنجيتين بربطتي عنق، يتصافحان وقد أمسكا علبة محمليّة صغيرة داكنة، تتمدّد في قلبها عملة ورقية، كتب أعلاها (Palestine Currency Board)، وتعني مجلس فلسطين للنقد:

- جدّي والسيرس. س. دافيس، يمسكان بأول جنيه فلسطيني صدر في العام 1927، عن المجلس الذي كان تابعا لوزارة المستعمرات البريطانية.

تأملت الصورة، حاولت البحث عن ملامح ناصر في وجه جدّه، كان لهما الجبين العريض ذاته، وربما ورث عنه قامته المربعة.

- حينما تمّ اقتراح حلّ الأزمة الفلسطينية من قبل الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين مع إدارة دولية في القدس في العام 1947، كان نصيب حيفا أن تكون من حصّة إسرائيل، وهكذا غادرنا...

قالها، وأشاح بنظرته نحو البعيد، أبعد من الطاولات التي في الخلف. لا يمكنني الالتفات لأعرف فيما كان يحدث، لكنّ الضوء كان يرتدّ من عينيه المترقّقتين بماء شفيف، فتنعكس فيهما صورة شجيرة الدفلى التي ورائي مهتزة، وكأنّها مرسومة بريشة رينوار. أبي كان يحدثني عن جولاته طفلاً في شرق المدينة، مكانه الحبيب، حيث تقع محطة القطار، المكان الذي ربطه بعلامة فارقة في حياته فيما بعد، وهي زواجه من أمّي في دمشق، وربطني أنا من بعده بحلب، ذلك أنّ سكّة حيفا جزء من الخطّ الحديديّ الحجازيّ، الذي يصلها بدرعا، وقد أنشئ في العام 1908، وتمّ إيقاف العمل على استكمالها عام النكبة، حيث نسفته الهاغاناه لمنع وصول الإمدادات السوريّة إلى فلسطين. صار المكان الآن متحفاً

للقطارات، فيه قاطرتان من ذلك الزمان فحسب. سافر أبي في صغره مرّات عديدة مع والديه في ذلك القطار الساحر. كان ينتظر صافرة الانطلاق بشغف، يعد بعدها الدقائق مترقباً وصول وجبة الطعام الفاخرة، والتي تقوم بتزويدها مجموعة فنادق واغونز لیتس (wagons- lits)، المعروفة باسم شركة قطار الشرق السريع، والمكوّنة غالباً من وجبة لحم الضأن المطبوخ بالبيّز الأبيض، مع السبانخ المقلّى، والتي يختارها جدّي، في حين يقوم أبي الصغير بطلب صدر دجاج مع صوص البروفنسال بالليمون والثوم والحبق. تأتي الوجبات ساخنة، مع سلطة خضراء طازجة، أوراق الخسّ فيها مقطوفة للتوّ من المزارع المجاورة، مع تشكيلة من الأجبان، وطبق صغير من الفاكهة المتنوّعة حسب الموسم، وقهوة للكبار مع اللوكر، وعصير يرتقال للصغار. كلّ ذلك يدخل المقطورة على عربات للخدمة، بأغطية من الستانلس، وفوط بيضاء، وصحون خزف، تحمل جميعها صورة الأسدین الذهبيّين المتقابلين على خلفيّة زرقاء، والذي يمثّل شعار تلك الشركة البلجيكيّة العريقة، التي احتكرت خدمة الإطعام المتقلّ طيلة الحرب العالميّة الأولى. ما زلت كلّما ركبّت قطاراً أتخيل أبي طفلاً صغيراً يجلس قباليّ، ويطلب وجبته المفضّلة، لذلك أحببت محطة بغداد، وزمن حلب كلّ على بعضه، وكنت كلّما صفّر القطار هناك قرب بيت جدّك، أخرج إلى الشرفة، وأحاول أن أقبض على ملامح الجالسین خلف النوافذ الزجاجيّة العريضة، لكنّه يمضي سريعاً، وطبعاً لن يصل حيفا.

لم أرد أن أزعج الجمال المرتّب في الصورة التي رسمها ناصر،
لم أقل له إنّ الرحلة في هذا القطار إلى المحافظات تشبه فصلاً من
الجحيم، وإنّهم لا يقدّمون آية وجبة، وإنّ عربة المطعم فارغة
غالباً، لكنّهم لا يمانعون في أن تحضر معك الطعام الذي تشاء. لم
يدرك زمن "الترين ست"، في سورية، ذلك القطار السريع ذي
المقاعد الوثيرة، الذي فرح به السوريون بضع سنوات، ثمّ اندلعت
الاضطرابات، وتمّ عطب السكّك، وتفجيرها في بعض المناطق،
وراح الكثيرون ضحيّة هذه الأعمال الإرهابيّة، وتوقّفت
القطارات في كلّ مكان.

جاءني خاطر في تلك الجلسة أنّه كان عليّ أن أدرس
الجغرافيا، لقد اكتشفت معه أنّي أحبّها حقّاً، وأنّها ربّما كانت
شغفي المغيب الذي لم ينتبه أحد إليه، حتّى أنا، وربّما لهذا
السبب تخصّصت في مجال قريب من الجغرافيا البشريّة تحديداً،
وهو الأنثروبولوجيا الثقافيّة. لو قام ناصر بتدريسي هذه المادّة في
سنواتي المدرسيّة المبكّرة، لكنت أعددت معه خرائط بديلة لهذا
العالم الرديء، ولو أنّ بابا اشترى لي تلك الكرة الأرضيّة التي
رأيتها في واجهة مكتبة في شارع جان دارك في منطقة الحمراء
بيروت، لكنت ذهبت باتجاه الجغرافيا بلا شكّ، ولكتبنا أبحاثنا
معاً، أنا وناصر، حول الفخاخ السياسيّة التي تصنعها التضاريس
مثلاً: كنت في الرابعة من عمري، ووقفت أشير إلى تلك الكرة
وراء الزجاج، وقد غطّى الأزرق اللامع المخطّط بخطوط الذهب

جلّ مساحتها، وأصرخ: الدنيا، الدنيا، أريد الدنيا... يسحبني
بابا من يدي، ويقول: سنشتري "الدنيا" من الشام، من الشام!
تابع ناصر:

- حاولت مرّة أن أزور فلسطين، فأذهب إلى حيفا
والقدس ويافا، وحين عزمت فعلاً، لامي من حولي،
وقالوا كيف يقبل مثلي أن يذهب إلى إسرائيل؟! أن
يستجديهم على المعابر والحدود، وفي السفارات، لزيارة
بلده. وإنّ ذلك لو تمّ فستكون وصمة عار، وسأكون
في خانة المطّبعين مع العدو، ولا سيّما إذا ختم، جواز
سفري بختم إسرائيليّ. في الحقيقة هذا الكلام لا يقنعني،
فأنا ذاهب إلى فلسطين، وطني، لكنّ النتيجة أنّي عدلت
عن الأمر، ويبدو أنّ اعتيادي على ألاّ أكون هناك،
جعل من رغبتني في الذهاب غير كافية. جمان! ربّما هي
المرّة الأولى التي أصرّح فيها بأنّ مدينتي هي المكان الذي
أعيش فيه بكرامة، وأنال أماناً غير مشروط، وأحصل
على أحسن تعليم، وعلى المعاش الذي يليق بجهدني في
عملي، وبذل وقتي. بالنسبة إليّ، ومنذ زمن طويل هذا
هو الوطن. قد تجديني براغماتياً، أو غير منتم، أو بلا
أصل كما نقول عادة، وقد يجديني متطرّف وطنيّ،
خائناً، لكنني صادق، وما أقوله ينبني على تجربتي
الطويلة، مضى أكثر من ستين سنة على خروج جدّي

وأبي الطفل من حيفا في العام 1948، لجؤوا إلى بيروت، ومنها انتقلوا إلى عمان!

تابعت بدوري الرحيل، غادرت عمان إلى بيروت حينما كنت في السابعة عشرة من عمري، والتحقت بالجامعة الأميركية، درست العلوم الجيولوجية، إذ لم يكن فيها قسم للجغرافيا، ومنها إلى "كاليفورنيا"، حيث تابعت تحصيلي في الجغرافيا الطبيعية، وحصلت على الدكتوراه من "سانتا بربارا"، والتقيت بالمرأة التي تزوجت بها، وكونت عائلة وأبناء. لم أعرف خسوفاً حقيقياً في حياتي إلا لحظة انفصالي عن "كورين"، المرأة التي حولت علاقتي بالنساء إلى تأمل. كانت عالمة سلاحف بحرية، وقد أسست جمعية وطنية تهتم بالحفاظ على تلك السلالات المهددة بالانقراض، هادئة، وعميقة، ومعطاءة.

كان ناصر يحكي، وأنا أحاول أن أرسم صورة لزوجته، تخيلتها امرأة جميلة، بشعر أشقر، ترتدي فستاناً قطنياً أبيض، وتجلس على الشاطئ، وفي حجرها سلحفاة. في الحقيقة انتابني غيرة تجاهها! أنا لا أعرف شيئاً عن السلاحف سوى قصّة السلحفاة التي سبقت الأرنب.

- أنجبنا أبناءنا الثلاثة، وربيناهم، وعشنا السنة التي درج عليها التكوين الأسري في العالم. كنت سعيداً بأن حياتنا مستقرة، وأنا استطعنا أن نوّفر لأبنائنا وضعا مادياً مريحاً، وكثيراً من المتعة والفرح. بعد دخول

الولدين الجامعة بدأت كورين تنسحب شيئاً فشيئاً من دائرتنا. لم أهتم كثيراً، هي تقلبات النساء، لا سيّما حين يقتربن من منتصف العمر، لكنّ تغييرها بدأ يقلقني حينما صارت بعيدة عن اهتماماتها اليومية، وبعيدة عن سيرورة أيام الأولاد، لاسيّما سارة التي كانت رغم سنواتها الاثني عشرة، رفيقة لنا. دخلت كورين في طور اكتئاب، وكان اقترابي منها يدخلها في نوبات غضب غير مسوّغة ولا مستحقة. لم تسمح لي أن أقف معها، كما تباعدنا جسدياً إلى أقصى مدى. كانت كورين حسب عشري الطويلة لها، أقوى من أن تملك شيئاً لا يمكنها التصريح به. لكنّها جنبت هذه المرّة. سافرنا وقتها لنقضي عطلة الميلاد في بيت والدتها في "ويست فرجينيا"، كان ذلك في المساء، وكانت تجلس إلى الموقد سارحة في الطريق الحرجي الطويل الممتدّ أمام النافذة، والمغطّى بثلوج لم تتوقّف منذ أيام. نادتني، وطلبت إليّ أن أجلس قبالتها، وبادرتني بلهجة لم أعرفها منها من قبل، كانت حازمة، وهادئة، وبدت قد أعدت نفسها جيّداً، قبل أن تقول: انظر يا ناصر إلى هذا الثلج! كم نفرح به، وننتظره بشوق من عام إلى عام، لكنّه ما أن يطيل المكوث حتّى نملّه، فهو لا يغيّر من مزاجه، لا يفاجئنا، لقد عرفنا حركاته في المبدأ، والمنتصف،

والمنتهى. أقصاه عاصفة، تقعدنا أياماً في المنزل، ثمّ هُداً
وتغادرنا. الثلج جميل، لكننا نحن إلى الربيع، أجسادنا
تطلب الدفء الذي سيحرق عطن الرطوبة. أنا قضيت
أيّامي غارقة في عالم مخلوقات عجيب، ألاحقها من
شاطئ إلى شاطئ لأحییها من الانقراض، وذابت عيناى
بين حروف المراجع لأتمكّن من الإحاطة بعالمها، وكلّما
وصلت إلى حقيقة امتدّت أمامى حقائق أخرى قصیة،
ونسيت أنّ الطبيعة، مهما فعلت، أقوى منى، لها
وحدها أن تبقي على السلاحف أو أن تبیدها، رغبتى
لن تقف أمامها ولا علمى. الحفاظ على مجموعة من
السلاحف لا تعنى نجاه جنس حیّ مهدّد بالزوال، ثمّ
ماذا یهمّ العالم إن كانت تبيض أو لا تبيض، تعيش أو
تموت. أبیع شغفى ووقتی لصیّادين یرمون شبّاكهم
للسمك، فتعلق بینها سلاحفى وتنفق، أو إلى طفل على
الشاطئ الآخر، يأخذها معه إلى البیت، فتموت بلا بحر،
أو لعمّال البواخر وقد عجزوا عن السيطرة على بقع
نפט تنسرب من بضاعتهم، فى حین أنّ السلاحف لا
تكثرث لأحد، تترك بیضها على جزر غریبة، وترحل
عنه بعیداً، وعلى الموالید الجدد أن يتحمّلوا مسؤولیة
الحیاة، أن یخرجوا من قلب الرمل بقوة أطرافهم الممكنة،
ویسبحوا باتجاه الماء، لا أحد یدلّهم على الطریق،

وحدهم سيعرفونه. وأنت يا ناصر، قضيت عمرك
تراقب حركة الرياح، وتنتظر الغيوم، وتتساءل إذا ما
كانت جلي أم عاقر، لكنك رغم تكنولوجيا المعرفة
التي تخصصت فيها، لا تستطيع أن تحملها أو تستولدها،
ولا أن تأتي بها من الغرب إن أقبلت من الشرق. تراقب
فحسب، وتدوّن ملاحظاتك، وتقيس عليها. أقصى ما
تستطيعه هو إنذارنا من عاصفة محتملة، فتكدّس في
المطارات، أو تملّي علينا أن نرشد في صناعة الفطائر، إذ
لا قمح كاف لهذه السنة، أو أن تملأ دلاءك الحمراء
المصفوفة في الكراج بماء المطر، لنستخدمه في يومياتنا،
فتكون فاتورة الماء أقلّ قليلاً هذا الموسم! تقول إنك
تحمي الناس من المرض والموت والشحّ، وتنسى أن ما
تفعله في سنوات ينسفه أحدهم في يوم، في حريق، في
تجربة كيميائية، في انشطار ذريّ....

كلّ ما نفعله لا معنى له! لم تستطع يوماً إيقاف هزة أرضية،
لم تجنّبنا موجة صقيع قضت على المواسم، ولم تحم غابة من
حريق، ولم أسألك يوماً عن تناقضاتك؟! كيف تتقبّل ظاهرة
وترفض أخرى! تقبل انحباس المطر شتاء كاملاً، ولا تتقبّل عاصفة
ثلج في الصيف! إمّا أن تقبل التحوّلات كلّها، وإمّا أن ترفضها،
لهذا هو إيماننا بسقوط الحتمية. لذلك مثلما قبلت منّي محبّتي
وتعاوني وجهودي من أجلك، ومن أجل العائلة، أرجو أن تتقبّل

رغبتي في الرحيل بلا قلاقل، سأقول لك إنني تعبت من كونك
تراقب، أنت مراقب جيد، لكن فاتك أن تراقب جسدي وهو
يفقد الماء، وروحي التي ذبلت، وتريد مصدر ضوء يوقظها،
ويشدّها لتتسلّق باتجاهه. هل رأيت مدّاً وراءه مدّ، وراءه مدّاً!

- آنذاك لم أفهم ممّ تشتكي كورين التي أحبتها من كلّ
قلبي، وكنت لها أفضل زوج كما اعتقدت. قلت لها:
راقبتك تزدادين نضجاً وجمالاً ونجاحاً، راقبت أولادنا
يكبرون ويثبتون ولاءهم للحياة، راقبت تضامننا كلّ يوم، كلّ
إخفاق وكلّ إنجاز.

كانت تضيق ذرعاً كلّما ذكرتها باستقرار حياتنا، ولم يكن
لديّ ما أقوله أو أدافع به عن نفسي، وكيف أدافع عن نفسي
وأنا لم أرتكب أيّ خطأ، لكنني أدركت وقتها أننا مختلفان، وأنّ
فروقنا ماثلة في العقل، عقل مغامر يقبل أن ينسف كلّ شيء في
سبيل رغبة، وعقل بنائي يؤمن بالمثال، ولا يمكننا الوصول إلى
تسوية، فالعقل لا يقبل التسويات، ما أراه نموذجياً تراه كورين
شاذّاً، وهكذا...

لقد انطبع زوجتي بطباع السلاحف/استوقفتني كلمة
زوجتي/صار تقيس حياة البشر على حياة تلك الكائنات
القيحية. هل تأملت في وجه سلحفاة يوماً يا جمان؟
- لا.

- مثل وجه بشريّ عتيق حرمة الطبيعة من سماحتها.

كورين تقول إنّ حياة السلاحف تلخّص حياة المخلوقات كلّها، تترك أولادها لقوّة الحياة، وتقتل بشجاعة قناديل البحر، ومن يستحقّ منها الاستمرار سيستمرّ. رحلتها الوحيدة التي تقوم بها خارج عالمها الحقيقيّ، البحر، هي من أجل أن تضع بيوضها الملقّة والخمسين أو المئتين، على جزيرة آمنة، تحفر في الرمل الدافئ، وتطمّر، وترجع مرّة أخرى إلى البحر. هذه الرحلة التي لا تتجاوز أمتاراً قليلة على اليابسة، محفوفة بالمخاطر، إذ يترصّدها كلّ من حولها: النسر، والضبّ، والسلطعون، كلّ يريد قتلها، وهي لا تريد سوى العودة إلى الماء، حتّى أولادها لن تراهم أبداً، ولو صادفتهم في منطقة من المحيط لن تعرفهم. وحده تحديّ السرعة هو الذي سيجعلها تصل إلى الماء، والسلاحف بطيئة، فهي تحمل بيثها الأخضر، ذاكرتها، ولا تستطيع أن تلقي به أبداً لعجري بشكل أسرع، بيثها هو الذي يقتلها، نصف كيلو متر في الساعة على اليابسة فحسب، والماء قريب جداً وبعيد جداً! حتّى حملها بأولادنا قاسته كورين على عالم السلاحف، إن ارتفعت حرارة البيئة الحاضنة كانت الفقسّة إناثاً، وإن انخفضت، فالفقسّة ذكور. ربّبت لحملين ذكورين في جوّ بارد، وحملت بالبنت في جوّ حار، وأصابنا التجربة في كلّ مرّة!

فكرت: كيف يمكن له أن يكون مع امرأة، ويرتبان لحمل مدروس، ولقاءات جسديّة حميمة، وحسدت تلك المرأة التي لا أهرفها... لكنّها زوجته طبعاً، كيف لي أن أكون بهذه السذاجة!

تابع ناصر:

- أرقْتُ لليال بعد هذا الحديث الذي بدا ديباجة النهاية، وتلبّستني فكرة (الآخر)، التي صارت تستفزّني. فهل عرفت كورين شمساً أخرى ضوءها أقوى من ضوئي الذي بهت مع الاعتياد، فامتدّت ساق حبّتها نحو الضياء الجديد، وأنبتت أوراقاً صار لها حياتها البعيدة عن نسغي! كانت هذه الفكرة وحدها تفقدني أعصابي، وتقذّفي في مهاوي الغيرة والغضب والإرهاق. ثمّ الأولاد، ماذا سيحلّ بهم بعد أن عاشوا حياتهم في ظلّ هذا الوئام؟! لا أعرف مع من ذهبت كورين، وربّما لم تذهب مع أحد، ولم يكن هناك أحد، لكنّها واثقة من أنّها لا تريد أن نكون معاً، أو إذا قسوت على نفسي أكثر، سأقول: إنّها لم تعد تريدني، حتّى حينما اقترحتُ أن تأتي سارة للعيش معي، لم تمنع أبداً. هي الآن تقيم في جزيرة من جزر جالاباغوس في المحيط الهادي، حيث تعيش أكبر السلاحف الخضراء في العالم.

كان منعطفاً قاسياً، بل أشبه بمهاوية، خفت من أن أكون وحيداً، وخفت على الأولاد، لكنّ أولادنا أقوى ممّا نتصوّر. اجتازوا المنعطف بسلام، وكان من السذاجة ألاّ أقتدي بهم. قرّرت أن أترك القارّة كلّها، انتقلت إلى مركز الدراسات الجغرافيّة في دبي، ودبيّ الآن مدينتي.

- أوف... كلّ هذا؟! أنت رجل كبير!

ضحك ضحكة عالية استطاعت أن تشقّ طريقها من بين ذكرياته الحزينة. ضحكته عذبة ورزينة، لا يابه فيها لتجاعيد قليلة حول فمه، أو لحشوات الخزف الداكنة في أضراسه، وأنا كنت أعني ما أقول، ففي هذه اللحظة انتبهت إلى أن ناصر ليس شاباً، إنّه كهل، ذاق طعم العائلة، الزوجة، والأولاد الذين صاروا في الجامعة، واستنفد ربّما عواطفه، وشفي من كثير من شهوات الحياة التي ما زلت أتوق إليها. ردّ على عبارتي:

- لكنّ البراكين القديمة إذا ما ثارت، تترك وراءها مياهاً دافئة تشفي من الأمراض، وتربة خصبة تُنبِت أجود المحاصيل! ضحكت أنا هذه المرّة....

قدّم لي وردة حمراء، تناولها من المزهريّة الزجاجيّة أماننا، وأشار بعينه إلى العازفة، فأقبلت تتهادى بثوب من الساتان سماويّ اللون، تحتضن كمنجتها المرصّعة بالكريستال، وراحت تحنو على أوتارها المرتجفة، بموسيقى فريد الأطرش: (ليه الدنيا جميلة وحلوة.. وانت معايا، وانت معايا...)!

هذا الذي كنت أظنّه يحدث في الروايات والأفلام، حدث معي تماماً.

- تسمع موسيقى عربيّة!

- طبعاً، إنّه إرث شهيرة خانم، نسيت أنّ ماما عازفة عود قديرة!

فيما بعد، عرفت مدى شغف ناصر بالموسيقى العربيّة، كان يدندن بين الفينة والأخرى، أغانيّ كلاسيكيّة حتّى أنا لا أعرف كلماتها، يعرف نوع المقام، وأسماء المغنّين والملحنين. مرّة كنّا نتمشّى وسط البلد، دخلنا سوق البخاريّة، كان هناك محلّ لبيع الأعواد الشرقيّة، وكان فيه شاب قد جلس يدوزن عوده. قال ناصر: تعالي، تعالي...

جلسنا جنباً إلى جنب على كرسيّ خيزران أمام المحلّ الضيق، نادى ولداً يحمل صندوق تلميع للأحذية، خلع حذاءه، ليلمّعه له، بينما أسلم نفسه لنغمات العود، كنت في غاية التعب، احتضنني بذراعه، وغفوت....

صنع صاحب المحلّ لنا شاياً، وبدأ الشاب يعزف، بناء على رغبة ناصر، أغنية "البيض الأماره.. كانوا ظلموني.. والسمر العذاري.. يا ريت ينصفوني..". قال إنّها لعبد الغني السيّد، مطرب رائع لم ينل حظّه من الانتشار. اشترى عوداً مصدّفاً، ونقد العازف فوق ذلك خمسين ديناراً. قلت له إنّ مبلغ كبير، فقال إنّها أغنية ماما المفضّلة، أغنية طفولتي!

* * *

جغرافيّة ناصر موجعة، لكنّها مثيرة، ومتشكّكة، ومصحوبة بالحنين والأسرار، يحكي عن بلاد مررت بحروف أسمائها مطبوعة على صفحات الورق في كتاب التاريخ، أو كتاب الاجتماعيات،

أو التربية القوميّة، ولم يخطر لي أنني يمكن أن ألتقي بأحد قد سكنها يوماً أو عايش حكايات أهلها. مناهجنا لم تهتمّ سوى بالظواهر الحتميّة، بالحمضيّات على السواحل المتوسّطيّة، وبالخضار الباكوريّة في غور الأردن، وبالزيتون على المدرّجات الجبليّة، وبالقطن المصريّ، ويؤكد لنا المدرّسون كلّ سنة أن نهر الفرات ينبع من جبال طوروس، وينبع النيل من بحيرة فكتوريا. وجدتُ تجربتي ضئيلة أمام رحلة التحوّلات التي عاشها ناصر، لكنّها ما تزال طازجة، وما تزال ندوبي تأخذ شكلها في نفسي، بالنسبة إلى ندوبه العميقة المتقرّنة. انسحبت من الحديث قليلاً باتجاه الداخل، وأنا أراجع تفاصيل المكان الذي جئت منه، البيت والمدرسة والحارة، وبابا، وماما، وجود، وسلمى....

مرّر ناصر سبابته على خديّ، فسرت في جسدي رعشة، وعدتُ إلى جلستنا:

- أنا وحيدة، وغريبة! لا أعرف ماذا سيحلّ بي غداً، وهل سأرى أهلي ثانية أم أنني فقدتهم إلى الأبد، هل سيحصل لي ما حصل لعمّتي لمياء التي عاشت مع زوجها العراقيّ في بغداد، ثمّ أغلقت الحدود بين البلدين وانقطعت أخبارها عنا تماماً. أنجبت عمّتي لمياء أولادها، ومات أبواها، ثمّ مات أخوها الأكبر، وهي لا تعلم عنهم شيئاً، وليس ثمة من يمكن أن يخبرها بشيء، حتّى

طيور السماء لا تستطيع عبور الحدود بين البلدين
بسبب خلاف جناحي حزب البعث. أيّ سوريّ يقابل
عراقيّاً ولو على رصيف في مدينة بعيدة، سيّتهم
بالعمالة، وأيّ سوريّ يقابل مواطنه الذي مرّ يوماً بتلك
البلاد، سيختفي من على وجه البسيطة، ولا سيّما إذا ما
وصل خبره إلى العقيد "جبار"، الذي كان مسؤول
الملفّ العراقيّ في المنطقة الشرقيّة. العقيد جبار أيقونة
الطغيان لتلك المرحلة، يمكنه أن يفرّق بين المرء وزوجه،
وأن يؤكّد لك أنّك كنت في بغداد، حينما كنت في
الخرطوم، وأنّ كلّ الهدايا التي ستضعها بين يديه، من
ذهب نساء العائلة، إلى تنكات الجبن والسمن، إلى رزم
الأوراق الماليّة، هي غير مردودة، لكنّها لن تعيدك إلى
بيتك حينما يكون التقرير الذي كتبه جارك أو زميلك
في العمل، أو ابن عمّك أخي أبيك، دسماً، بحيث ترد
فيه مفردة العراق أو ما يتّصل بها لمرة واحدة على
الأكثر. ما كانت عمّي لمياء لتتزوّج بعراقيّ لولا مرض
السلّ الذي أصيبت به، وذهبت للعلاج في منتجع
(بحّس) في لبنان، وهناك التقت بـ "حسن شرّاد"،
صاحب إحدى أشهر صالات السينما في شارع
السعدون في بغداد، والذي كان يخضع أيضاً للعلاج.
تقاربا مثل أيّ رجل وامرأة يمتلكان شيئاً مؤثراً

ومشتركا، الهواية ذاتها، أو المأساة ذاتها. أسرها فكرة أن يمتلك رجل واحد كل هذه الأفلام، والممثلين والكومبارسات، ويأتي كل هؤلاء المتفرجين لينتظروا إشارة البدء التي يصدرها. هكذا كانت تتصور فكرة السينما. وأحبها شرّاد لأنها تشبه سعاد حسني، شيطانة حلوة وبريئة. حين سأها عن المهر الذي تريده قالت له: أريد كرسيّاً محجوزاً في السينما، لا يقترب منه أحد، سواء غبت عن العرض أم حضرت، وكان لها ذلك. مرّت على عمّي لمياء حروب طوال: الحرب العراقيّة الإيرانيّة، واحتلال الكويت، والانحدار والحصار، ودخول قوّات التحالف إلى العراق....

مع سقوط بغداد، سقطت السينما بصاروخ، وراح معها كرسيّ عمّي المحجوز لها أبداً، وقبله رحل زوجها، وكان عمّي فيصل الذي غادر إلى بغداد مع عائلته، حتّى ذلك الوقت سلوّها، فغادروا، واعتراها الفقد. عادت العلاقات السوريّة العراقيّة إلى التقارب، ومحيت من على جوازات سفرنا عبارة "مسموح السفر لكلّ الدول العربيّة ما عدا العراق"، وقتها علمنا أنّ عمّي لمياء قد غيّرت مع الغابرين. هل تظنّ أنّي سأكرّر التجربة من قريب أو بعيد؟ سيكون لي المصير ذاته، غريبة ووحيدة!

أطلقت في حديثي، لكنني لم أشعر أنّ ناصر قد أصيب بملل. كانت حقيبة الحكايات التي أحملها على صغرها، تحتوي وقائع

ثمينة، صنعتها المماحكات بين الغايات النبيلة وتجهّم الزمن. فردّ ناصر كفيّ اليمنى وصار إبهامه يرسم على باطنها ذوائر رقيقة:

- الوحدة يا جمان درب لا يسلكه فرد واحد، كلنا معاً، لكن لا يتعرّف أحدنا فيه على الآخر. كثير هم الرفاق في الطريق، لكنهم مشغولون بداخلهم عن خارجهم، لو أطلّ واحدنا من سجن نفسه والتفت إلى جنبه سيلقى رفيقه. منذ أن يغادر المرء رحم أمّه تبدأ وحدته، لأنّه يبدأ تمييز الجغرافيا، قبل ذلك لا يهتمّ بالتمييز، جغرافيته هي جغرافية أمّه ذاتها، يمكنه احتمال وحدته في الحياة لأنّ هناك دائماً من يمنحه بوصلة، أقرباء، هواية، عصفور، مدرسة، تجارب لآخرين، لكنّ وحدته تتجلّى على أشدها لحظة موته، سيواجه الموت وحيداً مهما كان عدد الناس من حوله، وسينتقل إلى جغرافيا مجهولة، بينما يبقى الآخرون ولو مؤقتاً في جغرافيات أليفة، لها خرائط، وثمة من يمنح بوصلة. المدن في الحرب كلّ تخوض معركتها وحيدة وغريبة عن نفسها، فالحرب تغيّر الجغرافيا، نفقد فيها العادة، والألفة، والطريق، ومخارج النجاة. الحرب اختلال، مثل آية ظاهرة بيئية طارئة، الاحتباس الحراريّ مثلاً، إنّهُ يأخذ وقتاً طويلاً ليتكوّن، مثله مثل أسباب الحرب المتراكمة تاريخياً، وحينما يحدث، يتغيّر توزيع كتل الهواء، فتتغيّر طريقة

توزيع الأمطار، تحفّ مناطق، وتحيا أخرى، مثلما يحدث مع الناس في ظل الحرب، يفقر بعضهم ويزدهر المستفيدون. كذلك يذوب الجليد، ويرتفع مستوى سطح البحر، وتزداد درجة حرارة الجو، وتتناكل الشواطئ، وتغرق الأراضي حول الأنهار وسهولها، وتختفي بعض الجزر. ودائماً هناك فئة مستفيدة من هذا الخراب كلّها، في الحرب يعمل المتورّطون فحسب، الباقون ينتظرون، وسواء أكانوا مستسلمين أم جزعين، فالجغرافيا وحدها ستحسم المعركة.

بدا ناصر لا يهتمّ شيء، صارم، وصرامته معجبة، وفكّرت: كيف تركته زوجته؟ وكيف رحلت مع غيره، إن صحّ ذلك؟! رجل قويّ، وواثق، وعطوف، لا حدود لعمق عينيه، وبدت يدها شهيتين لعناق حارّ، لكن لا أحد يمكنه أن يحكم على رغبات الآخرين. تذكّرت "خلود" جارتنا الحليّة المتوقّدة ذات الشعر الأحمر المصقول كشعر دمية روسيّة، كانت تقول: الرجل لا يظهر على حقيقته إلّا حينما يرتدي البيجاما!

قال ناصر، وما تزال كفيّ في كفّه:

- أفضل طريقة من أجل الانتماء إلى مكان ما، هي محاولتنا الخيثة للتأثير فيه، لتغييره نحو الأفضل، يمكننا أن نبدأ بتغيير حياة شخص واحد فحسب، ينطبق هذا على التغيير الإيجابيّ والسليبيّ على حدّ سواء، تغيير عنصر من

عناصر البيئة يؤثّر في التوازن الكليّ: التشجير مثلاً، وزيادة المساحات الخضراء، يزيد من فرص سقوط الأمطار، فيزيد في منسوب المياه في المسطّحات، ترتوي الكائنات، وتعيش... يجب أن يكون لدينا المهارات لفعل التغيير، والتعليم هو المهارة الرئيسة، بالتعليم يمكن للمرء أن يفتح الأبواب الموصدة، يا جمان، المفاتيح كلّها معك لتشعري بالانتماء، لا بسبب المعرفة فحسب، بل لأنك مختلفة.

لم أشأ أن أسأل ناصر ماذا يعني بمختلفة، أو لماذا، لقد اكتفيت. هناك مرّات قد ترتكب فيها آية كلمة زائدة فعلاً تدميراً، وعلينا أن نعرف جيّداً متى نتوقّف عن الكلام، لذا طلبت إليه أن ندفع الحساب ونمضي.

أدركت فيما بعد أن ناصر مولع بتحدّيات العقل. ترافقنا مرّة إلى المول، لشراء بعض حاجياتي المنزليّة. حين خرجنا استوقفنا أحد مندوبي الشركات السياحيّة، وقال إنّنا سننّفز برحلة إلى الغردقة بتنظيم شركتهم، إذا ما استطعنا الإجابة عن الأسئلة التي سيطرّحها:

- من عجائب الدنيا الجديدة؟
- البتراء.
- أطول نهر في العالم؟
- النيل.

- آخر أسرة حكمت روسيا القيصرية؟
- آل رومانوف.
- رئيس وزراء بريطانيا أثناء العدوان الثلاثي على مصر؟
- أنتوني إيدن.
- كلّما أخذنا منه يزيد؟
- الحفرة
- مخترع آلة القانون؟
- الفارابي.
- بطلة فيلم (امرتان)؟
- صوفيا لورين
- ...

احتضن ناصر كتفي، وشدّني إليه بقوة، ثمّ أمسك رأسي، وهو يقول: أحبّ هذا الرأس المليء بالأشياء الجميلة! أدركت حينها أنّي دخلت معه في تحدّ عقليّ.

لقد بدأنا أنا وناصر تاريخاً مشتركاً وإيجابياً، ما دام قد بدأ بتحديد المفاهيم، وبكلّ الصراحة والشجاعة التي يقتضيها نشوء علاقة شفافة بين رجل وامرأة، لا بمكاشفات العواطف والرغبات كما درج عليه عرف العلاقات. التصريح بمواقفنا من المحظور الآخر القيميّ أكثر خطورة، فهو ما نخشى حتّى من مواجهة أنفسنا به كي لا نفقد احترامنا لها، كأنّ نحدّد لغويّاً مفهومنا للوطن، وللخيانة، وللهويّة، بلا رياء، وأمام شخص ما يزال

غريباً، في ظلّ عقدة أمنيّة مستفحلة، فكّكتها المعارضات
السياسيّة، لتبني منها عقداً أكثر عنفاً ودونيّة. حينما تفرد
خريطتك القيميّة الأصليّة أمام شخص ما، فهذا لا يشير إلى
شجاعتك بقدر ما يشير إلى أنّك بصدق تريده. عرفت معه
مشاعر أخرى جميلة، قد تجمع بين رجل وامرأة، غير الغرام،
فماذا عن الفرح؟ ماذا عن البهجة والوداد! أحببت أن أكون معه
دائماً، وفي كلّ مكان، أن أكون معه فحسب، أن أبكي معه،
وأضحك معه، وأن أحكي آمنة مطمئنّة معه، ليس غير ذلك. وفي
اليوم الذي لا أكون فيه معه، أصير مثل كاتب شغوف، نذر أيام
حياته للكتابة اليوميّة، ثمّ انقضى يوم، ولم يكتب فيه شيئاً!

ممرّات ضيّقة

تَمَنَّيتُ، مثلما لم أتمنَّ من قبل، أن أعفى من زيارة مخيم الزعتريّ للأجئين السوريين! كانت الفكرة تشبه حجارة ترجم للبي، ولو تراجع عنها، لكنت بلا مهنية، مثل آية امرأة حرمتها الحثين تجلس وراء صفحة الفيسبوك، وتتغنى بالأسى. لا بدّ من زيارات عدّة لأتمم البيانات التي أعمل عليها، وأعدّ تقارير حول وضع النساء في النزاعات المسلّحة.

كانت منظمتنا واحدة من حوالي أربعمئة منظمة من ثمانين بلداً في العالم، قد ساهمت في صياغة المعايير الدنيا للاستجابة للكوارث، وإعداد المخيمات تحديداً. التقدّم شمالاً نحو المخيم هو مهمة عمل، بالنسبة لكلّ من عمارة وبيتر زميليّ في المكتب، أمّا بالنسبة إليّ فهو التعرّف إلى وجهي الآخر، الذي كان عليّ أن أكونه، أو أن يكونه أحد من أفراد أسرتي، لولا قرار اتخذه شخص منهم في الوقت المناسب. فجّلّ السوريين في الزعتري، كانوا قبل قليل أقباء، لهم بيوت، وممتلكات: محلّ، أو قطعة أرض، أو وظيفة... فصاروا في غمضة عين مستضعفين في الأرض، لنزوحهم من القصف الذي طاهمهم، ومن العصابات التي هاجمتهم في ديارهم، أو لسبب موقفهم ممّا يحدث، أو لدينهم، أو لطائفهم....

ينبسط المخيم على أرض مستوية، كإشارة وحيدة، ووهيئة إلى إمكانية الثقة بالعالم، وعلى مقربة من وطن يحترق بالحرب التي يمكن للجميع أن يرى دخانها في كل وقت. كان التحدي الأول هو الوصول إلى اللاجئين، وسماح السلطات لنا بالتواصل معهم، حيث كان عليّ من أجل التعامل معهم، أن أتعرف إلى طاقاتهم قبل رصد احتياجاتهم، كما يقول الدليل الذي وضعته المنظمات الدولية. ما يزال المخيم قيد الإنجاز، مدينة قائمة بذاتها من المنكوبين، والذين يعمل على خدمتهم مئات من البشر، قد يكون لكلّ منهم نكبته الخاصة أيضاً، وقد جاء ليكفر عن سببها، أو لينساها، أو ليهرب منها، تماماً مثل الدول التي تزود المخيم بالمعونات، وقد كان لها يد طولى في تبعثر ناسه وتجميعهم من بعد، وتحويلهم إلى لاجئين. دول تقتل بيد، وتدفع الدية بالأخرى.

المشرف من علٍ سيرى قطع "ليغو" صفراء مركبة على أرض ترابية، الخيام المصفوفة المتجانبة في خطوط متوازية، تشكل شوارع المخيم، وتحمل كلّ منها دمغة الـ UNHCR، المفوضية العليا لشؤون اللاجئين، وداخلها حكاية صادقة، وحكاية مدعاة، فهناك من ترك بيته مرغماً، وهناك من تركه لأنّ المخيم أفضل، وهناك من لا بيت له أصلاً. إنّهُ عالم من الضحايا، يتحوّل بسرعة، وينشطر ليكون ضحايا الضحايا، وجلادين، ولصوصاً، وتجّاراً، ووعاظاً، وناشطين اجتماعيين وسياسيين، وشعراء، وعشاقاً...

رحت أجيل النظر على عجل، وكأني أريد من عيني أن
تصوّر التفاصيل كلّها، قبل أن يدركها مطارد ما، يوقفها، أو
يمنعها، سأترك بعدها لعقلي أن يستعيد صور الحّمّات مسبقه
الصنع، علب مستطيلة من البلاستيك مغلقة من جوانب ثلاثة
والرابع الذي يعطيه المستخدم. ظهره، مفتوح للعراء، فيها حفرة
في الأرض ملبّسة بطبقة بلاستيك، يقضي فيها الناس حاجتهم،
ورشّاش للماء مثل مظلة صغيرة للاستحمام. الأباريق البلاستيكيّة
البيضاء ذات الأعناق المعقوفة متناثرة في كلّ مكان، للغسل،
والتنظيف، ونقل الماء، والشرب، والمداحل تسفلت الشوارع بين
الخيام، وعمّال الكهرباء يمدّون خطوط الشبكة، وخيمان
متّصلتان تحوّلنا إلى جامع تقام فيه الصلوات، وعلى أحد
مدخليهما وضعت طاولة عليها صندوق لجمع التبرّعات، يحرسها
شابّ بلحية وجلايّة قصيرة، ومكتب الاستقبال، ورجال
الأمن....

حين دخلت الشارع رقم (5) كان منجزاً، وكان ساكنوه
في خيامهم، والأطفال يلعبون أمامها، يتأمّلون كل قادم ليكونوا
ذاكرهم الأبدية، سيعيشون بها، وسيكتبون منها، ويرسمون،
ويحكون. ثمة بيوت أخرى مصفوفة بعيداً، بصفّ واحد متعامد
مع الشوارع المتوازية، بيوت مسبقه الصنع أو "كرافانات" يختصّ
بها الموظّفون، لتعزيز الفروقات بينهم بوصفهم أقوياء وقادرين
وكرماء، وبين اللاجئين بوصفهم مستضعفين، هم أيضاً لا

ينتبهون إلى أن عليهم التوقف عن الاجتماعات في الفنادق الفاخرة من أجل ورشة عمل، وعن إقامة الولائم عند إطلاق مدونة أو توقيع معاهدة، مثلما يفعل السياسيون تماماً. إنَّ على أحد ما بأن يقنعهم أنَّ ما يقال تحت سقف أوتيل "كمينسكي"، يمكن أن يقال تحت سقف خيمة من كتّان، ومع مزيد من الإنسانية.

ينتشر متطوعون من جهات شتى، يعملون في مهمّات منظمة، ويحاولون مجاهدة السواد بغريزتهم الإنسانية الطازجة، وبعد قليل سيستسلمون، ومنهم من سيُقتل في سبيل الآخرين برصاص طرف ما من الأطراف المتقاتلة، وسيهرب منهم من سيعاني من فساد المديرين، أو بيروقراطيتهم أو غيرهم، أولئك الذين يظنون أنَّ العمل الإنسانيّ مثل إدارة دكان خاصّ أو مؤسسة حزبيّة، فيضعون العصي في العجلات لكلّ فكرة مغامرة، كيلا يلمع اسم صاحبها في إسعاد البائسين، ويطمس أسماءهم الرخوة. سيكتشف أولئك الشباب الذين وجدوا ذواتهم في العطاء أنَّ العمل الجماعيّ فكرة نبيلة، لكنها تسقط في التطبيق، وأنَّ هذا ديدن البشر، وأنَّها لا تختلف عن كرة القدم، وأنَّ المنكوبين رغم ذلك يتمسّكون بأولئك المتطوّعين، يتعقّبون نظرات عيونهم الواثقة، ظناً منهم أنَّهم يعرفون أكثر، وأنَّهم أقوى، وقد يكمن الفرق في أنَّ هؤلاء يتصرّفون بمنطق من هو آمن، وسيعود في النهاية إلى بيته وعائلته، متبحّحاً بأسطورته، وأولئك يتصرّفون بمنطق من فقد الأمن،

وفقد معه حتّى أسطورة الخلق المتوارثة، وراح يبحث عن أخرى
جديدة، بلا أوتاد، أسطورة أضعف من خيمة الأونروا.

* * *

أطلّت من خيمتها، امرأة بدينة، ترفع ثوبها السبنيّ المرقش
بالأحمر، وتشكل ذيله في حزامها الجلديّ، فيبين بنطلونها الصوفيّ
للرجاليّ من تحته، وقد أدخلت نهاياته في جوارب نايلون داكنة،
أسفلها حذاء من البلاستيك. لقد لفّت شعرها بطرحة سوداء،
غطّت حنكها. أمسكت حبل الخيمة المعضود بوتد حديديّ،
وصرخت بشباب متطوّعين يوزّعون علباً كرتونيّة من شاحنة
صغيرة:

- لا أريد المزيد من أواني الطبخ! عندي فائض منها،
تعالوا خذوها. أريد أن أعرف فقط ماذا سيحلّ بنا
حينما ينزل المطر؟!

لا أحد يستطيع الإجابة عن سؤالها طبعاً، حتّى الأمين العام
للأمم المتّحدة ذاته. ترك الشباب العلبة أمام الخيمة، ومضوا...
خرجت من ورائها صبيّة باسقة، لا تكاد تبلغ العشرين،
طويلة، وممتلئة، وعجيزتها كبيرة، ترتدي ثوباً صوفياً نيلياً يصل
إلى ركبتها، وتحت بنطلون جينز، وبوط بلاستيكيّ حائل اللّون
كأحذية عمّال النظافة، وقد غطّت شعرها المحنّى بكوفيّة رماديّة.
بشرتها حمريّة، وعيناها كحلاوان واسعتان. ابتسمت الصبيّة في

وجهي، وأنا أقترّب بخطوات هادئة، فبانت أسنانها البيضاء قويّة
كما بدا لي. لكنّ الأمّ صرخت بي:

- صحفية! لا نريد أن نقول شيئاً، دعونا وشأننا.

لم يكن معي كاميرا، كنت أكتفي بصور الموبايل، لكن ربّما
أثارها دفتر الملاحظات والقلم في يدي، والسترة الرماديّة التي
عليها "لوغو" المنظّمة بألوانه المتعدّدة التي تشير إلى "تضامن". لم
تكن لهجة المرأة التي تبدو أمّ الصبيّة، من لهجات المدن السوريّة أو
قراها، ولم يتحلّق حولي أحد كما يفعل الناس في المخيمات
عادة، الأطفال مشغولون بلعبتهم، يجرون خلف بعضهم البعض،
ومجموعة منهم تحلّقت على مبعدة فوق التراب، كأنّهم رجال في
مجلس جادّ.

قلت لها إنّني دكتورة، جئت أسألهم عن احتياجاتهم. كان
لقب دكتورة يساعدني كثيراً، إذ يظنّ الناس أنّني طبيبة، فيبدؤون
بالشكوى، إلى أن أكشف لهم أنّ دكتورة لا تعني بالضرورة
طبيبة، بعد أن أكون قد كسبت ودّهم.

لم تبال المرأة بي كثيراً، دخلت خيمتها، وقالت لي
الصبيّة: تفضّلي.

خففت رأسي تفادياً للاصطدام بالغسيل المنشور على حبال
بلاستيكيّة زرقاء، تمتدّ بين أمراس الخيمة. في الداخل، المكان مرّتب
ونظيف، مثل أيّ بيت سوريّ ريفيّ، مع اعتبارات اللّجوء، إذ لا
أثاث، ولا زينة، كلّها أشياء أوّلّيّة، قادمة من البلاد، بسط،

وقطرميزات جبنة، وزيتون، ومكدوس، ومرّبي الورد، وما تبقى من أعطيات اللّحوء: مجموعة من الفرشات الإسفنجيّة المفروشة على هيئة مقاعد، ويبدو أنّهم استطاعوا الحصول على أكثر من حصّتهم، إذ جعلوا الفرش في طبقتين، ووسائد جعلت مساند، ومراكي، وفي الزاوية مطبخ فيه موقد غازيّ صغير، وعدّة طبخ، وطناجر، ودلال قهوة، وإبريق، وعلبة زيت قلبي، أكياس سكر وأرزّ وشاي، ما تزال في أغلفتها. كلّ شيء نظيف، وفي مكانه، وبجانب مجلسنا مدفأة غاز، وتلفزيون وجهاز ريسيفر للستلايت. قالت المرأة للصبيّة بصوت قريب من النباح:

- صابرين، اعملي شاي للدكتورة.

أوقدت صابرين الغاز الصغير، ووضعت في الإبريق ماء من الغالون البلاستيكيّ الأبيض، وأنا أبحث عن مفاتيح الأمّ التي ما تزال بعيدة عنّي. صبّ الشاي الحلو، ووضعت ورقة ننع في كلّ كأس، فأخرجت الأمّ من تحت الوسادة باكيّت دخان "جلواز"، وأعطتني سيكارة، وهي تقول: هاتي الولاّعة يا صابرين، في لهجتها لكنة مصريّة واضحة.

تناولت منها السيجارة كي أغدو أقرب:

- هل أنت مصريّة؟

- أيوه.

- ما الذي أتى بك؟

أخذت نفس دخان عميقاً، ونفثته فوق، فانتشرت غمامة

بيضاء، رحت أتابعها بمرح، وكأنّ كون المرأة مصريّة لا سورّيّة،
قد أزاح عن كاهلي ثقلًا ما.

- أنا كنت مصريّة من زمان، وصرت سورّيّة منذ ثلاثين
سنة، حينما تزوّجت بأبي حسن.

- ولماذا لم تذهبي إلى مصر؟ إلى أهلك؟

- ليس لديّ جواز سفر، لم أجدّه منذ ذلك الوقت،
وليس لي أهل هناك، لا أعرف عنهم شيئًا.

وبدأنا نستأنس ببعضنا، تساعدنا حركات صابرين الودودة،
وتعليقاتها الذكيّة:

- صابرين، اسم مصريّ أكثر من كونه سورّيًا.

- أيوه، سمّيتها على اسم صابرين الممثّلة، أحبّ وجهها
المدوّر مثل وجه ابنتي، وكذلك صوتها، وعينيها
اللامعتين، وامتلأ جسدها، وبدأت صابرين تدندن
بأغنية شبّبتها:

"على دول يمه يمه على دول..."

صوتها حلّو فعلاً. قالت الأمّ:

- عندي ميرفت أيضاً، أبو حسن يحبّ ميرفت أمين،
وحسن على اسم جدّه، وسمّينا الآخر حسين.

- وأين هم؟ هنا جميعاً؟

سحبت نفساً عميقاً آخر من سيّجارتها، فبان الكحلّ ساحراً

في عينيها، امرأة كيّيفة رغم همّ اللجوء والحرب!

- حسن وحسين، وفقهما الله، في لبنان، يعملان هناك في أعمال البناء منذ سنوات، ويرسلان لنا النقود، كانوا قد عادوا مؤخراً، ليبدؤوا مشروعاً في البلد، لكن مع أوّل الأحداث غادروا إلى هناك ثانية. وميرفت مع زوجها في صحنايا، جنب الشام، زوجها شرطيّ، ومنطقتها آمنة. أنا وأبو حسن وصابرين جئنا إلى هنا. خرجنا من المليحة، لدينا بيت ورزق وشجر مثمر نعيش منه، تسلّل مطاردون إلى دارنا، قالوا إنهم ثوار ضدّ النظام من لواء الحرّيّة، التحرير لا أعرف! استولوا على المكان كلّهُ. سكنوا البيت، وقالوا بإمكاننا البقاء، لكن كيف نبقي مع رجال غرباء، وعندى بنت صبيّة! أبو حسن قال: سيحولوننا خدماً، ومن الأفضل أن نترك البيت، ونعود لاحقاً، فلن يحملوا معهم الحيطان! حينها بدأ النظام يقصف المنطقة بالصواريخ من معسكر قريب. خرجنا في ليلة ما فيها ضو قمر، نحن وجيراننا، وهم أبناء عمومة أبو حسن. انتقلنا بين البساتين، حتّى وصلنا إلى طريق درعا الزراعيّ، كانت رحلة صعبة، دوريات وحواجز: حاجز للنظام، وحاجز للجيش الحرّ، وكنا ندفع عند كلّ حاجز خمسمئة ليرة، حتّى وصلنا إلى خربة غزالة، فمكثنا عند أقارب زوج ابنتي ميرفت، لو كان الطريق إلى دارها سالكاً لكنّا ذهبنا! نفدت

أموالنا تقريباً، ولم يكن يمكننا قطع الجسر إلى الحدود اللبنانية، التي أغلقت أصلاً، فاتصل ابني حسن وقال لنا أن نذهب إلى الحدود الأردنية، سينقلوننا إلى المخيم، هنا كل شيء ببلاش، ثم سنتدبر أمرنا حين يسمح بإدخالنا إلى لبنان، نحن إسلام سنّة.

- دخلت صبيّة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، وهي تنادي صابرين، ابتسمت في وجهي بخجل، وسحبت صابرين من يدها وخرجتا، وتابعنا أمّ حسن وأنا دردشتنا، وهي تحاول أن تتحدّث بلهجة سورية لا تبارح فيها لكتتها المصرية....

- حكايتي طويلة وصعبة يا ابنتي، قالت:

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كنت أزور في الحسين، يوم المولد، الليلة الكبيرة، جئت مع زوجي الأوّل من دمياط، وخيمنا هناك قبل ليلتين أمام المزار، لا ننقطع عن الصلاة والدعاء، ليرزقنا الله بطفل، فلم أحمل على الرغم من مرور ثلاث سنوات على زواجي. حينما وصلنا الحسين كان الازدحام فظيلاً مثل يوم المحشر، أضواء، وموسيقى، وناس بأشكال ولهجات مختلفة، عرب وأجانب، وصعايدة وأرياف، ويّاعو حلوى وأطعمة، وشحّادون، ومعاقون، ومرضى، وصبايا جميلات. أخذني ذلك العالم الذي لم أر مثله من قبل، الناس فرحون ومدهوشون مثلي. كنت ممسكة بيد زوجي، وكانت قامات الرجال والنساء الأطول

منّي تغطّيني، فأدفعها باليد الأخرى. صرنا نبحث عن مخرج من هذا الازدحام الذي لا يطاق، نمشي نمشي، وندفع الناس، ولا نصل إلى نهاية. تعبت، وضاق نفسي، ولم أتوقّف عن الدعاء ليهبني الله طفلاً بركة سيدي الحسين والسيدة زينب وكلّ آل البيت، وبجاه النبيّ وجاه كلّ من له عند الله جاه، وبعد قليل شعرت بقشعريرة حلوة تأتي من يدي، إلى ظهري، ثمّ رحمي، إلى أسفل، وقلت في نفسي: لقد فاض عليّ الحسين بعطائه، وشددت أكثر على يد زوجي، ثمّ ارتخت مفاصلي. حينما خرجت من الزحمة، التفتّ إلى زوجي، لكنّه لم يكن زوجي، كان رجلاً آخر، وكانت يده هي التي أمسكها، بحثت عن زوجي فلم أجده، وظلّ الرجل يتبعني، من غير أن يفلت يدي:

- لقد كنت أبحث عن امرأة، وأفاض الله بركاته عليّ بجاه سيدنا الحسين، قال الرجل.

لم نمض وقتاً طويلاً في الأخذ والردّ، كانت تلك فيوض لا يمكنني جحدها، غادرت معه، وجئنا إلى الغوطة، ومن يومها لم أعرف شيئاً عن مكاني السابق، لم يكن لي أب ولا أمّ، زوجي أخي لقريب زوجته، الذي ما أحببته يوماً، حتّى جسدي كان يرفض أن يحمل طفله، وبمجرّد أن عدت مع أبو حسن، حملت بحسن....

لا أدري كيف قلت بسذاجة:

- لو ذهبت إلى مصر، ربّما كان وضعك أفضل؟

- مصر أيضاً خربانة، الخراب في كل مكان... كلّه مكتوب.

دخلت صابرين بضحكة عريضة أبانت عن طويّتها اللّعب، سحبت علبة من بين العلب، كرتونة، أخرجت منها أكياس نايلون فيها معجون أصفر، محاولة إخفاءها عنّي، وهمّت بالخروج، صاحت أمّها:

- الكيس بمئة ليرة، ولا قرش أقلّ.

عادت صابرين بسرعة، وقالت إنّها باعت سبعة أكياس، ولم تعد تتحرّص في الحديث أمامي، حينما وجدت أمّها غير مبالية أصلاً بأن أعرف ماذا يفعلن أو لا أعرف! رمت النقود في حجر أمّها، فلوت أمّها شفتها معبرة عن عدم رضاها، وقالت:

- كلّ هؤلاء النسوة على سبعة أكياس!

كانت صابرين تأخذ السكر الذي هو فائض عندهم دائماً، لأنّ أحد العمّال في المخيم، يغدق عليها معونات إضافية، طمعاً في رضاها، فكانت تعقده، وتصنع منه مزيلاً للشعر، تبيعه للنساء، تقول إنّ زبائنّها حتّى من بعض العاملات الدوّليات، اللّواتي تزيل هنّ الشعر بيديها باحترافية بالغة، وتضيف إلى خلطاتهنّ النعنع والحليب. لما رأت الأمّ دهشتي قالت:

- اللاجئون لهم نفس أيضاً، يحبّون اللحم الأبيض، والجلد المقشّر واللامع، كلّ هؤلاء الرجال القادرون، يمضون

وقتهم مع نساء، وضحكت ضحكة مترددة، وكأنها
تختبر إحساسي بالدعابة: لهم أشياء تقوم وتقعّد،
والوقت طويل هنا، والجوّ بارد، والنفوس مقبوضة، لا
يريحها سوى التحام الجسد بالجسد، ليس لنا هنا سوى
بعضنا، والسكر كثير....

بالطبع أعرف أنّ الجنس لا يتوقّف، وأنّه يزداد في مثل هذه
التجمّعات، تلك المعلومات مكتوبة بجفاف علميّ في كلّ دليل
إرشاد يتعلّق بالمخيّمات، وبما يجب على العاملين فيها أن يعرفوه،
ثمّ إنّ نسبة توزيع حبوب منع الحمل تبلغ مداها في مخيّمات
اللّجوء، حيث تفوق نسبتها في مواسم الحصاد، التي تكون في
كثير من المجتمعات فرصة تمنحها الطبيعة لاختلاط الجنسين، لكنّ
أن يقال هذا الكلام أمامي بكلّ ما فيه من طراوة الحياة الحقيقيّة،
والرغبات المتفجّرة من حمم المآسي، والاحتياجات البشريّة
الأصيلة، فذلك أكبر من تجاربي، ومواجهاتي المعرفيّة.
ولتخرجني من جوّ المفاجآت قالت أم صابرين، هيّا تعالي غداً
لتستلمك صابرين في جلسة تنظيف إن كنت بحاجة إليها، سيسرّ
زوجك كثيراً بالنعومة الفريدة التي لم يحصل عليها من قبل، أمّا
أنا فسأقرأ طالعك مجّاناً، وتناولت من بين الفرشتين تحتها صرّة
مخضراء، وفتحتها: انظري، هذه الصرّة من مقام سيّدنا الشيخ
محي الدين في الشام، ودعها لا يخيب أبداً. ضمّت الودع بكلتا
يديها، وخضّته، فخرجت له وسوسة قويّة، قرّبت من شفيتها،

وتمت شياً، ثمّ جمعت باليمن ورمته، قبل أن أقول لها أن
تتوقّف، لا أحبّ هذه النزوعات الشيطانيّة، حتّى ولو على سبيل
التسلية والمزاح، لكنني استسلمت، ورحت أراقب وجهها وهي
تحدّق بالودع أمامها بجمود، نظرهما بلا حياة، وخطّ لامع مرهب
يخرج من بؤبؤها:

- ستصاين بمرض خطير، وإن نجوت منه، فستعيشين
طويلاً...

ابتسمت، وشعرت بابتسامتي معوّجة، قلبت على إثرها
شفتي السفلى لأغطي بها العليا، لقد هزّني عبارتها من داخلي، لم
تكتف، فأردفت:

- قلت لذلك الرجل: سيغادرك ابنك، وستجنّ. نام ابنه
ولم يُفك، وجنّت امرأته!

قمت لأغادر، كأنها طردتني، فطنت إلى أنّي خرجت بلا
وداع، وبلا شكر، وبلا ترتيب موعد لزيارة لاحقة، أريد أن
أهرب من خيمة الرّمالة، ومن الثقل الذي حطّ على نفسي
وأطال من بعد تلك الساعة.

* * *

كانت ليلة باردة من ليالي تشرين الأوّل، وبرد البادية ليس
مزحة إطلاقاً، لكنّها لا تنذر بريح، ولا مطر، السماء صافية،
والنجوم تبرق مثل عيون قطط طائرة.

خيمتنا تشبه خيام اللاجئين، تقع في الشارع الأول جنوب المخيم، بموازة خيامهم، ولا تختلف عنها في شيء، الحصائر والفرش ومكوّنات الطعام نفسها إلّا أنّ متاعنا قليل، ونمتلك حريّتنا في الدخول والخروج إلى المخيم، وفقاً لعملنا، ولدينا بيوت نعود إليها أنّى شئنا، وأمر البيت بالنسبة إليّ مختلف فيه، فمن بين العاملين جميعاً ربّما أكون الأقرب إلى عالم اللّجوء، فبيتي الحقيقيّ بعيد، أبعد من بيوت الجميع هنا، وإن كانت القلوب كلّها معلّقة وراء الحدود، ثمّ إنّني الوحيدة التي لست من مدينة أو محافظة، بل من ولاية إسلاميّة، وأهلي ما يزالون يقاومون فيها فكرة الانسلاخ عن الجمهوريّة، مثلما يقاومون فكرة اللّجوء. بابا يقول بإيمان راسخ: كلّه مكتوب! والذي سيجري عليّ هنا، سيجري في أيّ مكان، سأبقى في بيتي، وسلمى تقول: أنا كذلك، في حين تقترح جود أن ينتقلوا إلى مكان أكثر أماناً، إلى اللاّذقيّة مثلاً، لكنّها سرعان ما تقتنع برؤيتيهما.

كان معي في الخيمة متطوّعتان ألمانيّتان، فتحت كلّ منهما اللّاب توب الخاصّ بها، وراحت تعدّ تقاريرها. الجميع هنا مشغول بإعداد التقارير...

كان معي كيس نومي الأزرق الذي يفيض دفئاً، هدية سامي التي حملها لي من موسكو، فخرجت به أمام الخيمة، وقرّرت النوم في العراء، فقلّما يتاح للمرء أن ينام في العراء، وأن يتأمّل النجوم، كما يحدث في قصص المغامرات. كانت السماء

أليفة جداً رغم الغربة الماكثة في الأرض. أستطيع تقرّي الأفلاك، ولو وصلت بقلم بين النجوم المستقرّة فوق، لحصلت على الدّين الأصغر والأكبر، ما أشبهها بسماء الرّقة قبل العاصفة، وربّما بعدها، حيث نعود ليلاً من عرس أحد الأقرباء، ويكون الناس في الحارات نياماً، فتصفع ريح الشمال وجوهنا الدافئة بنشوة الفرح، نمشي بتؤدة، ونسمع طقطقة الحصى الجاف من البرد تحت أقدامنا، وتقول عمّي ليلي: امشوا مهدوء أكثر كي لا توقظوا الجنّ من منامه!

مرّ بي شبّان ثلاثة من متطوّعي الحماية، كانوا يتفقّدون الخيام، التي يجب أن تهدأ عند العاشرة، حيث تطفأ أضواء المخيم الرئيسة. سلّط أحدهم مصباحه المحمول على جنبي، وسألني بحيرة:

- ماذا تفعلين؟ يجب أن تكوني داخل الخيمة!

- أتأمّل النجوم....

ضحكوا:

- ممنوع، نرجو الالتزام بالتعليمات.

- غريب، لا يمكن للمرء أن يمارس حرّيته حتى في هذا

العراء!

قال أوقحهم:

- كلّ هؤلاء الذين يتكدّسون في الخيام، طلبوا الشيء

ذاته، الحرّية، لذلك صاروا هنا!

مضى المتطوعون المتحذلقون، ولم أسمح لذلك الشاب باستفزازي، إذ امتثلت للقوانين. أحياناً لا يختلفون عن آية سلطة، الرغبة السلطوية تأكل البشر، وتتخذ أشكالاً لا يمكن التنبؤ بها، أشكالاً في غاية الإنسانية، وأنا منذ وقت ليس بالقصير، لم أعد أومن بالسلطة، ولا بالعمل الجماعي، ولا باللحان، ولا بالتقارير، كلّها مفردات مضلّلة وسلبية.

نصف فرشتي كانت داخل الخيمة، حين لمحت شبهاً صغيراً يركض، ليس حيواناً يقترب باتجاه الخيام، إذ صدر صوت عن بنت فتية: يا آنسة، يا آنسة جمان!

- من؟

كانت "زينة"، بنت في الثالثة عشرة، زرت خيمتهم اليوم وقابلت ذويها، وتحدثنا، أخبرتني أنّها لا تريد العودة إلى قريتها، كما أنّها ستخرج بالقوة من هذا المخيم، ستتخلص من روائح البيض المسلوق التي تلتصق بوبر البطانيات، فتقلب معدتها:

- زوجة عمّي ضحى تلد الآن....

كانت العائلة المؤلفة من إخوة ثلاثة، وزوجاتهم قد سكنوا في خيام متجاورة مع أولادهم الكثر، وكانت ضحى العشرينيّة، العروس، على وشك الولادة. النساء في هذه الخيمة كنّ يصنعن أطباق القشّ الملونة بألوان مبهجة، صغيرة وكبيرة، أهدتني زينة واحداً منها، صنّعه بيديها، صغير، أزرق وأحمر وأبيض، فأخذته مثل تحفة تقتنيها سائحة، ونسيت أنّي أتعثر بمثله في بلادي كلّ

قليل، في الاتحاد النسائيّ، في جمعيات تنمية الريف، في مهرجانات
الطلائع، في الأسواق الشعبيّة....

قالت إحداهنّ إنّ بيتهنّ قريب، وراء الحدود، في درعا،
وقريتهنّ اسمها الغاريّة الشرقيّة، قرية من الطريق الدوليّ إلى
الأردن، وقد هربوا من القصف المستمرّ بين المسلّحين المعارضين
والدولة:

لم تنقطع المناوشات منذ أسبوع، خرجنا بملابسنا، أخذنا
أوراقنا والنقود، وتركنا الدّور في عهدة من لم يخرج من الجيران.
معنا أطفال، وضحي دخلت شهر ولادتها، ولا أحد من الرجال
سوى زوجها، كلّهم يعملون سائقي سيّارات أجرة على خطّ
السعوديّة، ولم يعودوا منذ بدء القصف بسبب إغلاق الحدود.

سمعنا أنّهم فتحوا ممراً آمناً ليخرج المدنيّون خلال ساعات
ثلاث، فخرجنا، وركبنا شاحنة، ووصلنا الحدود غير الرسميّة،
وسلّمنا أنفسنا إلى الخفر الأردنيّ. نريد أن ننام فقط، لا ماء ولا
كهرباء، حتّى المؤن نفدت، وجاع الأطفال، نريد أن نرتاح من
صوت الرصاص، من صوت القذائف، نريد أن ننام.

صاحت زينة: نريد دكتور!

كنت قد رأيت الدكتور منهل، طبيب النساء الموفد من قبل
إحدى المنظّمات الدوليّة، قد وقّع إذن خروج ليومين، وغادر،
لكن لم أجبها، فلست مخوّلة. ذهبت معها إلى العيادة، ومعنا
إحدى الألمانيّتين، توثّق كلّ خطوة نخطوها، وكأنّها تعدّ لتكتب

تجربتها الخاصة بالمخيم فيما بعد. وجدنا في العيادة متطوعين يلعبون الورق على ضوء مصباح غاز، ومعارفهم لا تتجاوز الإسعاف الأولي، لكن قالوا إن هناك طبيباً للتوليد في عيادة الشارع السابع، وهي بعيدة نسبياً في هذا الظلام، وسيقومون هم بإحضاره.

عدت وزينة إلى حيث خيمتهم. كانت ضحى تصرخ من آلام المخاض، وزوجها كان في الخارج جالساً على التراب، يحدّق في الظلام وقد استسلم لصوتها، ولليل، ولخيرات النساء من حولها، كما استسلم سابقاً فخرج من بيته، ماذا بيد المرء سوى الاستسلام حين تتعاضم قوى العالم من حول ضالته! ضحى محتقنة، والنساء من حولها كثر، طلبت منهنّ أن يتفرّقن ويسمحن لها بالتنفّس، فامتثلن ظناً منهنّ أنّي طبيبة، وبالطبع هنّ أخير منّي، فانا لم أشهد ولادة أحد من قبل، لكنّي قلت لها كما كنت أسمع: تنفّسي عميقاً وادفعي، وأمسكت بيدها، وراحت واحدة تمسح عرقها، وأخريات يدعين الله. مشهد بدائيّ شاهدته في التلفزيون عشرات المرّات، وأنا زججت بنفسي فيه بلا أدنى معرفة، وطبعاً هو مخالف لمسؤوليّاتي وأعراف عملي، قلت لها إنّ النساء يلدن بالآلاف كلّ يوم في الحقل، في الشارع، وإنّ أمّي ولدتني على طريق السفر، وكنت أكذب طبعاً. جاء الطبيب، وولدت ضحى بنتاً، وبكيت وقتها، لقد سمّوها جمان، على اسمي، أنا التي لم أفعل شيئاً سوى الكلام!

- أريدها أن تصير دكتورة مثلك. قالت ضحى.
هذه الطفلة السوريّة الجديدة، سيحكون لها عن ولادتها
حكاية جديدة غير عاديّة، وستصير أسطورتها التي ستعيش عليها،
وترى بها حالها مختلفة، مثلما كان أجدادنا يحكون لنا عن
أساطيرهم، في السفربرلك، وأيام الفرنسيين، وفي حرب تشرين.

* * *

كانت الساعة قد شارفت على الخامسة صباحاً حينما أوصلني
الشابان المتطوّعان اللذان كانا في العيادة إلى خيمتي، لم تكن الريح
رحيمة وقتها، لكنّها حملت رائحة قهوة مطّية بالهال من مكان ما،
لقد استيقظ أحدهم، وبدأ ممارسة عاداته الوطنيّة، التي لا يمكن
للجوء إيقافها، دخلت في الفراش، فاكشفت أنّي مهدودة من
التعب، وتنامى إلى مسمعي صوت حوار رصين تنمّ أصوات
المشاركين فيه على أعمار بين الطفولة واليفاعة، قال أحدهم:

- دائماً ما أتخيّله يلبس لباساً ذهبياً، ويغطّي رأسه بتاج
ذهبيّ أيضاً، وفي يده عصا ذهبيّة، يهزّها بشكل
عموديّ، وهو في فضاء، ربّما هي السماء، ووجهه
جميل جدّاً.

قال الآخر:

- أنا أراه يشبه جدّي صلاح، لكنّه أضخم، يلبس شروالاً
أسود، وقميصاً أزرق، وعلى رأسه حطّة حمراء،

ويقرفص على ركبتيه، وبينهما قد أشعل بابور كاز،
وراح يقدحه بين الفينة والأخرى، لا يستند إلى أرض،
بل يثبت في نقطة من الأفق!

الثالث كان له نبرة مختلفة، تتاكل الحروف بسبب صوته
الضاحك:

- احزروا كيف كان يتخيَّله أخي عدنان! كان يذهب إلى
دكان حمدي، ويقف ليتأمل علبة طعام الأطفال،
"سيرلاك"، علبة معدنية وعلى طرفها صورة امرأة جميلة
بشعر ينسدل على رقبتها. كان يقول لا بدّ من أن هذا
هو الله.

- طبعاً، لديها القدرة على إطعامه، والطعام أهمّ شيء في
الحياة بالنسبة إلى عدنان.

- أمّي تقول إذا تساءلنا عن الله، علينا فقط أن نقرأ قل هو
الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له
كفوّاً أحد، عندها ستهدأ أسئلتنا، ونتخلّص من وسوسة
الشیطان.

- لا أحد يعرف شكل الله، لكنّه جميل جدّاً، ورحيم...
كان صوت الأولاد الثلاثة الذين جلسوا خلف خيمتي،
يقوم مقام الحذاء الذي يقود إلى النوم، هادئاً ومطرّداً، وحوارهم
أيضاً كان أليفاً، إذ طالما تساءلنا أنا وجود وسلمي عن الله، الذي
قالت عمّي ليلي إنّّه سيعزّنا دائماً، لذا لن يتمكّن أحد من

إذلالنا، وكُنّا حينما نستلقي في عليّة بيتنا في ليالي الصيف، تكون السماء قريبة جداً، فتقول سلمى: لو وضعنا سلّماً فوق سلّم فوق سلّم هل نصل إلى الله؟! هل هو وراء هذه السماء؟ تجيب جود: ربّما لو ربطنا حبالاً بالقمر وتسلّقناها لوصلنا إليه، وكانت ماما تقول: لا أحد يستطيع الوصول إلى الله، هيّا ناموا، اقرؤوا "قل هو الله أحد" وناموا. ويبدو أنّ الأمّهات جميعاً يمتلكن، حول الله، الإجابة ذاتها!

عدت إلى المخيم بعد أسبوعين، وحملت لجمان الصغيرة ألبسة جديدة: قبعات، وحرام صوف أبيض مطرّز بخطوط فضيّة، وآفرهولات صغيرة لم تقنعي مقاساتها التي تناسب الألعاب لا البشر، وحلوى لأهلها. كبرت الوليدة في أسبوعين، وكانت تقبل على ثدي أمّها بشجاعة. أعطوني سرّها ملفوفة في خرقة ملوّنة، وقال أبوها: أرجوك ارميها في مدرسة أو جامعة، أريدها أن تصبح مثلك دكتورة. وفكّرت: ترى أين رميت سرر كلّ هؤلاء اللاجئين حينما كانوا أطفالاً؟ هل رميت في العراء مثلاً، فكتب أهلهم مصير أبنائهم بأيديهم، وأنا كنت كلّما سألت ماما عن مصير سرّي كانت تجيبني إجابة مختلفة، مرّة في المدرسة، ومرّة في المكتبة، ومرّة تزجرني قائلة: توقفي عن الكلام الفارغ!

* * *

في تلك الآونة، بدأت تحتاحني نوبات من السعال الحادّ، سعال جاف ومتواصل، تزداد وطأته في الليل، فلا أنام جيّداً، وأقضي يومي أعاني جرّاء النعاس والإرهاق، ولا أنجز كثيراً من عملي. هُئِيَّ إليّ أنّها عدوى التقطتها من المخيم، لكن تذكّرت أنّ السعال كان يأتيني قبل ذلك بأشهر، ولم أكن أُلقي له بالاً، وأقول ربّما هي أعراض إنفلونزا.

ذهبت في أحد الأيام مع "بيتر" زميلي في المكتب، إلى وزارة العمل، لنبحث في أرشيفاتها عن بعض الإحصائيات. وجدنا المصعد معطّلاً، فاضطررنا لمقابلة مدير دائرة التراخيص إلى صعود الدرج نحو الطابق الثاني، لكن ما أن وصلنا الطابق الأوّل حتّى قال لي بيتر: لياقتك متراجعة يا جمان، إنّك تلهثين! فعلاً، كنت أشعر بضيق نفس، وما أن وصلت مكتب المدير حتّى تهاويت على أوّل مقعد. ظننت أنّ انقطاعي عن الذهاب إلى النادي الرياضي هو السبب في ذلك، لكنّ السعال بدأ يترافق الآن مع بلغم أفزعتني فيه الخيوط الحمراء التي شابهته. قالت لي "تمارا" زميلتي: إنّهُ الشتاء وأمراضه، وإنّ مخاطها أيضاً مدّمي!

بدأت أذهب بعيداً في الاستماع إلى جسدي، وكلّما أمعنت خفت أكثر، ودخلت مرحلة الوسائوس، وبات نومي غير مريح إطلاقاً، وضيق نفسي يزداد يوماً فيوماً، ثمّ ساعة فساعة، لدرجة أنّ وضعيّات النوم كلّها لم تعد مريحة: على صدري لا يمكنني النوم إلّا بسعال شديد، وعلى الجانين أفضل، وبسعال أخفّ،

وأفضل وضعية هي النوم على ظهري الذي تسمّر مثل خشبة، ولم تعد أشربة السعال كلّها تجدي نفعاً، وكذلك منقوعات الأعشاب، الزهورات، والبابونج، والزعرتر...

في تلك الليلة، قمت لآخذ حماماً ساخناً كي يبدّد وهي، أنهيته مرهقة، وما أن خرجت من باب الحمام، حتّى تهاويت في لحظة كانت من أصعب اللحظات التي مرّ بها جسدي حتّى ذلك الوقت. كنت أريد أن أقبض على وعيي إلى أقصى حدّ، لكنّه أفلت منّي لثوان، بسبب ضيق نفس شديد اعتراني. قمت ووقفت بمنشفتي في الشرفة، تنشّقت هواء ثقيلاً، شقّ طريقه إلى صدري بصعوبة، تمدّدت على السرير، ورفعت قدميّ على وسادة، أحاول أن آخذ المزيد من الأنفاس التي ستصير منذ تلك اللحظة قاهرة ومسجونة. فكّرت في أنّ أكثر ما يخيف الناس هو أن يفقدوا وعيهم بلا سبب معروف، وأنّه لا يفقد أحد وعيه بلا سبب. جاءني هاجس دامغ بأنّي أعاني من مشكلة في قلبي أو رئتي اليسرى، وفتحت الإنترنت لأبحث عمّا يشبه أعراضي، وكانت الإجابات مقلقة، وغير مفيدة، تبدأ بفقر الدم، وتقرّ بمشاكل القلب، وتنتهي بسرطان الرئة، فذهبت نحو الأبعد! لكنني لا أدخن، ولا أعمل في المناجم، ولا مصافي البترول، وسرطان الرئة يصيب الذكور أكثر بكثير من الإناث....

أصبح الصباح ببطء مستفزّ، ومعه كنت عند طبيب الرئة في مستشفى الأردنّ، وحدي، وبلا موعد. طلب صورة أشعّة، ولم

أنتظر تقريرها، حملتها إليه بسرعة، رفعها على اللوحة المضئية،
وارتسمت أمارات انزعاج مشوب بصدى ابتسامة:

- أطمئنك، رثتك سليمة، لكن ثمة مشكلة في الغدة
اللمفاوية الواقعة بين الرئتين، متضخمة.

- سرطان؟!

- ربّما التهاب.

- بل سرطان.

- ربّما، لكن حتّى لو كان ورماً خبيثاً، لا تقلقي،
فالعلاج متوافر هنا، ونسبة الشفاء عالية: 90-95%.

- جراحة؟

- لا جراحة، علاج كيميائيّ فحسب، سنبدأ بصورة
طبيقيّة، وبعدها أحيلك لإجراء خزعة تكشف نوع
الورم.

لم أنتظر أحداً ليقول لي إنّني لست مصابة بالسرطان. لقد
كنت واثقة من ذلك، وفي ظلّ هذه الصدمة، والفوضى،
والوحدة كان ثمة شيء مريح يشبه برد اليقين!

على باب العيادة، اتصلت بـ بابا، وطبعاً أخرسته الصدمة،
وراح يداريها بتطمينات ساذجة ومزيّفة، لم يصدّق ما أقول، ثمّ إنّّه
أعجز من أن يغادر البيت، محاطاً بجواجز عسكريّة للنظام، وللدولة
الإسلاميّة، وللجيش الحرّ، ولجبهة النصرة... وقبل أن أغلق الهاتف
أدركت أنّ ليس لي سوى أن أواجه كلّ شيء وحدي.

تقرير الصورة الطبقيّة أكّد وجود كتلة في الغدّة اللمفاويّة بين الرئتين، بأبعاد 9*11 سم، هذا التقرير هو الذي سيليقي بي في الدوامة التي ستتسع وسيكون الموت أهون احتمالاً لها، فأنا أهيبّ الإجراءات، كما تفرّغنا الطريق أكثر من الهاوية التي تفضي إليها. كان ذلك اليوم هو الأقسى في الثلاثة والثلاثين عاماً كلّها، أقسى من يوم اكتشاف مرض ماما، وأقسى من يوم موتها. أعرف تماماً كيف وصلت إلى البيت، بمنتهى الضياع، تهاويت على المقعد الأقرب للباب، بلا طاقة حتّى للبكاء. رأسي يتشظّى، وستارة سوداء تحجب قلبي عن العالم، أتأمل في ورقة الخزعة التي طلبها الطبيب، والتي تمّ حجز موعدها ظهر اليوم التالي، فأرى اسمي عليها رمادياً، لا يشبهني، وكنت أعجز من أن أفعل شيئاً، وأريد لأحد أن يوجّهني إلى طريق ما، طريق ما بعد الخزعة التي ستكون نتيجتها مؤكّدة. وفي ليلتي الأولى التي أعلنت فيها لنفسي عن المرض، التفت الساق بالساق من الفزع، وعشت هذه الصورة حقيقة، ساقاي لا ينفصلان عن بعضهما من الخوف، أحاول فصلهما، لكن بلا طائل.

وصلنا إلى المستشفى ظهراً بسيّارة تمارا، صادفت في الصالة رجلاً أعرفه، وكانت لي معه مواقف غير مريحة في العمل، فتشاءمت، وبدأ نظام العلامات الكونيّة يشغل في عقلي. قام بيتر بالإجراءات المطلوبة، كنت متهاوية، وأريد أن تنتهي هذه الفانتازيا التي لا معنى لها. حينما دخلت إلى غرفة التصوير كنت

بالكاد ألتقط أنفاسي، وكنت أسعل بمرارة، وضعني الفنيون تحت جهاز التصوير الطبقيّ، وأعطوني إبرة نصف مخدّرة، وبدأ الطبيب يخزّع صدري خزعات عدّة، ويسحب السائل والنسيج من كتلي بلا ترفّق، كان يصعب عليّ الاستلقاء التام، لا بدّ من أن أسند رأسي، أو أكون نصف جالسة، لذا تعذّبت كثيراً، ورحت أسعل، فقال الطبيب: أعانك الله! حين وصلتني كلمة "الله" كان لها رنة مختلفة، جديدة، وأقرب إلى الروح من أيّ وقت مضى. خرجت إلى غرفة إنعاش مشتركة مع مرضى آخرين، بانتظار أن يذهب أثر المخدّر، وعلى صدري ضمادة، وعلامات بقلم تحديد أسود قد ارتسمت على شكل xxx على جلدي الأبيض. انتهت إلى صوت ثمارا بجانبني تكلم أمّها بالموبايل، تسألها عن طفلتها التي تركتها معها، تقول لها إنّنا سنعود سريعاً. التفتت نحوي بعد أن أغلقت هاتفها، وقالت:

- كان يوماً شاقّاً علينا جميعاً!

لم أبتسم في وجهها، فهو يوم قد مرّ بالنسبة إليها، أمّا أنا فربّما يكون أفضل أيّامي، لأنّ ما بعده سيكون الأكثر شقاء، سيكون كلّ يوم قادم درجة من درجات سلّم الموت، وستعود ثمارا إلى طفلتها وزوجها وأمّها، أمّا أنا فلا أهل ولا وطن....!

* * *

"افرحوا، اعقلوا، واحزنوا، اعقلوا"، هذا ما كانت تقول له جلدّي.

لذا بعد أن تأكّدت نتيجة الخزعة الإيجابية خلال أيام ثلاثة قرّرت ألاّ أجزع، وحمدت الله على أن مرضي ليس مجهولاً، وله علاج واضح حتّى لو باء بالفشل. كان الطبيب قد أعطاني حبوباً مهدّئة، لكنني قرّرت ألاّ أتناولها، وكانت تلك خطوتي الأولى للمواجهة.

لم يهاجمني الفزع مرّة واحدة، بل راح ينمو في داخلي مثل وحش صغير، يقتات على أعصابي، ويحتلّ عقلي وخيالي، وكان جسدي يتضاfer معه، ويتغيّر بسرعة هائلة: كلّما مرّت ساعات، نفرت حبة صغيرة مدّمة على جلدي، لتتكاثر في نهاية اليوم الرؤوس الصغيرة الحمراء، والتي تسبّب حكة شديدة، ثمّ تسودّ وتصير بقعاً. صار جلدي اللّامع الورديّ والصقيل، خشناً ومبقّعاً، وقبيحاً، ومخيفاً، واخشوشن أكثر عند صدري وبطني، واتسعت مساماته، حتّى صار كجلد التمساح. نخلت في أيام قليلة، صرت عود قصب جافّ، ووجهي أصفر كئيب، وبدأ الضياء في عينيّ ينطفئ. كانت التغيّرات مباغته ومرعبة، فأدركت معها استفحال الورم الذي سَمّ جسدي.

بدأت أجمع كلّ المفردات الإيجابية التي سمعتها وقرأتها عن هذا المرض، وعن قصص مرضاه، وتابعت المواقع الإلكترونيّة التي كتبت عن مراحل نشوئه وتطوّره وعلاجه، وكان الأهمّ بالنسبة

إليّ هو أن أعرف أفضل الاحتمالات وأسوأها. ما يطمئن أن هذا الورم ينحصر انتشاره في الجهاز اللمفاويّ ذاته، ولا ينتقل إلى غيره، وأنّ المريض حتّى لو بلغ المرحلة الرابعة منه، فعلاجه لن يختلف عن علاج مريض المرحلة الأولى إلّا بعدد الجرعات التي ستزيد، وهو غالباً قابل للشفاء تماماً.

كنت أقرب إلى الموت منّي إلى الحياة، فمن يُرزأ بالسرطان يظنّ أنّه سيموت في اليوم التالي لتشخيص حالته، لكن مع مرور الوقت، والحصار المستمرّ بالآلام، يعتاد المرء فكرة الموت، ويتوقّعه في كلّ لحظة. كان ما يملؤني حسرة، غير مفارقتي الدنيا على عجل هو أنّني سأموت غريبة وبعيدة عن أهلي ووطني. قد لا أجد لأيّام من يدفني، وإن تمّ فسيكون ذلك في تراب غريب وبين أجساد غريبة، ميتة بمنتهى القبح! مع تلويحة النهاية بدأت أستكشف أغوار علم الجمال الذي قضيت بين كتبه الشطر الأوفر من حياتي القصيرة. إنّها لمفارقة مؤلمة أن أدرك في الوقت الضائع مغزى رثاء بريام العجوز لولده هكتور البطل على أسوار طروادة! لقد كان يرى في الموت جمالاً، لكن ليس في ميتة هكتور أو في ميتتي، فهما ميتتان عكس حركة التاريخ. الجمال عنده أن يدفن الأبناء آباءهم في جنازة مهيبة، وليس العكس، وأن يهيلوا عليهم من تراب أرضهم، وهذا لن يكون لي. لن يدفني أبي، سيكييني من منفاه البعيد، وسيهال عليّ التراب، لكنّه تراب آخر، ليس فيه من بقايا الأسلاف.

كان الأخذ والردّ بيني وبين نفسي في الموضوع، وتقليب المرض وأبعاده، وحالي، والأطباء، والعلاج، مدمراً للأعصاب، ومع ذلك رفضت تناول المهدّئات، وبحث داخلي عن إيمان العجائز، فوجدت حبل الرحمة قريباً، وليس أسوأ حالاً ممّي سوى أولئك الذين لا يؤمنون برّب يرحمهم.

كنت أسمع جسدي يصرخ طالباً الدواء، وعقلي بدأ يتفتح مهيباً خلاياي لاستقبال ذلك السحر، الذي يقوّض دواً ويشفي المرضى، والذي يسمّى "كيمو". أتخيله ينسكب على ورمي قطرة قطرة، فيحرقه، ويفتح صدري للهواء من جديد، وبدائي أنّ تكشف الحقائق بحث النهايات على أن تحسم أمرها، وتقوم بالمداهمة، إذ بدأت حالي بين الأوهام والمخاوف تتراجع: جسمي في وهن شديد، لا يقوى على الحراك، ونتيجة لصعوبة سحب النفس صار صدري في جهته اليسرى يؤلمني بقسوة، وكذلك العروق من رقبتي إلى قلبي. الورم يكبر، وسيقتلني قريباً، فاتصلت بناصر...

* * *

بعد ثلاثة أيام على اتّصالي، دخل ناصر إلى منزلي. لامي بشدّة لأنني لم أخبره بالأمر منذ اللحظة الأولى، وكانت كلماته الحانية، والواثقة، والحازمة، هي التي أمسكت أعصابي من الانهيار الأخير. كان بارعاً جداً في إخفاء توتّره. جلس بمواجهتي

على الأريكة التي كنت أستلقي عليها في غرفة الجلوس، أمسك بكلتا يديّ بين كفيه، وأخذ نفساً عميقاً، وقال:

"كلّ المشكلات سُحلّ على أحسن ما يكون، وإنّه يحدث كلّ لحظة أنّ الناس تتعرّض للمرض، وهذا شيء بدهيّ، والذي يوازيه في بدهته أنّ الناس تشفى أيضاً، لا سيّما أنّنا حصلنا على التطمينات الأولى".

تلك اللّمسات الأولى، والكلمات الأولى التي حصلت عليها بعد أن أفقتُ من الصدمة، هي ما سأحتفظ به حتّى النهاية، وسأنسى الأشياء كلّها، والناس كلّهم، من راح، ومن أتى، ومن مات، ومن عاش، ومن سعد، ومن تعس... سأحتفظ فقط بما يقوله ناصر أو يفعله، إنّه ماردي، ومعجزتي، وطوق نجاتي.

تكلّمنا طويلاً، بكيت في حضنه، وكان يصغي لبكائي، ويحجب عنه بقبلات حانية. لم يتعب من الكلام، من إقناعي، ومن تبديد مخاوفي. حضّر لي عشاء خفيفاً، وكنت قد عزفت عن الطعام منذ أيام، وأكلت فقط ما أجبرتني تمارا وبيتر على أكله. دهن على قطعة توست زبدة ومرّبى الفريز، وألقمي إيّاه، وأتبعها بشاي ساخن، بعد أن تناولتها، شعرت بأنّي أفضل. ماذا كنت سأفعل لو لم يكن ناصر معي؟! كان اللّيل قد قارب على الانتصاف، فقادني إلى الفراش، وغطّاني، وظنّ بأنّي نمت، لكنني لم أنم، كنتُ خائفة القوى فحسب. سمعتُ صوت إغلاق باب الغرفة الداخليّة، إنّه يتهيأ للمغادرة، قمت من فراشي ومشيت

متعثرة، بما بقي من قوّة في جسدي المتهالك، جررت قميصه من الخلف، فُبَهِتَ، ركعتُ عند قدميه، وأمسكت بركبتيه، وتوسّلت إليه ألاّ يذهب، ألاّ يتركني وحيدة. لقد كنت خائفة من أن أموت وحدي.

كانت المرّة الأولى في حياتي التي أتوسّل فيها لأحد بهذه الطريقة المذلّة! أغمض عينيّ وهو يرجوني أن أكفّ، ثمّ أقامني، وحملني إلى السرير، ووعدني بالأّ يغادر.

غاب ناصر صباح اليوم التالي، وعند العصر عاد، ومعه حقيبة سوداء، ومغلّف فيه أوراق كثيرة. كان في الحقيبة ثيابه وأدواته التي يحتاجها، وقال إنّهُ سيمكث معي. كيف سيتمّ ذلك؟ وتحت أيّ بند؟! قال إنّهُ يشغل منذ فترة مركز مستشار أوّل في المركز الجغرافيّ الملكيّ، والآن سينتقل إلى عمّان بشكل فعليّ، لأنّ عليه أيضاً أن يرتّب شؤون سفر سارة ابنته للدراسة في أميركا. لم نناقش الموضوع، كنت أبكي فحسب، وعلى صدري ثقل جبال، وكان مرتبكاً جدّاً، لكنّه كان يقول: ليس لنا حقّ في البكاء، لنا حقّ في العلاج. أخرج من المغلّف ورقة، ومدّها لي، وقال: غداً نبدأ أولى خطوات علاجنا.

كان ناصر يتكلّم دائماً بـ "نحن"، ولا يقول "أنت" مطلقاً: نذهب، نتعالج، نأكل، ننام... وبهذا الضمير الجمعيّ كنت أقاوم وحدتي، وألمي، ويأسّي. لقد استعمل معارفه، وعلاقاته كلّها، ليحصل لي على موعد سريع في مركز السرطان، ومعاملة تشبه

معاملة المواطنين العاديين، لا الأجانب. لم يكن لديّ متسع للأسئلة الفائضة، من مثل: "لماذا تفعل ذلك معي؟! فقط بدأت تنمو في قلبي شجرة الامتنان. قرأت الورقة التي تخولني الدخول إلى مركز العلاج، كُتِب فيها اسمي، والرقم الذي مُنحتهُ، ووصف الحالة: "لإصابتها بسرطان الغدد الليمفاوية". لم يكن اسمي لي، شعرت بغربة فظيعة تجاه حروفه، ومنذ اليوم لن أعود الدكتوراة جمان بدران، أنا رقم في إحصائيات المرضى في مركز السرطان. سلمى كلمتني في التلفون. قالت لي: جمان، لا تخافي، ستمضي الأمور على خير. كوني كأولئك النساء اللواتي يسحقن الألم بأقدامهنّ ويمضين. إنهنّ حولي يواجهن القنص والصواريخ والقنابل...

- لكنهنّ لسن مصابات بالسرطان! قلت
- حولك نماذج للشفاء كثيرة. قالت
- أشعر بأنني "ماما" في أيامها الأخيرة. قلت
- لم يكن لها دواء. حالتك مختلفة. قالت
- أنا وحدي، أنتم لستم معي. قلت
- لم أجرؤ على أن أقول لها إنّ ناصراً معي. ناصر الذي قرّر ألاّ يتركني، ناصر هو أمّي وأبي وأخي وصديقي وحييبي. إن حبيبك، هو الذي ينتشلك من الموت، والآخرون كلّهم قبض ريح! قضيت المساء وأنا أسأله أسئلة بدائية، وكم نحتاج في لحظات ضعفنا إلى الأسئلة البدائية التي كانت قبل قليل مثل المسلّمات:

- ناصر، هل يُشفى الذين يتعالجون؟
 - طبعاً، لماذا إذن يفتحون هذه المراكز العظيمة، لماذا هذه الأبحاث كلّها، ليقتلوا الناس أم ليشفوهم؟!
 أضفت هذه العبارة إلى معجمي، وسكت، وبعدها أدخلني ناصر في فراشي وغطّاني، ولا أعرف ماذا سيفعل في بيتي بعد ذلك.

* * *

ستكون تكلفة العلاج باهظة، والتحويلات الماليّة من سورية صعبة ومراقبة، وبخاصّة للمبالغ الكبيرة. بابا خبّر "جون" بالتفاصيل كلّها، وكانت الدفعة الأولى من التكاليف في حوزتي بأقلّ من أسبوع.

كان "جون دراير" صديق عمر أبي منذ خمسين سنة، "الروم ميت" أو رفيق السكن في أثناء الدراسة في بوسطن، درس هندسة التعدين. والده صناعيّ كبير، وتمتلك عائلته مناجم للمعادن في ألاسكا. المرّة الأولى، والأخيرة أيضاً، التي زارنا فيها في الرقّة، كانت في أوئل التسعينيّات، قضى بيننا شهراً. عند وصوله برفقة بابا من مطار دمشق، تسابقنا أنا وجود وسلمي، لنفتح له باب السيّارة، وإذ برجل كبير، طويل جدّاً، وضخم، ولا يشبه (ريتشارد غير) كما كنت أتصوّر، وله بطن كبيرة شكلها غريب. كان لا يكفّ عن أكل الموز، يحمله معه إلى كلّ مكان، وقالت ماما: نشكر الله أنّ الزيارة لم تكن في الثمانينات،

حيث كان الموز قد اختفى من البلاد، بسبب سياسة شدّ الأحزمة، ومنع الاستيراد. فيما بعد عرفنا أنّه يعاني نقصاً في البوتاسيوم، وانتبهت إلى أنّ بطنه الغريبة قد اتخذت شكل موزة. قضينا أياماً جميلة برفقته، رحلات سياحية قريبة، وسباحة في النهر، وسهرات، وطعام لذيذ، وأقارب يأتون للسلام على الضيف القادم من بعيد. قدّم "جون" لكلّ منّا أونصة ذهبيّة من فئة العشرة غرامات، وأونصة ماما من فئة الثلاثين غراماً، مستخلصة من ذهب مناجهم. أعطاني دروساً في المضاربة الماليّة، ولم أكن أفهم ما يقول، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن لغة المال، لكنني استطعت تعلّم "البوكر"، وحكيت له عن تاريخ الأندلس، بعد أن قرأته في كتاب للمستشرق "جيب". أخذته في جولات في الأزقة الصغيرة البعيدة، طفت به في بيوت صديقاتي وقد منحه الأهالي دعوات على أطباق محليّة "فرش لحم بالبندورة"، و"حميس"، و"سيابيل". جاءت وقتها أعياد الانتصارات في تشرين، وكانت كلّ من جود وسلمى مشتركتين في مسيرة مشاعل ليليّة، إذ سيطوف طلاب المدارس الثانويّة في الشوارع الرئيسيّة، وهم يحملون شعل الثورة. استعدّ "جون" للمغامرة، حمل الكاميرا وذهبنا. مرّوا من أمامنا مقابل الملعب البلديّ الكبير، وبدأ "جون" بالتقاط الصور، وهو يلوّح لسلمى وجود، كان ملهوفاً كالأطفال الذين وصلوا إلى مدينة الملاهي بعد عود مؤجّلة، وإذا برجل يقبل نحونا، قصير ونحيل، بينطلون رماديّ وقميص أبيض

يحتاجان الكثير من الكيِّ ليصبحا معقولين، بيده دفتر صغير وقلم،
وعلى خصره مسدّس. طلب أن نعطيه الكاميرا. فوجئ جون،
واحمرّ وجهه مبكّراً. قلت للرجل: كلّمني أنا فهو أمير كيّ. فتش
عينيه على اتساعهما، وبدا كأنه قبض على حقيقة الوجود:

- أمير كيّ أيضاً؟

- نعم أمير كيّ.

أراد أن يسحب الكاميرا المعلقة بعنقه بالقوّة، فأمسكت
بيده، علا صوته، وبدأ جون يرتعش، وانتفخت بطنه أكثر،
وأذناه صارتا كأذنيّ فيل. صار يصيح بي:

Call Suhail, Call Suhail...

وكان صياحه يضغط على أعصابي التي تكاد تنهار أصلاً.
طلبت إليه صارخة في وجهه أن يصمت تماماً، فصمت. كان
جون قد أخرّ زيارته إلينا أصلاً بسبب دعاوى الإرهاب، الذي
تجسّد له الآن على هيئة عنصر أمن ضئيل.

قلت للشاب الذي في منتصف العشرينيّات: لن أعطيك
الكاميرا، لأنّ فيها صوراً شخصيّة، ثمّ إنني أصوّر في مكان
مفتوح، يرتاده الناس جميعاً، في مناسبة عزيزة على قلبنا، إنّه يوم
النصر، وعليّنا أن نري العالم كيف نحتفل بانتصاراتنا. ألا ترى
كاميرات التلفزيون كيف تنقل الحدث! بدأ يهدأ قليلاً، لكنّه أصرّ
على سحب الكاميرا. عندها أنا التي فقدت أعصابي، نعتّه
بالغيّ، وقلت له إنني منذ عشرين يوماً أحاول أن أواجه صديقي

بالصورة المشرقة لهذه البلاد، جئت أنت بدقيقة واحدة، لتحرق الصورة الجميلة. لم يبد أنه اهتمّ لكلامي، تجمعهم الناس حولنا، ووصلنا إلى صيغة تسوية، تفيد بأن يترك لنا الكاميرا، ويأخذ بطاقتي الشخصية، فأمرّ بمقرّ الأمن لآخذها من هناك، ثمّ يعني تحقيقاً. كنت وقتها أستعدّ لدخول الثانوية العامة. جون كان يهرول قلبي في طريق البيت الذي لا يعرفه أصلاً، كان يصيح:

Thank you tiger, tiger...

ألفى "جون" بابا عند الباب، فعانقه بحرارة، وكأنّه عاد سالماً من حرب. حكى له ما حصل، وذهبنا بابا وأنا، لنستعيد بطاقتي. في مركز الأمن، قابلت الضابط المسؤول، حكيت له التفاصيل، فأشار إلى أنّ تقرير رجل الأمن يقول إنّني سليطة اللسان. بعد ساعة عدنا إلى البيت، ومعى بطاقتي الشخصية، وقضينا المساء نأكل الكباب، ونلعب البوكر، بابا وجون يرفعان كؤوس البيرة المكسيكية، وينشدان:

When Johnny comes marching home again

Hurrah! Hurrah!

We'll give him a hearty welcome then

Hurrah! Hurrah!

(حين يعود جون للبيت ماشياً مشيته العسكرية، مرحى!

مرحى!

سنستقبله بمحبّة غامرة، مرحى، مرحى!).

منذ تلك الواقعة صار "جون" يناديني تايفر، (ثمرة)، وحينما عاد إلى بلاده، أرسل لي صوراً عن صكوك استثمار في البورصة بقيمة ثلاثة آلاف دولار، اكتبها جون باسمي تعبيراً عن امتنانه لأنني أنقذت حياته كما قال، وكان يستثمرها من أجلني في قطاع التكنولوجيا، التي صارت المضاربات فيها مجنونة منذ ذلك الوقت.

* * *

مع الخزعة الثانية، التي ستكون الأكثر مرارة، بدأت أكتشف المفردات من جديد: البؤس، والموت، والعافية، والحزن، والضيق، والألم، والصحة، والجسد، والحقيقة، والعذاب... ذلك كله يتخذ معناه الحقيقي مع خزعة نخاع العظم، إبرة تفرز في الغمّازتين أسفل الظهر، وتسحب منها الروح على شكل سائل. كان ذلك يوم أحد في الساعة الثانية عشرة، وأصرّ ناصر على أن يكون معي رغم ارتباطه باجتماع مهمّ جدّاً. كان يدوّن المواعيد بجدّ طالب قرّر النجاح بتفوّق، أعطاهم هواتفه كمرجع، وأعلن أنّه خطيبي، والوحيد الموجود من أقربائي هنا، كان يرتّب كلّ شيء. أمسك حقيبة يدي، ووقف في الممرّ في حين دخلت إلى غرفة صغيرة أو عيادة، وبدأ طبيب الخزعات يحكي لي تفاصيل ما سيقترفه في جسدي، طلبت منه أن يتوقّف، لا أريد أن أمرّ بالتجربة مرّتين، وهؤلاء الأطباء بعيدون عن عالم اللّغة والطقوس،

ولا يدركون أنّ التجربة المحكيّة أقسى من الإجرائيّة. ورغم ذلك لم يكفّ عن الثرثرة، وراح يسألني عن الثقافة والأنثروبولوجيا، وأنا كنت قد نسيت كلّ ما تعلّمته في حياتي من جرّاء الألم. حين يسألني الناس هنا عن عمري، وعن عملي أو درجتي العلميّة، يتضاعف التعبير لديهم عن الأسى، ويشعرونني بفداحة ما ارتكبته الحياة بحقيّ.

عندما تمكّن النوم منّي أخيراً، كان الوقت قد حان للذهاب من أجل إجراء الصورة النوويّة، إنّها المعبر إلى الحقيقة. قضيت ليلة تنضمّ بجدارة إلى تاريخ العذابات في حياتي. قمت مرّات عدّة من الفراش، دخلت الغرفة المنفردة التي خصّصناها لناصر، كان يغطّ في النوم، شعرت بأسى طافح، وحسدته على الراحة البادية على ملامحه، نفسه منتظم، وبشرته متورّدة. لم أوقظه، إنّّه في عالم آخر، عالم مجاور لن يتقاطع مع عالمي، مهما اقترب أو فعل من أجلي. كان عليه ألاّ ينام بمثل هذا العمق! هل جاء لينام أم ليكون معي في هذه الليلة العصيبة التي سينبؤنا صباحها عن حدود الورم ومدى انتشاره في أماكن أخرى من جسمي. لن أصرخ، وأوقظه، لن أفعل قطعاً، لن أثقل عليه أكثر ممّا أفعل، لا أريد أن يكرهني، ولا أن يتركني، أنا بأمسّ الحاجة إليه.

خرجنا في الثامنة، وكان صباحاً مثقلاً بغيوم آذار الداكنة والواطئة. لم أقدم اعتذاراتي لناصر، كما أفعل في كلّ مشوار يصطحبني فيه. هذه المرّة كان لديّ شعور مناهض للامتنان،

شعور بواجب البشر تجاه الإنسانية التي تحتم على كل من يعرف شخصاً سيذهب لإجراء صورة نووية أن يكون معه، ويشدّ من أزره، وعليه أن يفكر أيضاً في أن اللافتة المريعة التي يمرّ بها الناس في المستشفيات، والتي كتب عليها: "الطبّ النووي"، والتي يتحاشى الجميع النظر في الاتجاه الذي تشير إليه، طالبين من الله النجاة، قد تكون يوماً إشارة إلى المكان الذي سيقصدونه تحديداً. مكان رهيب حقاً، يلج بابهُ المرضى بلا مرافقين، لذا راح ناصر، وصرت مثل ولد تركه أبواه في أوّل يوم من المدرسة ليواجه رائحة الغرباء. الموظفة التي تحمل وحدها معالم حياة محتملة، طلبت إليّ الانتظار قليلاً ريثما تبحث عن اسمي في لائحة المواعيد، ولا أعرف كيف لها أن تفعل ذلك! فمن يأتي إلى هنا بلا موعد محتمّ، وكيف لها أن تكلمني أصلاً وأنا منقسمة على ذاتي أرباعاً، أيّ قسم يكلمها، وأيّ قسم سينتظر، وآيها سيدخل أو يخرج...

نظرت خلفي إلى الباب الزجاجي، فوجدت ناصر قد أمسك بمجلة، وانغمس في القراءة، شتمته في سرّي، ثمّ تراجعت. قالت الموظفة إنّ المادة النووية وصلت للتوّ من سورية! لا أملك طاقة للشعور بالفخر، أو للتفكير بأنّ المادّة التي ستشفييني هي التي تقتل مواطني، وهي ذاتها حصان طروادة الذي تركبه الأمم لتدمير بلادنا....

وجدت نفسي في صالة محاطة بحجرات أربع، حجرة حقن، واثنان للانتظار، وأخرى للتصوير، وحمام. لا أحد حولي، المكان

خال والأبواب مغلقة. جاء أحد الفنيّين، وأخذني بلطف إلى ممرٍ صغير فيه كرسيّ وحيد، قال إنّه سيختبر السكر في الدم، وخزني في إصبعي وخزة خاطفة، ونظر في وجهي، فلم يجد أيّ تعبير عن الألم، فشعر بزهو لمهارته، لكنني لم أقل له إنّه آلمني كثيراً، كنت أذكر التعبير عن أوجاعي لوعود ألم مستحقّة تنتظر. مرّت عشر دقائق أخرى تمّ بعدها حقني بالمادّة النوويّة المختفية داخل إبرة معتمة. أدخلت بعدها إلى مكان أشبه بمفرّدات التعذيب في سجون سنالين، فيه بشر يودّعون الحياة غالباً. الممرضة التي أدخلتني طلبت إليّ ألاّ أتكلّم مع أيّ أحد، أو أتحرّك، كي تستطيع المادّة النوويّة أن تسري في جسدي ولا تتجمّع في مكان واحد، وأن أشرب زجاجة الماء التي طُلب إليّ أن آتي بها.

كانت الحجرة التي في داخل الحجرة، التي في داخل أخرى، ضيقة مثل قبر، ومصمتة بلا نوافذ، ومن يدخلها يسقط من حساباته احتمال عودته إلى العالم، فيها سريران وكرسيّان. تمّددت امرأة ستيّنة على السرير الأوّل، تتأوّه بعذاب لا قبل لمخلوق به، عذاب أمرّ بدرجات من عذابي، هيئتها في أعلى درجات الرثاءة من الفقر والمرض، وعلى أحد الكرسيّين رجل أربعينيّ سعوديّ، عليه جلابيّة بيضاء حريريّة، حاسر الرأس. رنّ هاتفه، فردّ مرتعداً، ومتجاهلاً التعليمات، بدا لي أنّ المرض نال شيئاً من جهازه النطقيّ، فضلاً عن الفرع الذي تمكّن من حيّاه الكئيب. على السرير الثاني امرأة في مثل سنّي، متماسكة أكثر

منّا جميعاً، ترتدي عباءة سوداء وتضع غطاء رأس أسود، وأظافرها مصبوعة بمناكير حمراء، إنها إشارة إلى الشفاء، أو التجاهل، أو التكيف! قالت إنها تعاني من الهودجكن، وإنها تلقت علاجاً خاطئاً في مكان آخر، لذا فهي تأخذ الكيماوي للمرة الثانية، وقد سقط شعرها للمرة الثانية. لها طفلان مع أبيهما في الإمارات:

أحمدي الله أن ليس لديك أولاد، الأولاد يكسرون الظهر! مدّت إليّ زجاجة ماء، وألحّت وهي تقول: ماء زمزم. قلت لها: لا أريد. كنت مشغولة بترتيب موتنا، من سيموت أولاً بيننا نحن الأربعة، المرأة الستينية، فالرجل السعودي، فمريضة الهودجكن، ثم أنا.

تبوّلتُ، كما هو مطلوب، ودخلت إلى التصوير، وكنت أريد أن تنتهي هذه التراجيديا بسرعة، حتّى لو عجّلت موتي، أن أخرج من هذا المكان، ولا ألتقي بناسه مجدداً.

كانت الصورة أسهل من التحضيرات لها، وستكرّر مرّات ثلاث أخرى، خلال فترة العلاج التي ستبلغ سنة. خرجت مثل من يهرب من جبل المشنقة، ناصر كان في وجهي، يحمل معطفي، ويقف عند الباب، فامتألت بالامتنان من جديد، ودفنت وجهي في صدره أشمّ بصعوبة رائحة الحياة.

* * *

استلقيت على سرير الفحص. كان الطبيب متوتراً، وكنت مستسلمة تماماً، وهذا الاستسلام منحني شعوراً غير متوقّع من السلام والقوّة، فالقلق يسكننا حينما نحصر على ألاّ نشعر بالفرع، في حين أنّي وصلت إلى النهاية القصوى، فماذا سيقول لي الطبيب:

- عندك سرطان.

أعرف.

- ستموتين.

أعرف.

لقد فكّرت خلال الأيام الفائتة في ذلك كلّه، ورثبت ما تبقى من حياتي مع الاحتمالات الأسوأ.

بدأ الطبيب يمرّر يديه المحشوّتين في كفّين بلاستيكيّين على جسدي شبه العاري، والمغطّي بثوب الفحص الأزرق، المصنوع من ورق يشبه ورق ترشيح السوائل. تلمّس رقبيّ، وفجأة توقّف، وصرخ بمساعدته:

- ألف مرّة قلت، الفحص بلا حمالة صدر.

استغربت عصبيّته غير المبرّرة، فنهضت كما ينهض ميّت، خلعت حمالة الصدر خلال ثانية، ورميت بها إلى المساعدة، وعدت إلى الاستلقاء، فهدأ، وتابع تفحص جلدي المقرّح. حمّنت أنّه يفكر في إمكانيّة انتفاخ الغدد الأخرى في بطني وفخذيّ. سألني بصوت واهن إذا كنت أتعرق ليلاً أو ترتفع حرارتيّ، فنفيت. واعتذر على أنّه يضطّرني للاستلقاء، وهو يعلم أنّه يضايقي، فأسعل بشكل متكرّر.

لم أتمكن من أن ألتقط من تعابيرهِ آية إشارة لأقوم بتأويلها سلباً أو إيجاباً. جلس وراء طاولته الصغيرة، وجلست أمامه بعد أن ارتديت ملابسِي. لم ينظر في وجهي، بل كان ينظر بقلق وتشتت إلى شاشة كومبيوتر مطفاة أمامه، وكنت ألاحق بإصرار ذلك الشتات، وأدركت كم يخاف الأطباء من نظرة المرضى التي تحاول افتراس الأمل من تقاسيمهم.

الدكتور يعقوب كان وجهه شمعيّاً وأصمّ حينما كان يشرح لي طبيعة مرضي. توقّف بعد جمل قليلة وسألني إن كان معي أحد. قلت له: صديقي. فرفض أن يدخله، ثمّ عاد وغيّر رأيه بعد أن قلت إنّني لا أخرج منه، واحتاج أن يكون معي.

تابع حكيه عن الـ (Large B- Cells Lymphoma)، والذي يصيب النساء عادة بين ثلاثينّاتهم وأربعينّاتهم، والذي ما تزال أسبابه غير واضحة تماماً، تشابك في إنتاجها عوامل كثيرة، لكنّه ليس وراثيّاً، ولا بسبب فيروس ما.

شرح خطة العلاج أيضاً، وتولّى ناصر عني طرح الأسئلة، سأله كثيراً، وكنت أتابع حوارهما بحياديّة، وكأنّ الأمر لا يخصّني، مطمئنة إلى أنّ ناصر سيحفظ عني كلّ شيء، ويعيده عليّ مسامعي، كلّما احتجت إلى ذلك.

قبل هذا اللقاء، كنت قد قبلت بيني وبين ذاتي بأقلّ النتائج فلاحاً، وبأكثرها آنيّة، أردت فقط أن أتخلص من تلك القضبان التي تكبل أنفاسي، أريد أن أشمّ الهواء، أن أتحرك وأتكلم من غير

جهد، كما يفعل كلّ البشر الذين خلقهم الله، لكن في نهاية
الجلسة، تعاضم طموحي، وتجرأت على أن أسأل الطبيب سؤالاً
واحداً فحسب: هل سأشفى تماماً؟

أجاب قاطعاً: نعم. واستدرك: إذا التزمت بالعلاج.

هذه العبارة جعلت قلب ناصر يخفق من الفرح، فشدّ على
يديّ، وقد حفظها مثلما يحفظ اسمه، وخرج بناء على رغبة
الطبيب الذي قال لي: لا أورام أخرى، فأعادني خطوة عريضة
نحو الحياة، سألته إن كان الورم قد وصل نخاع العظم، فأجابني
إجابة باردة، لكنّها مطمئنة، قال: لا يهم، لا تتدخلّي أنت بهذه
التفاصيل، وعيناه معلّقتان بالنافذة، ووراءها ملحقات تُبنى لتوسعة
المستشفى، وهو يعرب لي عن تدمّره منها:

هذا كلّه لا معنى له، ثمّ الدواء أفضل!

أنا لم يكن يهمّني سوى أن أعرف نتائج فحوصاتي، بعيداً
عن هستيريّته التي تتحوّل في لحظة إلى هدوء تأمليّ، بعدها يمسح
بكفّه المتخفّية بالقفاز على رأسه الأصلع، ويسألني أن أسأله عن
أيّ شيء في بالي، وكنت مشغولة بآلامي وأوصابي عن أيّ
حوار معه، ويتسرّب إليّ شعور أنّنا سنتكلّم طويلاً فيما بعد،
وقت الشفاء، الذي أجّلت إليه ملفّاتي كلّها، وكذلك حساباتي
مع الحياة:

خزعة نخاع العظم سليمة، والجرعة الأولى يوم الثلاثاء،

!Good Luck

هكذا خرج الطبيب من الحجرة الضيقة، ذات الجدران الزرقاء الباهتة، بلا كثير من التبعات التي أعفاه منها هدوئي الاستثنائي كما أعتقد.

حدّد لي أوّل جرعة "كيمو" بعد أربعة أيام، ودخلت مساعدته لإتمام الإجراءات، والتعليمات التي تتعلّق بالطعام والشراب ووصف الدواء:

- هل هذا الدواء يسقط الشعر.

- مم... آآ هذا الدواء يسقط الشعر، لكنّه سينمو ثانية. أمسكتُ بخصلي السوداء بحركة عفوية، وفكرت: هل لديّ وقت لأرى شعري ثانية! ثمّ أفلتتها، كمن يزهد بأشياء لا تخصّه.

* * *

عدتُ للاستلقاء في سريري الذي لاحظت أنّه اكتسى شرافف نظيفة. لقد استخدم ناصر صبيّة عشرينيّة، سريلانكيّة، لتعتني بي ريثما أتحمّن وأعود قادرة كما كنت وأفضل، على حدّ قوله، ولم يكن في مقدوري، طبعاً، سوى أن أقول شكراً. قررت الآن أن أتفاهم مع ورمي، ما دمت قد عرفت أنّه سيحترق بالكيماويّ، ولو جزئياً، وبدأت بطلب النوم. للنافذة التي إلى يسار سريري مصطبة عريضة نحو الخارج، وقضبان حماية حديدية، ما أن التفتّ إليها بجسدي لأبحث عن وضعيّة مناسبة للنوم، حتّى أطلّت حمامة رماديّة مطوّقة، وربضت على المصطبة،

وأجبرتني على الابتسام. انتبهت إلى أنني مازلت قادرة على أن أفعل.

ياااه ما أقدر المرض! لا أخلاق له، ولا رحمة فيه، لم يأبه لشبابي ونضارة جسدي، ولم يلتفت إلى رغبتني العارمة في الحياة والفرح والإنجاز. هاجمتني تجارب الآخرين، ووجدتها كلّها تعد بنهاية تراجيديّة وشيكة: "حسن الوجوه حال يحول"، وقد حال سريعاً. "إنّ هذا الثرى من عيون ساحرات الاحرار"، ستكون عيناى قريباً طعاماً لدود الأرض، ثمّ تراباً يطؤه الأحياء، وتواردت صور سريعة عن حكايات المرضى الميؤوس من شفائهم، والمجذومين عبر التاريخ، الذين يتمّ جمعهم خارج الأماكن المأهولة، ويُحرقون. بعد قليل سيشبه جسدي أجسادهم، ثمّ تأتي حكاية أيّوب عليه السلام، سأصبر إذن، الله بذله جلدأ صحيحأ بجلده المهترئ! لكنّه نبى! أنا ضعيفة يا إلهي، أنا بشر، بشر، لماذا...!

بين الصحو والمنام، تسلّلت إلى أذني عبارات مشوّشة، وكأنّ أحداً يسمع نشرة أخبار من أكثر من راديو واحد: علوّ منخفض وشظايا، الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، وئام وهاب وجنبلاط، إثر صراع مع المرض، طائرات النظام تقصف ريف الرقّة الشماليّ، الخاضعون للعناية التلطيفيّة، ثمّ ينسرب حذاء الجيتارات من عند بيت الجيران:

"وسترجع يوماً يا ولدي، مهزوماً، مكسور الوجدان..."

لماذا عبد الحليم الآن؟! ولماذا أغنية أيامه الأخيرة؟! طبعاً لأنه
كان مثلي، ناحلاً، وداكناً، ومصفراً، ويائساً.

صوت الجيتارات في دماغي لا يتوقف، ولا يصل إلى
القلب، فالورم يسدّ طريق الأشياء الجميلة كلّها.

من بين هذه الصور الثقيلة، تطلّ صورة الدكتور يعقوب.
ذلك الوجه، أنا أعرفه جيّداً، لكنّه يروغ من ذاكرتي مثلما يروغ
زالال البيضة من اليد! ذاكرتي مرهقة، وقد فقدت الاهتمام بها،
مثلما فقدته بالأشياء كلّها...

نمتُ، واستيقظت حوالي الثالثة عصراً، وقد انجلت لي صورة
الدكتور يعقوب، التي ما تغيّر فيها أكثر من قياساتها الفيزيائية!
لقد عرفت ذلك الرجل حينما كان يافعاً منذ حوالي عشرين سنة
مضت، فكيف يمكن للصدفة أن تضعني بين يديه، من غير أن
أعدها إشارة من نجمة الحظّ التي ولدت تحتها، والتي ستحرس
خطاي على هذه الأرض إلى أن أصير محض روح!

* * *

في شمال إيطاليا تقع مدينة جنوا وفي جنوب جنوا تستلقي
بلدة صغيرة باطمئنان على ذراع البحر، اسمها بورتوفينو، لعلّها
أجمل مكان في العالم! تلال تغطّيها الخضرة، تحمل شجر الزيتون
والكروم، وتتناثر على سفوحها قصور يعود بعضها إلى القرنين
السابع عشر والثامن عشر، والتي امتلكها نبلاء أوربة، وقد تحوّلت

حلّها إلى أوتيلات صغيرة، تستقبل السيّاح من مختلف أصقاع الدنيا. تطلّ القصور على خليج فيروزيّ وادع، يحتضن عشرات المراكب الصغيرة الأنيقة، والتي تعود إلى الصيّادين من أهل بورتوفينو، إذ يعدّ الصيد مهنتهم الرئيسة، وتتهادى إلى جانبها يخوت مهيبة لأثرياء أوربة والعرب. وعلى الشاطئ الذهبيّ الذي لا تفصله عن القصور سوى أمتار قليلة، تنتشر أجمل الأجساد الملوّنة والعارية في أناقة استثنائية، لا تتوافر عليها لا شواطئ (كان) ولا (أكوبولكو)، ولا (المالديف). (شاتو دي بوتشيللي) واحد من هذه القصور الساحرة، الذي صار فندقاً من اثني عشرة غرفة، وكان المكان الذي نقضي فيه بضعة أيام كلّ صيف. أوّل ما صافح جسدي الماء كان في بورتوفينو، وأوّل ضربة عرفها قلبي خارجة على الإيقاع كانت هناك في بورتوفينو.

كان بابا قد انتقل بعد الماجستير ليعمل مع واحد من أساتذته في شركة هندسيّة عابرة للجنسيّات، مقرّها مونتريال، تقوم بتنفيذ مشاريع هندسيّة كبرى في العالم، وفي تلك الشركة التقى بالسيد بوتشيللي المدير التنفيذي لشركة فيات للسيّارات، ونشأت بينهما علاقة طيّبة بسبب لعبة "تنس"، فقد كان الاثنان من هواّتها، وكانا يتوجّهان كلّ عصر إلى الملعب القائم في مجمّع سكن الموظفين، ويمتدّ بهما اللّعب بما يجاوز الساعتين، وقبل سفره طلب السيّد بوتشيللي إلى بابا أن يصمّم له ملحفاً لاستراحة المديرين في شركة فيات، والموجودة في بورتوفينو، قريباً من ذلك القصر الذي ورثه

عن أجداده. قضى بابا إجازته التالية في استضافة الرجل، وأنجز العمل، وقد أحبّ المكان كثيراً، ورفض أن يتقاضى أجر التصميم، وبدلاً من ذلك طلب إلى السيّد بوتشيللي أن يمنحه كلّ صيف إقامة مجّانيّة لمُدّة أسبوع مع العائلة في القصر، فوافق الرجل فوراً، وكان ذلك المكسب الأبهج الذي حصلنا عليه في تاريخنا كعائلة، فذكرياتي الأجل كانت على ذلك الشاطئ، أستقلّ قوارب الصيادين، أشوي الحمار وأقشّره كما يفعلون، ألقى بحسدي الصغير في تلك المياه الشهية وأصابني تبعث عن حبال تمدّها الشمس، لتسلّقها نحو الأفق. كان جورجيو ابن مدير الفندق صديقي الأقدم، يكبرني بعامين، وكان يأخذني في نزهات إلى التلال المحيطة حيث تنتشر رائحة طازجة للخوخ والدراق، أركب وراءه على درّاجته، ونُدور في أزقة البلدة الهادئة، نصعد نحو البرج، وندخل هو الكنيسة العتيقة ذا العقود الرومانيّة المهيبة، ونجلس على عتبات بيوتها العابقة برائحة النبيذ المخبوء في الأقبية. في قبو الفندق السحقيق والرطب، والذي يرسم الملح على جدرانهِ الصخرية أشكالاً لأشباح ميّنة، كانت قُبَلتنا الأولى أنا وجورجيو، القبلة التي أصبت جرّاءها بدوار استمرّ إلى اليوم الثاني، مع وجع في البطن وإسهال، والتي أورثتني ما يُسمّى بصداع القبل، والذي مازلت أعاني منه إلى اليوم.

على تيرّاس القصر، يقضي الساهرون ليلهم العذبة تحت سماء بوتوفينو القمرية، تدور الموسيقى، ويقبل الراقصون على

الحلبة، كنت أرقص مع جورجيو وأغتاظ حين يراقص غيري من الفتيات المرافقات لعائلاتهم، وبابا يراقص ماما على إيقاع الموسيقى البروفنسالية، والفالس الثاني لـ (شستاكوفيتش).....

في الساعة العاشرة من مساء كل سبت، تعطي داليدا المنصة، وتحمل العالم كله على صهوة حنجرها الجاحمة، كانت تفتتح كل سهرة بأغنياتها الأجل، والتي ظلت ترافق مساءاتي لأعوام عديدة:

(I found my love in Portophino...)، عثرت على حبي في بورتوفينو....، وبها تسرق قلوب الساهرين الذين جاؤوا من كل مكان إلى هذه البلدة الساحرة، سعيًا وراء هجة هذا الجزء الروماني العتيق من المتوسط، تكون خلال ساعتين أو ثلاث، قد غنت بالإسبانية، والإنكليزية والفرنسية والعريية، وأرسلت سلامات للحضور بعبارات مصرية أصيلة: سلام يا معلّم، بوسة يا قمر... يهشّ لها العرب الحاضرون جميعاً، لتختتم السهرة بأغنياتها العبرية المعتادة: "هافا ناجيلا" التي ما أن تعزف الفرقة مطلعها حتّى ينقلب مزاج بابا، فينهض بسرعة وهو يقول: نزعنا لنا السهرة، وننهض معه لنغادر إلى غرفتنا، ويقوم معنا بعض من العرب الذين قد نصادفهم في سهراتنا، في حين يكون الباقون قد أصيبوا بحمّى الرقص والسرور، فيردف بابا: طبعاً، أبوها سجنه إنكليز مصر لأنّه من جماعة الدوتشي، وعبد الناصر طرد ملّتها من الأرض التي لم يعرفوا غيرها وطناً! جورجيو كان يتعاطف معنا، فيخرج بعد أن شرحت له بما أسعفني من فرنسية

كُنَّا نتفاهم بها، قضية العرب وإسرائيل، وما ترمز إليه هذه الأغنية بالذات من قصديّة لاحتفال الاسرائيليين باحتلال فلسطين. لم أكن أعرف من الإيطالية سوى بضع كلمات تعلّمتها بحكم تكرار سفرنا إلى روما وبورتوفينو، وعبارات شائعة كان عمّي فيصل قد علّمني إيّاها، قال لي: حينما تتعرّفين إلى شاب إيطاليّ لن تحتاجي سوى إلى قول عبارة أو اثنتين:

Ti amo tanto/Ti voglio bene assai

أحبّك حبّاً جمّاً!

صادفت داليدا مرّات عديدة في بهو الفندق، ورأيتها عصر أحد الأيام على الشاطئ، كانت بلباس البحر، ترتدي مايوه بيكيني أخضر اللّون، وتعقص شعرها الأصفر الكثيف نحو الأعلى، وفي يديها أساور ذهبية اللّون وعريضة. تستلقي على بطنها على الرمل، بلا مقعد أو مظلة، وتغمض عينيها المكحلتين بكحل أسود عريض، وتبدو كأنّها نائمة. كنت أظلّ وقتاً طويلاً أتأملّها، أحببتها منذ ذلك الحين، في منتهى الجمال، هادئة وبسيطة، وأموميّة جدّاً، ولها جسد مبهر، قويّ ومشدود، وبشرتها ذهبية، وأنا مازلت أحبّها وأشعر أنّها تخصّني، وأنّها جزء من عالمي. وحين سمعت خبر انتحارها في السنة التالية، بكيت كثيراً وبجرفة! وقتها قالت لي ابنة خالتي إنّني أبكي على فاسقة، وإنّ الله سيحشرني معها في جهنّم، وكان الأولى بي أن أبكي على موت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد، الذي لم يأبه أحد

لموته. لكنني كنت أحبّ عبد الباسط عبد الصمد، أفتح التلفزيون مبكراً عند بدء الإرسال في الثالثة عصراً لأسمعه وهو يتلو "والضحى والليل إذا سجى"، وكنت أبكي عندما يقول "فأمّا اليتيم فلا تقهر"، لكنّ ابنة خالتي لا تعلم شيئاً عن محبّتي له. كانت داليدا رغم قوّتها البادية، وعالمها الواسع الذي صنّعته بلغات تسع، في منتهى الرقة، فيها هشاشة محبّبة، وقد أحبّت كما تحبّ امرأة مصريّة حقيقيّة، وانتهت مثل كليوباترا، بمنتهى التراجيديّة والشجاعة.

كنّا نستلقي أنا وجورجيو مواجهين الأفق، على دكة خشبيّة في ظهر مركب راسٍ عند الميناء الصغير، نستمع إلى إذاعة محليّة تحمل اسم "نوستالجيا"، وتطلق أغنيات فرنسيّة قديمة لإديت بياف، وشارل أزنافور، وجاك بريل، وكنت أقول لجورجيو: إنّ في الفرنسيّة معانيّ ساحرة ليس مثلها في أيّة لغة، إنّ الفرنسيّة أجمل اللّغات! وكان يقول بهدوء فيلسوف، وقد أغمض عينيه، ووضع في استلقائه ساقه اليمنى على ركبته اليسرى: هذا لأنك لا تعرفين الإيطالية، كم أتمنّى لو تفهمين لغتي! نحن الإيطاليّين نتكلّم من هنا، ويمسك يميناي ويضعها على كبده، ويكرّر ضاغطاً إيّاها على خاصرته:

(d'ici / da qui, da qui) من هنا، من هنا... وكان ذلك

درس البلاغة الأوّل في حياتي!

كنت أستمع لحديث رجل وامرأة، ستيّين غالباً، يستلقيان على مقعدين ويواجهان البحر، وفوقهما مظلة من قماش أشبه ما

يكون بألياف الشجر المتداخلة، بحيث تبدو السماء من خلال تصميم المظلة على شكل معيّات زرقاء بين النسيج البنيّ. كانت المرأة الشقراء التي ترتدي لباس بحر أسود بنقشات هندسيّة بيضاء، ذات جلد محروق بالشمس، منمّش ومترهلّ، وكانت تقول له: انظر ما أجمل امتداد السماء! فكان ينظر في المعيّات المحدّدة فوقه ويقول: إنّ النهائيّ أجمل من اللاّ نهائيّ، إنّ أكثر ألفة.

* * *

غبنا بضعة أصياف عن بورتوفينو، وحينما عدنا كنت في نهاية المرحلة الإعداديّة، وسلمى وجود كانتا في الابتدائيّة، وكان جورجيو شابّاً ساحراً مفتول العضلات، ملوّحاً بلون الشمس، شعره أسود لامع، وبشورت أبيض، عاري الصدر دائماً، وتدلّي من رقبته سلسلة ذهبيّة غليظة تحمل صليباً كبيراً، لم أر أجمل منه إلى اليوم. كان من الصعب ترميم ذكرياتنا، إذ لم يعد بابا كما كان سابقاً، يسمح لنا بالخروج مع جورجيو. كنت أتجولّ مع أختيّ على الشاطئ، نسبح، ونقرأ، ونستمع إلى الموسيقى. بقيت بيوت بورتوفينو كما هي، وكذلك مراكب الصيادين، وأجراس الكنيسة العتيقة. وجورجيو كان دائماً مع الحسانوات، يتجولّ معهنّ في الأزقة، ويرافقهنّ في سهرات المساء، حيث مغنّون هواة يعتلون المنصّة، يغنّون أغاني موسيقى الروك والبوب الدارجة بين الشباب، ويغنّون هافا ناجيلاً أيضاً، فننسحب نحن، ويبقى

جورجيو يراقص حسناواته. في ذلك الصيف لمحت الدكتور يعقوب، كان نزيلاً في شاتو دي بوتشيللي، ترافقه سيّدة جميلة، تبدو أمّاً صغيرة، كانا معاً، لكنّ كلّاً منهما وحده، يتابع الراقصين من قوقعته. صادفتهما يتجولان أيضاً في سوق البلدة، يجلسان على الشاطئ، ولا يبدو أنّهما يستمتعان بوقتتهما. في ساحة البلدة بجانب البلدية، يقوم محل جيلاتي شهير، اسمه Paix، يتردّد السيّاح إليه، وكان يعقوب الذي في العشرين ربّما، يشتري كلّ عصر كوز آيس كريم ملوّناً، ويجلس على مصطبة في الجانب المقابل، يلتهم كوزه مثل طفل منهوم. جسده ضئيل، وشعره الأسود طويل وأشعث، يغطّي رقبته، وله شورت كحليّ وقميص قطنيّ أبيض يلتصق بجذعه، ليبيدي عظام قفصه الصدريّ، وكان يرتدي صندلاً بجوارب قطنيّة رياضيّة وسميكة، وكنا نستغرب ارتدائه الجوارب مع صندل مفتوح! وقت طويل عدّي، واختلف مظهره، لكنّ ثمة وجوهاً تفرض ملاحظها على الذاكرة مهما كان الظرف والتاريخ، ووجه يعقوب منها. حوّم طفل صغير مع والديه حول يعقوب، حول كوز الآيس كريم، والداه ينظران بإعجاب إلى حركاته المحبّية الودود، ولا يزجرانه، فهما مثل أيّ والدين يظنّان أن على العالم كلّهُ أن يستقبل حركات طفلهما بفرح. كان الطفل قد التصق بيعقوب، الذي بدا أنّه لا يريد أحداً، يزجره فلا ينتهي، يتعد عنه، فيدنو أكثر، فما كان من يعقوب الذي تأكّد من انشغال الأبوين بالكلام إلّا أن تناول يد

الطفل وعضّتها بشراسة، قالت جود: يا مامي، إنّه يعضّ! وملاً صراخ الطفل ذي السنتين الساحة، وجاوزها إلى الشاطئ القريب...

وقتها سألت سلمى ماما:

- هل يجوز أن نرتدي جوارب مع الصندل؟

- أجابت ماما بطريقتها الحاسمة:

- لا.

- لكننا رأينا ولداً يلبس جوارب مع الصندل!

- ربّما يعاني من بعض الفطريّات في قدميه.

في مساء اليوم التالي كان الشاب الذي يبدو لضالّة جسده ولداً يافعاً، وحيداً على الشاطئ، يجلس على صخرة مرتفعة، يضع رأسه بين يديه ويكي. اقتربت منه، أعرف أنّه عربيّ، حاولت أن أكلمه:

- ما بك؟ متعب!

رفع رأسه مثل سيزيف، وحدّق في وجهي، في عينيّ، وكنت عاجزة عن توقّع ردّ فعله، ثمّ قال لي: امضي... فمضيت. لكنني عدت، وقد حملت معي كوزي جيلاتي، واحداً له، وواحداً لي. تلك كانت طريقيّ في التعامل مع الحزينين، وكان بابا يؤثّبي بشدّة على تعاطفي معهم، ويردّد: لستِ مصلحة اجتماعيّة، وكنت أرى في ذلك تعويضاً عن تاريخ عائليّ الإقطاعيّة التي يفترض أن تكون، كما يظهر في الأفلام، قاسية وظالمة.

التهمنا معاً الجيلاقي على الشاطئ، ظلّ جالساً، وأنا واقفة،
أرفع رجلي على الصخرة التي يجلس عليها، فخورة بمبادرتي مثل
محسن مجهول قدم تبرعاً سخياً لدار أيتام، وتواطأنا على صداقة
صامتة، يكتفي فيها كلٌّ منا بالنظر إلى الآخر، ثمّ التشاغل بأكل
الحلوى. بحثت عنه في الأيام التالية، فلم أجده.

حين أخبرت سلمى بالهاتف أنّ الدكتور يعقوب، الذي
سيعالجني هو ذاته فتى الجيلاقي، الذي عضّ الولد، وارتدى
الصندل مع جوارب، لم تصدّق، ظنّت أنّي أهذي من وطأة
الصدمة والمرض، وحينما أكدت لها ذلك شعرتُ بقلقها، قالت:
إنّهُ مجنون، ثمّ عاودت: إنّ هؤلاء المجانين، وغريبي الأطوار هم
الأفضل لعلاج الأمراض الصعبة.

* * *

جاء اليوم الموعد، يوم جرعة الكيماوي الأولى، التي أدخل
منها عتبة عالم جديد صرت أرغب به بشدّة، لأنّه سيكون عالمي
الحقيقيّ المفصّل على مقاس طاقتي، التي وجدها الله هائلة لتحتمل
امتحاناً، لن أكون بعده كما كنت قبله. ستحترق كتلي منذ
اليوم شيئاً فشيئاً، فتتيح مكاناً أرحب لأنفاس اشتقت لأن تعبر
خلايا صدري، لن يعرف أحد على وجه الأرض معنى عبارة
"يمحّصي أنفاسه"، التي تقال كثيراً بادعاء فارغ، سوى نحن، أنا
والمصابون مثلي: نفّس ينجح في الوصول إلى القلب، ونفّس

يفشل، فيحبطني، هكذا قضيت ما يزيد على السنة، ما يزيد على ثلاثئة وستين يوماً، أعدّ الأنفاس، التي لا يفكر أحد بها، ولا يحمد الله على مرورها في جسده بمنتهى السلاسة. كان مواعيدي في الثامنة والنصف، نام ناصر عندي تلك الليلة من غير أن أطلب إليه أن يفعل. ارتديت ملابسني، كان بنطلوني الجينز قد وسع كثيراً، مقاسين ربّما، ومع ذلك لبسته وأمسكت به عظمتا خصري النائتتين، وفوقه في شيرت أزرق داكن، وأصرّ ناصر على أن آخذ جاكيت مع أننا كنّا في أوّل آيار، كما أصرّ على أن نتناول شطيرة جبن وكوباً من الشاي، إنّه يستطيع التفكير بالطعام بينما أموت! تناولت لقمتين ومضيئا.

المادّة الحمراء وصلت بعد أن حقنتُ بمحاليل عدّة مضادّة للحساسية ومغذّيات، جاءت في ثلاثّة هبّطت من فوق، مثل مصعد صغير، واستقبلها الجميع بجلال. سألوني عن اسمي حوالي ستّ مرّات، ليتأكّدوا من أنّهم يعطون الدواء للشخص الصحيح. كان الناس من حولي يجلسون في كراسٍ خاصّة، بمرافقين وبلا مرافقين، وبعضهم في حجرات على أسرة، هناك عرب وأجانب أيضاً، ورجل أدخل طعاماً كثيراً إلى زوجته المريضة وأمّها، وكأّتهم في نزهة. نمت قليلاً في كرسي، وناصر كان يتابع الأخبار على شاشة أمامنا. أيقظني هاتف جود، كانت تطمئنّ، قالت لي إنّهم جميعاً بخير! من قال لها إنّني أسأل أصلاً أو يهمني أن يكون أحد في العالم بخير، فأنا لست بخير. مرّة أشعر بالحرارة،

ومرّة بالبرودة، يغطيني ناصر، فأهمهم بالاعتذار، ويقول لي:
اعتبريني ممرّضاً مأجوراً، أعود لأغفو، وأصحو حينما يأتي الفنيّ
لتبديل المحلول، أجد ناصر نائماً، ممسكاً بيدي الحرّة من الإبرة،
وعلى وجهه الكتاب الذي شرع بقراءته: "جغرافيا الشتات"،
ثمّنت لو كنت بصحّتي، لقراءته في مساء واحد! تسلّل إلى سمعي
صوت رجل يقول لآخر إنّ الدكتور يعقوب هو الأفضل على
الإطلاق، والجميع يشفى عنده، فاعتراني الأمل من جديد،
وتابعت غفوتي، لبقيّة الساعات الخمس.

تستلقي على الكرسيّ الذي يشبه كراسي أطباء الأسنان،
سيّدة اسمها رانية، تبدو في الثلاثين أيضاً، مرهقة، ورغم ذلك حلوة،
طويلة، وممتلئة، وبنطلون الجينز الأزرق يمسك بجسدها بقوة، وفوقه
سترة رياضيّة رماديّة اللون، على ظهرها صورة ميكّي ماوس،
وشعرها الأسود موجود على رأسها، ربّما نوع الكيماوي الذي
تأخذه لا يسقط الشعر! إذن مرضها قد يكون في القولون مثلاً،
وبدا أنّها ليست جلستها الأولى، فطاقم التمريض كلّهم يعرف رانية
هنا. كان الفنيّ قد انحنى يمسك يديها برقة وعذوبة ليركبّ لها الإبرة
التي ستمرّر الدواء إلى الجسم، في تلك اللحظة دخل زوجها بنوبة
غضب، وقال لها بصوت أقلق محاولتنا للتمسّك بالحياة في هذه
الغرفة: تحيّينه! تحيّينه! ها! تأتين إلى هنا لتعشقي...

صرخت رانية، وضحكت، وشتمت، وبكت وهي تصيح:
أخرجوه، لا أريد أن أراه، بمنون، حيوان....

أخرجوه وسط دھولنا، وبقيت رائية وحدها، غارقة في
كآبة، لا تنظر إلى أحد، ولا تبالي بشيء، عيناها معلقتان على
شاشة تبثّ برنامجاً وثائقياً عن الدبّ القطبيّ، عاد الفنيّ الشاب ذو
الliche السوداء المشدّبة والعينين السوداوين والشعر المخفّف
بحلاقة متقنة، غير لها كيس المحلول المعلق، لم يتكلّم، طبّط على
يدها الصفراء الطليقة من الإبرة، لم يرفّ لها جفن، اختلس قبلة
من باطن كفّها، فلم تبالِ بشيء، أشعر بها تماماً، وهي تسافر في
فضاء آخر، لا علاقة لها بهذا الكون، الكيماوي أقسى من أيّ
شيء، ولا طاقة لبشر على احتماله، يقتل القلب قبل أن يقتل
خلايا الجسد.

عدت إلى البيت مرهقة، أنتظر أن يصغر ورمي، فأشعر بالهواء
في قصباتي، وبين عروقي، وبين خلاياي، لكن هذا لن يحدث
اليوم. شربت ماء كثيراً كما طلبوا إليّ، وتبولّت سائلاً أحمر،
وتناولت حبوب الكورتيزون، وحده الزمن سيستطيع محو طعم
مرارها. لم أتداع كما قيل لي، لدرجة أنني جلست على الأريكة
في الصالون، وضع ناصر تحت قدميّ وسادة، ورحت أقرأ في
كتاب عن مونيّه، وغوغان، وفان غوخ. أطعمتني "تامي" الخادمة
قليلاً من الدجاج والأرز، وشعرت بناصر متفائلاً، وقال إنّ بعض
الأجساد تتصالح مع الكيماويّ، وتمنعها قوّتها من الانهيار.

نمت بعدها، وصحوت مساء مشمّزة، وأريد أن أفرغ ما
في معدتي، وبدأ مكان الورم يخزني، تصوّرت أنّ السائل الأحمر

قد بدأ يكوي الورم، كنت أحاكي حركته وهو يتصارع مع خلاياي الزائدة الخبيثة، وشعرت بها تحترق، وبدأ جسدي يخرج من جلدي، أو روحي هي التي تخرج، ونمت لثلاثة أيام متواصلة، كان ناصر خلالها يعطيني حبة الكورتيزون دون أن أشعر به قد أيقظني. صحت جائعة، ومهدودة، ولم أسأل أين ناصر، لم أسأل عن أحد. كان توقيت المطر غريباً، ظننت بأنني أراه بفعل الكيماوي، لكنها كانت تمطر في آيار حقاً، رأيت ناصر في الشرفة، وقد وضع الدلوين اللذين كانا في الحمام، وراح يراقب قطرات المطر تتجمّع داخلهما. قال: يمكن استعمال هذه المياه في التنظيف. كنت أريد أن أقول له اخرج من بيتي أيها المجنون، أنا أموت وأنت ترشّد دلوين من الماء! لكن لم يكن فيّ طاقة لأجاده. أريد أن أبقى وحدي قليلاً. بعد أسبوعين بدأ شعري يسقط، في الحقيقة، كنت أنتظر سقوطه من اليوم الأوّل، بل من يوم عرفت بإصابتي، إنّه الدليل الدامغ على الصراع مع المرض. صار ينزل بيدي خصبلاً عريضة، كلّما سحبتها، يُقتلع من جذوره، أخذتُ وقتاً طويلاً لتفرغ مقدّمة رأسي، وضعت قمطة صغيرة كحليّة، تدلّي منها ما بقي منه، وبدوت مثل سائحة أجنبيّة، وهكذا ذهبت إلى الطبيب، ليحدّد لي موعد الصورة الطبقيّة التالية. جلست أمامه، وأجال نظره حولي، حول وجهي، ورأسي الذي دخل بوابة البؤس بثقة، ودارى بجهد ضحكة غير مفهومة، ظلّت في قلبي مثل طعنة شفاهها ما تزال مفتوحة إلى

اليوم، لقد أضحكته قمطتي الصغيرة، إنّه يستهزئ بها، شعرت بالأسى الذي يطلع من نظرتي إلى عينيه الفارغتين من أيّ معنى إنسانيّ، جبانيتين، وأكثر من حياديتين مع عذابات البشر، وأردت أن أذكره بنفسه حين كان يبكي في بورتوفينو من هاتين العينين ذاهما، وآته عضّ ولدأ صغيراً بوحشيّة، وأنني اشترت له الجيلاقي، لكنني تركته، مؤقتاً طبعاً، وفي نفسي متّسع لعبارة براين ميللز في فيلم "taken" المخطوفة:

I'll find you, and I'll kill you.

سأجذك، وأقتلك!

* * *

خطوة جديدة باتجاه الله، مع أنّي لم أكن بعيدة عنه يوماً، وحتى لو أبعدتني حمى الحياة قليلاً، فإنّه يكون دائماً هناك، في مكان ما، في العمق، وعلاقتي الخاصّة به تجعلني أكتفي بالخجل من نفسي حينما أغضبه. ألا يكفي ذلك الخجل الحقيقيّ، والاستغفار المتكتم، فلماذا اختارني أنا لهذا العذاب كلّ! أعرف الإجابات كلّها التي سيقولها الآخرون، يقولون عقاب، وتكفير عن ذنوب، واختيار، وامتحان...

وأواصل السؤال كلّ قليل: لماذا؟! لست نبيّاً، ولا وليّاً، ولا متصوّفاً، أنا إنسان ضعيف وأريد أن أسأل لماذا؟! لماذا يا ناصر؟

يقول ناصر: الغيمة لا تسأل لماذا تسودّ ويثقل كاهلها بالماء،
 إنّها تحمله طواعية وتسافر به بامتنان، أليس أصلاً لها؟! وأصل
 البشر الألم، فقد خلقنا الله في كبد! والمرج الأخضر البهي لا
 يعاند الريح حينما تشدّ عشبه، وربّما تقتلع بتلات أزهاره، بل
 يميل معها باستسلام تام، والطيور لا تلعن الصقيع، تغادر نحو
 الدفء فحسب، حتّى لو كانت رحلتها مغامرة، ونحن كذلك
 سنمضي في رحلتنا يا حبيبي، وبامتنان تام، والإجابات عن
 الأسئلة ستأتي من تلقاء نفسها، كما يكتشف المرج سرّ الرياح
 مع الربيع، وتكتشف الغيمة سرّ حملتها الزائدة حينما تغدق على
 الأرض وتعود إلى السماء ناصعة، وشابة، وخفيفة. المعجزات
 تأتي كلّ لحظة، وعلينا أن نصغي لخطواتها، تشخيص مرضك
 اليوم وليس غداً معجزة، واستيقاظك حيّة كلّ صباح معجزة،
 ووجهك الجميل معجزة، ولقاؤنا الذي قدّر أن يكون في عمّان
 لا في حلب، معجزة. تحتاج المعجزات إلى وقت لتصيب، والوقت
 يتطلّب منا الصبر! أنا لا أصلي صلواتي المفروضة بانتظام، وأتناول
 كأس نبيذي المحرّم بين حين وآخر، لكنّ علاقتي بالله عامرة، لا
 يمكن لأحد أن يقيّم علاقتك بالله إلّا ضميرك. حين تحصل
 معجزتي اليوميّة بأنّ أستيقظ كلّ صباح، آخذ حمّامي وأستعدّ
 للقاء الله، على أيّ مذهب أو طريق، لا يهمّ، أحاطبه، أبوح له،
 أشكو، أشكر... تلك ساعتي المقدّسة، لا أسمح لشيء في العالم
 أن يغيّر توقيتها أو يخرق زمنها. بعدها أنطلق نحو حياتي، من غير

أن أكثر شيء، أيّ نجاح أو فشل، آية لقاءات أو جوائز، أو شهادات أو بزنس كاردز أحصل عليها، كلّ الأشياء صغيرة ما دامت ساعتي السريّة قد تحقّقت في ذلك اليوم.

يعود بي ناصر إلى الوراء، قضايا بدائيّة كنت قد تخلّصت منها منذ وقت طويل، ترتيب علاقتي مع الله، ومع المقدّس، ومع الوجود، لقد درست طقوس العالم كلّها في علاقتها مع الشمس والريح والحجر والبشر والقوى السحرية، وها أنا أعود لأسمعه مثل طالبة مستجدة، لا تعرف من أين تبدأ البحث. لكنني بحاجة إلي أن أسمع ما كنت أقول، أسمعه بصوت آخر، بحاجة إلى أن أحلّل في مختبر التجربة المرّة، كلّ الأفكار التي كوّننتي، وأن أحرّض إيماني الكامن بروح العالم ليصير فعلاً أقاوم به مرضي، أنا إذن في تقدّم وجودي لا في تراجع، لكن هل كان يمكن أن يحدث ذلك بلا هذا الألم، هذا العذاب، وما جدوى التقدّم الذي سيفضي بي إلى الموت، ليتني كنت بصحّتي، لأحاوره، لأحاضر به عن بوذا وفرويد ويونغ وليفي شتراوس، سأعرفه أنّ الجغرافيا أسيرة التوقعات المضلّة، وأنّ الثقافة اختراع منافس لرغبات الآلهة، لكنني متعبة، ومن أين لي أن أحصل على طاقة للكلام، إذا كان التلقّي يشقّ عليّ، وهو يوصيني بالصبر، والصبر بالنسبة إليّ هو أن أبيع الوقت لأشتري الوجد بلا تدمر!

كان ناصر يحكي، وأنا في مستوى آخر من الوجود، مستوى الأنفاس المعطّلة، وكنت أغبطه، فلديه متّسع كي يتنفّس،

ويرتب برامحه مع الله، ومع الحياة، في حين أن آلامي تقعدني عن الحلم، وليس لديّ وقت لأخطط لغد، فأنا أقرب إلى ألا يكون لي غد.

يسمع نشرة الأخبار، يكتفي بالموجز، وينقل لي موجز الموجز، وهو يناوليني كأس عصير الليمون اليوميّ:

- الليمون يرفع المناعة، ويقاوم الورم.

لا يريد أن يثقل عليّ بأخبار الحرب، لكنّه في الوقت ذاته يصبرّ على أن يقيني على صلة بالعالم، بما يدور حولي، كي لا أصنّف نفسي في عداد الغائبين. يلبس بيجامته الرماديّة ذات السترة المخطّطة بالأحمر، يلتصق بجنبّي الأيسر في السرير، فأبتعد قليلاً، فصدري بالكاد يلتقط الأوكسجين، ولا يحتمل ثقلاً زائداً حتّى لو كان ثقل حبيب. يحكي عن الوطن، وعن الانتصارات، وعن الخيانات، مثلما يحكي من ليس مريضاً بالسرطان، وأنا أريده أن يكفّ، صوته يوترني، وهذا الكلام كلّ تافه، أريد أن أسمع منه فقط أنّني سأشفى، وأن يحكي لي حكايات المرضى الذين برئوا وعادوا إلى الحياة، وما تبقى من تحولات في العالم كلّ زائفة وصادرة عن مغرورين وجهلة، كان عليهم بدلاً من أن يصنعوا الأسلحة، أو يشتروها، ويقتلونا بها، أن يخترعوا دواء يخفّف هذه العذابات، ويمنع الأمراض. أريد أن أسمع كلامي الآن، لا كلام ناصر، كلامي أنا الحقيقيّ، لا كلام المبعوثين الدوليين إلى سورية. إنّ الكلام في أثناء العدّ التنازليّ

للأجل المحتوم كلام آخر، لأنّ قائله يعرف الحجم الحقيقيّ للأشياء، ويعرف تماماً الفرق بين الصغائر التي تكون صفراً في اليدين، وبين ما له ثقل ووجود، ففي الحقيقة النهائية جسدك هو وطنك، والخيانة العظمى هي خيانة الجسد.

* * *

رجوته أن يتركني أذهب إلى جلسات الكيماوي وحدي، وأن يلتفت لعمله، لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، ثماني جلسات، بمقدار جلسة كلّ ثلاثة أسابيع، لم يتخلّف عن واحدة منها، يبيت ليلتها في بيتي، ونطلق في الثامنة والنصف إلى المستشفى، ونعود في حوالي الواحدة. لكنني تشبّثت بطلبي ألا يرافقني إلى الصورة الطبقيّة التي تجرى كلّ أسبوعين، وتبيّن تراجع الورم، وبعدها ألتقي الطبيب، ليقرأها، ويتابع خطّة العلاج في ضوءها. قلت له أريد أن أكون وحدي الآن، لأواجه عالمي، وأتعرّف على تفاصيله وأقيم علاقات مع الآخرين الذين ينتمون إليه، فاستجاب ناصر لرجاءاتي. في الحقيقة كانت تلك قائمة مزيفة من الأسباب، فأنا أريده أن يكون معي في كلّ خطوة، لكنني لا أريد أن أستنفد صبره وحبّه، ولا أريد له أن يعيش قدراً لا يخصّه، فالألم كتب عليّ أنا، وليس من العدل أن يشاركني فيه برؤية البكاء، والتشوّهات، والجثث المتحرّكة.

أجلس في صالة الانتظار في العيادات الخارجيّة، أبحث عن وجه يبعث إشارات الأمل، وقلّما أجد، فالوجوه في حالة وجوم

مطبق. أهدق في الجدران الرمادية التي يشبه بعضها بعضاً، واحد فقط هو المختلف، ذلك الذي خلف منسقة الدور، ففي نهايته لوحة الكهرباء، أزرارها ملونة حمراء وسوداء، قرّرت أن أجعلها نقطة علام لحالتي، كنت أقول لنفسي سأتي في الزيارة القادمة، بإذن الله، وأنظر إلى هذه اللوحة وسأكون أفضل، ورّمي أصغر، ونفسي أوسع، إلى أن يأتي يوم سأنظر إليها مثلما ينظر العشاق إلى دفتر ذكريات قديم، يعزّ عليهم أن يمرّوا به دون أن يلقوا نظرة على صفحاته، سأقول لها وصلنا خطّ النهاية وها أنا قد شفيت تماماً! للمكان رائحة رمادية أيضاً يعتادها المرضى، مزيج من الأدوية والمطهرات، و"جل" تعقيم اليدين، الذي ستصير رائحته بعد قليل عطري المفضل. شاشات التلفزيون المعلقة على الجدران كلّها موجهة إلى أقنية القرآن الكريم، تبثّ سورة الأنعام، وأدعية التضرّع للشفاء، وكذلك المصاحف منضودة على الطاولات حول المرضى، كنّا جميعاً بحاجة إلى التضرّع، إلى ذكر الله لتطمئن قلوبنا، رغم أنّ المشهد كلّه يجعلنا شهداء على حفلة موتنا، ومجلس عزائنا. ليس ما ينقذنا سوى ابتسامات تبثّها الممرضات والموظفات هنا وهناك، بشيء من الماكياج على وجوههنّ العفّية، وألوان زاهية تفيض بها الإشارات على رؤوسهنّ، بضعة من إشارات الحياة التي نبحت عنها مع أنّها تملؤنا بأسى عميق.

لا يمرض المرء وحده كما يظنّ بداية، فحين يجلس هنا، يرى العالم كلّه مريضاً بالسرطان، ودائماً هناك أسوأ، الوجوه صفراء،

والرؤوس صلعاء، لا حواجب ولا رموش، هذا هو العالم الذي تنتمي إليه جمان بدران، عالم عنوانه (المصطفون للألم). نجلس جميعاً بانتظار المخلص.

حينما أتيح لي الوقت لألاحظه أكثر، وجدت أن المخلص يحتاج أيضاً إلى مخلص، فهو يخفي وراء أقنعة المتوالدة هشاشة يصلح معها ليكون بطلاً لرواية من روايات هنري ميلر. بشرته بيضاء، وعيناه مدورتان تحت نظّارتين مدوّرتي العدسات أيضاً، لا يترك رؤوس شعره تعلو جلدة رأسه إطلاقاً، وذلك منذ أن دخل حقل العمل، إنّه نوع من التعاطف مع المرضى، ومحاولة التساوي معهم، ونحن حقاً ننفر من التعاطف وإن كان أصيلاً له لحية سوداء غير مشدّبة تطول عن ذقنه سنتيمترات عدّة، تتّصل بشارين رفيعين، وتخرج من كمّي الصدرية الواسعة كفّان بيضاوان صغيرتان، مرّة واحدة استطعت أن ألحهما، بعيداً عن القفّازات السميكة، كفّان تفتقران إلى الأناقة، بأصابع غليظة، وأظافر مهملة، لكنهما بالنسبة إلينا مباركتان، وستجترحان المعجزة. مظهره غير المألوف يديه كروحاني أكثر منه طبيباً، وتجعله خطورة الحالات التي يتعامل معها، وسريّة المرض، أقرب إلى عالم الموت منه إلى الحياة، يدخل عقول الذين يعيشون آيامهم النهائية، ويكشف أجسادهم، ويسمع بوحهم الأخير، وكلماتهم التي يقولونها عند حافة النهايات، والتي تكون الأكثر صدقاً على الإطلاق. إنّه عتبة أخيرة نحو الموت أو عتبة أولى باتجاه الحياة،

وهذا التناقض يمنحه سحراً: الأبيض والأسود، والحياة والموت،
والقسوة والهماشة، والطفولة والشيخوخة، والقلق والثبات،
والجبن والشجاعة.

كان وجه المخلص في كلّ مرّة رأيته فيها مشوباً بالقلق،
هيباً من نظرة المريض الذي قد تجعله الآلام يستعجل قدره، فلا
أحد يضارع في قوّته مريض السرطان، وهذا المخلص بكى كثيراً
مع المرضى حتّى تمثّم قلبه، فتوصّل إلى تسوية من قدره ومع
أقدار الآخرين. لم يكن يسمح بالمزيد من الأسئلة الصعبة، حتّى
تبقى أبواب القلوب مواربة، فلا يوغل في وحشة النهايات، فهو
ليس إلهاً، ولا حتّى نبياً، وليس بذلك القائد الشعبيّ الذي
تستسلم الحشود لأبوته الغامرة، بل إنّ محاط بهالة الشكّ،
والذكاء المفرط، والمزاجيّة المنفّرة، لكنك إذا اضطرت إلى أن
تضع حياتك بين يدي شخص ما، فستضعها، بلا ترددّ، بين
يديه!

* * *

استمرّ شعري بالتساقط، وصار مزعجاً، فاقترح ناصر أن
نتخلّص منه تماماً. تبعته إلى الحمام كما أمرني، مثلما يفعل طفل
يعرف أن لا مناص من الامتثال لأمر أمّه. وقفت قبالة المرأة
أمامه، وعليّ (تي شيرت) قطنيّ أبيض فحسب، يستر الجزء
العلويّ إلى الفخذين من جسدي الذي صار ضئيلاً فجأة وبأيّام

قليلة. نظرت إليه في المرأة، كان منهماكاً بتوصيل آلة الحلاقة
بمفتاح الكهرباء على الجدار. أزّت الآلة، وراحت يده تمشي بها
على رأسي بحرفيّة، وتجزّ شعري الأسود، اللّامع، الطويل،
فتساقط خصلاته على ورق الجرائد المفروود على الأرضيّة، ثمّ
تتناثر مثل أحلام شظّائها زمن رديء. كان يحرث في رأسي بالآلة
مطلقة، بلا قلب، وكانت دمعتان حارقتان قد علقنا بأهدابي،
وفكرت لوهلة:

كيف يدخل رجل غريب حمّامي؟ وكيف أقف أمامه شبه
عارية؟ ومن هو هذا الوحيد الذي رأى منّي ما لم تره حتّى أمّي
يوم ولادتي؟ رأي حليقة الرأس تماماً مثلما لم أتوقّع أن أرى
نفسي يوماً! لكن سرعان ما تلاشت تلك الفكرة مع غيرها من
أفكار كثيرة كانت في الماضي القريب من قبيل المحظورات، إذ لم
أعد أبالي بشيء. إنّ فكرة التحرّر أجمل ما في المرض! التحرّر من
الأشياء كلّها، ومن الناس كلّهم، ومن الأعراف كلّها، ومن
الزمان والمكان، والخطأ والصواب، وحتّى من الحنين. وإذا مرّت
التجربة بسلام، وجاء الشفاء، فسيكون شعور صاحبها بالأسف،
أو الندم، أو الحسرة، أو الرغبة، أو البهجة أقلّ بكثير!

عدت إلى نفسي، وتبّنتُ من أنّي مع ناصر من جديد، ناصر
الذي ليس عندي غيره، ولا أريد غيره، حاولت أن أتعرّف إلى
نفسي في المرأة، وكان خلفي يتأمّل معي الصورة الجديدة، كلّ
تفاصيلها باهتة وبيضاء مثل سماء تحجب زرقتها الغيوم، فيها فقط

عيناى البنّتان تلمعان بضوء يجرح زجاج المرأة، ثمّ ينكسر بذبول
مقاوماً الانطفاء، يضاف إليهما لون قميص ناصر الأصفر.
مسحت بكفّي على رأسي الأصلع، فاعتراى شعور حلو،
وخزات ناعمة ممتدّة على باطن كفّي، كرّر ناصر حرّكتى، وهو
يحدّق فى عينيّ من خلال المرأة، فاحتوت كفّه الكبيرة كرة رأسي
الذى تبين أنّه صغير جدّاً، نزل بيده إلى ذقنى، واحتضن بها
وجهى كاملاً وضغط على عظام خديّ بقسوة، وكان ما تبقى
من لحم يستجيب لأصابعه فى انثناءات موجعة:

- هذا الوجه العنيف فى براءته، تمنيت مذ رأيتّه أن يكون
بين يديّ، أن يكون لي..

نقل يديه مطوّقاً خصري برخاوة، وراح يقبّلني فى عنقي
قبلاى عميقة، ثمّ يريح جبينه على كتفى، ويواصل لثم ما يقع فى
طريق شفّتيه، استطاع أن يحوّل لحظّتي المهينة أنثويّاً إلى لحظة
محلّقة، يتمتم:

- جمان، جمان.. حلاوتك جارحة، لا أحتملها... فيك
الآن غلّمة بدائيّة توقظ الشهوات المستغرقة فى نومها،
غلّمة (غايا) الأرض، أخيراً وجدّتها....

أوّل مرّة مذ عرفته، يتكلّم ناصر عن الشهوة! كنت قد
فكرت فيه طويلاً كما تفكّر النساء بالرجال، تساءلت عن رغباته
الساكنة وراء حضوره الجادّ، وعفّته الأنيقة، لكنّ الإجابات تأتي
كالعادة فى غير وقتها، ولا أعرف إن كان يقول لي ذلك بدافع

المكاشفة التي اقتضتها لحظة الحقيقة، أم بدافع الموازنة الإنسانية! وشعرت برحولته المتفجرة في لحظة النزاع الأخير لأنوثتي، ومع ذلك منحته القليل مما تبقى مني بدافع التجربة، أو الاستجابة الآلية، أو اليأس، أو الإفلاس، كنت محتاجة ليدي، لغدده العفوية، لنفسه الطبيعي، لأعضائه التي تعمل بانتظام، بلا اضطرابات، لجلده الزهري الصقيل الجميل الذي بلا تشوهات، بحاجة إلى الحياة في جسده، وقد منحني إياها لدقائق نادرة لا تعرفها دناءات البشر، ألصق ظهري المريض المشوه ب صدره الصحيح القوي المعافي، فاهتزت أعماقه برغبة ستظل مجهولة بالنسبة لكثيرين، رغبة مدفوعة بحرارة التفاني، والعطاء، والوداد، ولم تحترق أبداً بنار الشبق!

* * *

جلسات الكيماوي الأولى تمر بسرعة، ثم تأخذ بالتباطؤ المستفز، مثل حركة قطار الأرياف في دولة فقيرة. الدواء يصير أثقل، والمناعة تضعف إلى حدّها الأدنى، ويصير اللون الأصفر المبيض علامة فارقة، ويقضى على الشعر تماماً، كلّ، المرغوب به وغير المرغوب، تزداد قروح الفم، وجفاف الحلق، وازرقاق اليدين، نتيجة محاولات الفنيين البحث عن أوردّة ترفض أن تمنح الدم، لجفافها، ويصير المشهد سينمائيًا. لو رأيتني جدّي الآن، لندمت على محاضراتها اليومية التي كانت تعذبني بها: شدي

ظهرك، عدلي جلستك، افردى كتفيك، ضمّي رجلتيك، ضعي
ساقاً على ساق، نزلّي تنورتك، ابتعدي عن الشمس. آخ
يا (نانا)، ما فائدة المشدّات، والكعب العالي، وكرّيم إيديال، إذا
كانت كلّها ستنتهي إلى ما انتهتُ إليه!

ينظر الطبيب في التحاليل بوجهه المنحوت مثل قطعة صابون
بيضاء، ويقرّر الجرعة التالية. ماذا يهمّ الطبيب، والمرّضين،
والعاملين! الجميع يعودون إلى بيوتهم، إلى أمهاتهم وأطفالهم، وأعود
إلى مرارة حبوب الكوتيزون، والماء الذي يصير بسبب الكيماوي
علقماً. الكيماوي يغيّر كلّ شيء، كلّ خواصّ العالم، ليس طعم
الأشياء فحسب. أنام لأيام متواصلة، وأتبوّل الـ R-Chop، الذي
حقنْتُ به، ومرّة يتتابني إسهال وأخرى إمساك، ورأسي يظلّ كمن
يتخبّطه الشيطان من المسّ! وحينما تحجم عيناى عن رؤية الأشياء
بوضوح، يدخل ناصر عليّ فيراى أجاهد أنفاسي مثل شاة
مذبوحة نصف ذبحة، تنتظر رحمة سكّين أكثر حدة. أتوسّل
الاستسلام للنوم. الاستسلام ليس مفردة سلبية أبداً، تأخذ هنا
أجلّ المعاني، إذ تعني أن أهدأ، وأطمئنّ في بعد رابع من الوجود،
أوغل فيه بالتخلّي عن جسدي وأحلامي وتطلّعاتي. قبله أظلّ
أتألم، وأتألم، وأتألم، حتّى يعجز الألم ذاته عن أن يأتي بجديد،
حينها يبلغ الذروة، وأكون قد تحرّرت، يصير جسدي روحاً
منفصلة عن العالم، وعن الوقت والمكان، ومحلّقة في سماء من الأمل
بساعة قادمة ستكون أفضل، فلا أعرف إن كنت في السرير أم في

القبر. ثم أجدني في بيتي في الرقة، في غرفة النوم الإسبانية ذات
السريدين من خشب الكرز البني، وشراف "الكائن" الأميركية،
ولحاف الصوف الذي نفضت حشوته فضة الخادمة، وحرامات
"الباشمينا" البنية ذات الزهور البيج، ويد ماما تغطيني بها.

أحلام البرتقال

لعلّها أجمل مريضة سرطان، يمكن للمرء أن يقابلها على الإطلاق! الابتسامة المضيفة على فمها الصغير كانت كفيلة بتحويل قاعة الانتظار من مجلس موتى إلى ممرّ للأمل، إذ لا يبدو على ملامحها تعب المرضى ولا كآبتهم، ولا تفصح عيناها عن ذلك السؤال الحائر الذي يسكن عيونهم، ولا يجد إجابة: "لماذا أنا؟!".

لم تكن "هانوي" قصيرة أو طويلة، ولا ممتلئة، ولا نحيلة، لكنّها جسداً حلواً، لم يعث المرض فيه كثيراً على ما يبدو. بشرتها بيضاء مذهبة، ومشدودة، وعيناها بنيتان، مبطنتان كعيون أهل الصين، ورأسها الأضلع يضيء مثل كرة نور. في أذنيها أقراط كثيرة، صغيرة ولا معة، وعلى رقبتها وشم لتئين متوسط الحجم، يصعد من الترقوة باتجاه أذنها اليسرى. إنها تشبه فنانة هيبية أكثر بكثير من شبهها بمريضة سرطان. وفكرت: كيف امتلكت الصبيّة، طاقة لإبراز هذا الجمال وهي على حافة الهاوية، في حين أنّي بالكاد أستطيع أن ألبس ثيابي! إنه جمال الحياة في عصفها الأخير!

ولأوّل مرّة، منذ أن عرفتُ بمرضِي، يتتابني فضول تجاه شيء ما، أو أمل قد يكون كشّافي في هذه العتمة. رغبت بشدّة في أن أسألها عن التفاصيل: هل نجت؟ هل شفيت؟ كم جرعة أخذت؟ وكم جلسة أشعّة؟

قامت لتحدّث إلى منسّقة الدور على المكتب المقابل،
فانحسر قميصها الأبيض الرياضيّ نحو الأعلى، لترك مسافة
واضحة بينه وبين خصر بنطلونها الرماديّ الواطئ والرخو،
فلمحت خطوطاً متطاولة تجاور السرّة، ظننتها أثر فراشة!

حينما أفتت إجراءاتها، لم تجد مقعداً فارغاً سوى الذي
يقابلني، فسألني إن كان يخصّ أحداً، على غير عادة مرضى هذا
المكان الذين يجلسون في أيّ موطن، واجمين من الخوف، وغير
مبالين بشيء ما عدا عدّ أنفاسهم في هذه الدنيا. أومأت لها
بالجلوس، بعد أن لاحظت عربيّتها المطعّمة ولكنة أجنبيّة، في
الحقيقة أردت بشدّة أن أكلمها، فقلت:

- حلّو هذا التاتو!

وضعت يدها على رقبتها.

- لا، تحت.. "الفراشة" أقصد.

قطّبت حاجبيها كأنها غضبت، ثمّ وقفت، وأنزلت قليلاً
خصر بنطالها القطنيّ بلا أدنى تحفّظ، فلاح شيء عجيب: وشم
لبندقيّة كلاشنكوف! وضعت يدي على فمي لأخفي شهقتي،
وانطلقت هي بضحك، مخالفة الظرف، وشروط المكان الذي
كان الجميع ينظر إلينا فيه بحسرة واستهجان.

- أنت عربيّة؟ قلت

- أميركيّة. قالت

- كان عليك أن ترسمي الـ M16، إذن لا الكلاشن.

قطبت حاجبيها ثانية، ثم ضحكنا وهي تقول: هذه
كلاشنكوف صينية مطوّرة، اسمها نورينكو، أنا نص عربية، نص
أميركية.

* * *

"هانوي"، أو "هانية" كما يناديها جميع من حولها، هي
الابنة الوحيدة للرفيق أيمن ثابت، واحد من كوادر الحزب
الشيوعيّ الفلسطينيّ، الذي دعم منظّمة التحرير منذ نشوئها في
الستينيات. في العام 1970 انضمّ أيمن ثابت إلى الجناح العسكريّ
للحزب، وأوفد في مهمّة تدريبية إلى فيتنام، حيث كانت تدور
حروب تحرير الجنوب من الأميركان. وقتها كانت الكوادر
العسكرية الشيوعية التي تدعمها الصين، تتجمّع من كلّ مكان في
العالم في معسكرات التدريب، لتشهد التمارين الحيّة على حرب
العصابات بين الأدغال الجبلية، مزوّدة ببنادق النورينكو 56،
المصنوعة في الصين، والمطوّرة عن الكلاشنوف الروسية.

كانت الرفيقة "يان" تقود ناقلة الجنود المحمّلة بالأغطية،
والأرز، والسّمك المقدّد، لتوصلها إلى ثوار الجنوب، الذين
يقاومون نظام الرئيس "دم"، دمية الأميركان، وكان عليها أن
تتوقّف في موقع شمال نهر "بن هاي"، الذي يفصل بين العاصمتين
المتناحرتين "هانوي" في الشمال، و"سايجون" في الجنوب.
اضطّرت "يان" إلى أن تجنح عن الطريق، لتتوارى بين الأدغال،

محتمية بأغصان شجر الكاكايا والتين، المسودّة من بلاغة الاخضرار، لقد بدأت قاذفات القنابل، تلقي بالنابالم على مسار طريق "هو شي منه"، حيث كان أيمن ثابت يتدرّب مع الرفاق على المواجهات المسلّحة. حين هدأت الغارة، تلمّست "يان" جسدها الضئيل، ووجها الأبيض المصفرّ، الذي أخفته بطاقة القشّ، وشقيّ عينيها السوداوين الممطوطتين، فاطمأنت، وبدأت بإخلاء الجرحى، فوجدت أيمن مختبئاً في جذع شجرة الكابوا، ومصاباً بشظيّة في صدره. قادت عربتها إلى الثكنة الثوريّة، تحت رصاص الأميركان، كما يتنقل حجر الشطرنج على الرقعة، وكان الرفيق أيمن يتأوّه طوال الطريق، وينزف دمه الحار على كتفها.

من بين مليون ومئة ألف قتيل قضوا في الحرب، نجى الرفيقان "يان" وأيمن، اللذان سيغرم كلّ منهما بالآخر، ثمّ سيتزوّجان بعد المعركة النهائيّة لتحرير فيتنام في 1973، ويعودان إلى قطاع غزة. ولدت "هانوي" بعد سنة، وسمّيت تيمناً باسم العاصمة المنتصرة، لتحوّل أيمن ثابت، إلى الرفيق "أبو هانية"، والذي سيصير اسماً فلسطينياً لامعاً في القيادات الشيوعيّة عبر العالم، وستتمّ تصفيته بما يمكن أن يسمّى نيراناً صديقة، أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى.

بعد انهيار الاتحاد السوفييتيّ، عادت "يان" وابنتها "هانوي" إلى فيتنام، لكن لم تجد في العالم مكاناً يحتضنها سوى أميركا،

غادرت إليها، حيث افتتحت مطعماً صغيراً في الحيّ الصيني، في سان فرانسيسكو.

كبرت "هانوي" هناك، وانتسبت إلى مدرسة الفنون، وتخصّصت في رقص الثقافات الملونة، ثمّ حصلت على الجنسيّة الأميركيّة، فحرّرتها من القلق الذي كان يعترّيها كلّما فكّرت بزيارة الشرق الأوسط، حيث جذورها. قرّرت الاستقرار في عمّان، وأسّست مدرسة لتعليم رقص السالسا والهيب هوب، وذلك في استوديو يقع في قبو مجمع أوركيد، في حي الصوفيّة الشهير، وأطلقت عليه اسم "نورينكو"، والذي تعدّه سلاح العائلة. ولما أصيبت بسرطان الغدد الليمفاويّة، تلقّت العلاج في المركز، على نفقة السلطة الفلسطينيّة، بوصفها ابنة مناضل كبير، وقد أشرف الدكتور يعقوب على علاجها، وبعدها صارت حبيبته. قالت لي واثقة: إنّها مرضت بسبب إرهابها التاريخي، إذ عاشت تحولات كثيرة مضنية! ووجدت تحولاتها موازية لتحولات الكلاشنكوف من سلاح للتحرير، إلى علامة على زجاجة فودكا، ومن ثمّ إلى وشم صغير تحت السرّة.

* * *

سقطت اللد في أيدي العصابات الصهيونيّة يوم الجمعة 9 تموز 1948، وبعد أيام اقتحم المسلّحون الدّور بأعقاب بنادقهم، وأخرجوا أهلها، وجمّعوهم في ساحة النواعير، وسط البلدة.

غصّت الساحة بأهل المكان، ومعهم اللاّجئون الذين كانوا قد وردوا من مختلف مناطق فلسطين بحثاً عن الأمان. ظنّ الناس أنّها حملة أخرى من التفتيش عن السلاح والثوّار، من الحملات التي اعتادوها، وأنّهم سيعودون إلى بيوتهم بعد قليل. لكنّ الأمر هذه المرّة كان مختلفاً، إذ قام المسلّحون بإخراجهم خارج البلدة، طردوهم بوقاحة، وأمطروهم بالشتائم. كان شهر رمضان قد بدأ والناس صيام، وقد استبدّ بهم العطش، فالشمس تحرق أجسادهم، والكمد يحرق قلوبهم. ظلّلتهم يّارات البرتقال بأوراقها الوارفة على طول الدرب، وودّعتهم إلى الأبد. لن يروا برتقالها بعد اليوم إلّا في الصور التي سيرفعها فيما بعد، المناضلون، والمتضامنون، والمتفعون، ولن يذوقوا حلاوته إلّا بضاعة مصدّرة من إسرائيل إلى منافيهم في العالم، حيث سيشترونه بالحبّة، التي سيدفعون ثمنها دولارين أحياناً، موسومة بلصاقة زرقاء، كتب عليها:

JAVA

توقّف يعقوب قليلاً في إحدى البيّارات، حينما لمخ بركة ماء، فسارع ليسقي أطفاله العطاش. فتح الصنبور، وحمل الماء في دلو كان على حافة البركة. ولما عاد مبتهجاً، لم يجد يوسف، ولده ذا السنوات الثلاث. ظلّ يبحث عنه حتّى المساء، ولم يترك المكان إلّا بعد أن لحق به الخيّالة الإنكليز، وطردوه، وقد ضاع منه يوسف إلى الأبد.

كان التعب قد أنهك جسد الطفل الصغير، فنام تحت دغل من الشجر، ولما استيقظ، لم يجد أهله. بكى طويلاً، وأنهكه العطش والجوع والخوف، فعاد إلى النوم. في ذلك الوقت، كانت عائلة الشريف قد هُجرت من دارها في القدس الشرقية، ورحلت باتجاه رام الله، وفي الطريق توقّفوا لتناول طعام إفطارهم، فوجدوا الصغير وقد شارف على الهلاك. لم يكن يوسف يعرف سوى اسمه واسم أبيه يعقوب، ولم يجدوا له أهلاً في ذلك المكان، فأخذوه معهم، وصار اسمه منذ تلك اللحظة "يوسف الشريف".

في 28 نيسان من العام نفسه، كانت عائلة الحاج أليف علم الدين قد اجتمعت حول مائدة الغداء، في البيت الموروث عن الجدّ الأكبر، علم الدين الناشف، صاحب المحلّ الشهير لتصلّيح الأسلحة في سوق يافا القديم، والذي امتاز بعلاقته الخاصّة مع الثوّار، ضدّ الانتداب البريطانيّ، فاعتقل مراراً نتيجة تلك العلاقة.

ينفتح باب البيت على الأزقة العتيقة المقنطرة، وتنفّث مشربّياته وشبابيكه على البحر. كان الوجوم يسيطر على ملامح أفراد العائلة جميعاً، فالأخبار القادمة من فلسطين كلّها لا تبشّر بخير، العصابات الصهيونيّة تدهم المدن والقرى، وتقتلع أهلها من دورهم وترميهم في الطرقات. تمّ منع الصيد، وبالكاد استطاع الحاج أليف أن يتدبّر غداء اليوم. لقد تغيّرت أحوال بحر يافا، منذ أن قرّرت حكومة الانتداب البريطانيّ أن تهيئ تل أبيب، لتصبح الميناء الرئيس، فأهمل لصالحه أقدم موانئ المتوسّط، وصارت

البواخر ترسو بعيداً عن الرصيف، بانتظار العبّارات التي تغادر
محمّلة بصناديق البرتقال، وتعود بشتّى أنواع البضائع.

هواء البحر الرطب، والعابق برائحة الربيع، كان يدخل
بحريّة من شبّاك غرفة الطعام، وقبل أن تتمّ العائلة غداءها، دخل
العمّ سميح هليعاً، وأخبر أخاه (أليف)، أنّ يافا صارت محاصرة من
الجهات كلّها، والاشتباكات تعمّ الأحياء، ورصاص القناصة
اليهود، يمحط المواطنین، لذا عليهم مغادرة المكان فوراً.

حينما وصلت عائلة الحاج أليف علم الدين إلى شاطئ الميناء
بمتاعها القليل، ومدّخراتها التي كانت قد أعدّت من قبل، وجدت
ألوف (اليافاويّين) بانتظار المراكب التي ستنقلهم إلى أيّ مكان
آخر، ليصيروا اعتباراً من تلك اللحظة لاجئين. من حسن حظّهم
أنّ ركبوا إحدى العبّارات التي نقلتهم إلى "دولورس" سفينة
يونانيّة، ترسو في محيط الميناء، وستنقلهم إلى بيروت، ومعهم لغة
البحر وصور البرتقال.

لو فكّر الحاج أليف قليلاً، لوجد أنّ احتمالات الخروج،
ليست أفضل بكثير من احتمالات البقاء، فقد تدهورت صحّة
زوجته، التي كانت ترقّ مع اعتقالاته المتوالية، وتعب قلبها مع ولادة
نبيلة آخر العنقود، ولم يسعفها على إتمام المغامرة. وصلوا ميناء
بيروت، لكنّ السلطات اللبنانيّة لم تمنحهم إذنًا للنزول، إلّا بعد أيام
ثلاثة، ظلّت خلالها نبيلة الرضيعة آوية إلى حضن أمّها الميّتة، تمصّ
ثديها الذي جمد الحليب في عروقه الباردة، وتشمّ بقايا الرائحة التي

ستحرم منها طيلة حياتها، كما حرمت من مدينتها وبيتها، الذي لم يمهلهما الوقت لتحفظ بآية صورة له في ذاكرتها.

* * *

سيحطّ الرحال أخيراً بيوسف، مع آل الشريف الذين تبنّوه، في عمّان، حيث ستقيم عائلة علم الدين، وفيها نبيلة التي ستربيها زوجة أبيها، وسيبدأ الجميع حياة أخرى، لا تشبه بأيّ شكل، حياتهم في فلسطين.

يكبر يوسف، الذي يعرف أنّه ولد مُتبنّى، ويصغر معه السؤال "من أين أتى؟!"، ذلك السؤال الذي كان يمكن أن يحوّله في يوم من الأيام إلى مناضل كبير، بنفس نسبة الاحتمال التي كان يمكن فيها أن يتحوّل إلى شهيد، أو إلى مجرم.

انتمى إلى فصائل المقاومة، وصار يتغيّب عن المدرسة، والبيت، وحمل السلاح، والتحق بالأجنحة العسكرية، لكنّ عائلته وقفت في وجه جموحه المراهق، فأغدقت عليه اهتماماً استثنائياً. خرجوا من المخيم، وغيّروا البيت والحَيّ والمدرسة، وحولوه إلى شخص آخر منكبّ على الدرس فحسب، فأفهى الثانوية بتفوّق، وحصل على بعثة من الأونروا، لدراسة الهندسة الميكانيكيّة في جامعة هانوفر الألمانيّة.

مات الحاج أليف علم الدين مبكّراً، ومن بعده عاش أولاده في رغد، إذ عادوا إلى تجارهم القديمة في السلاح، وعلى غير نهج

أبيهم، كانوا يبيعونه إلى الفصائل الفلسطينية المتناحرة، بالروح ذاتها التي يبيعونه فيها إلى اليهود. وهكذا بنوا إمبراطوريتهم الخاصة، ووسّعوا ملكيتهم إلى خارج جبل عمّان، باتجاه الغرب. بدأت نبيلة ترتاد كلية الآداب في الجامعة الأردنية لدراسة الفلسفة، وحين عاد يوسف الشريف في إحدى إجازاته من ألمانيا، التقاها في عرس صديقتها، فأغرم بها. تزوّجا، وسافرت معه إلى هانوفر. وجدت نبيلة في يوسف المستقبل الآمن والنظيف، بعيداً عن قذارات تجارة السلاح التي غرق فيها إخوتها، مدّسين تاريخ جدّهم، وأبيهم، الذي أمضى سنواته الأخيرة في قهر وفاقّة، كي يحافظ على صورة المجاهد الفلسطيني، الذي حارب الإنكليز واليهود معاً. عملت نبيلة بتشجيع زوجها على قطع علاقتها بذلك الواقع الذي لا ترغب لأولادها أن يرتبطوا به، لا من قريب ولا من بعيد. أمّا يوسف، فوجد فيها رائحة المكان الذي لم يعرفه إلاّ لماماً، لكنّه يستطيع أن يرسم له معها صورة موازية، وأن ينبت لنفسه من رحمها أمشاجاً تصله بالحياة التي يحبّها. ونتيجة لذلك ولد يعقوب في العام 1970، ويعقوب هو الاسم الوحيد، بل الفكرة الوحيدة التي ورثها يوسف عن ماضيه.

عاد يوسف وعائلته الصغيرة إلى عمّان، يحمل تخصصاً علمياً نادراً، إذ كان مهندس "جيوثرمال"، يستولد الطاقة من حرارة جوف الأرض، لكنّ تاريخه النضاليّ، القصير، والبعيد، حاصره

على غير توقّع، وحرّمه من الترفّيات التي كانت من حقّه، ومن ريادة المشاريع التي منّى نفسه بها، وحينما قرّر العودة إلى ألمانيا، سبقه قرار بمنع السفر، ونتيجة لذلك القهر، أصيب بنوبة قلبية ومات.

ترك يوسف نبيلة ويعقوب، ومشروعاً باسمه نال عنه مكافأة مالية، استثمرها في شراء شقة صغيرة إضافية، قد تكون بيتاً ليعقوب في المستقبل، يعقوب الذي بقي وحيداً بلا إخوة أو اخوات، لأنّ حبّل أمّه كان عزيزاً، كما يقول الأطباء.

لم ترمّم نبيلة علاقتها مع أسرتها، وفاء ليوسف بالدرجة الأولى، وقرّرت استكمال حياتها وحدها. كانت قد حصلت على ليسانس الفلسفة، وتقدّمت للعمل في السفارة الألمانية في عمان، وأجّرت الشقة الإضافية، وخصّصت إيجارها لمصاريف مدرسة "الفرير"، التي أصرّت على أن يتابع يعقوب تعليمه فيها، على الرغم من ارتفاع تكاليفها. كانت تحارب أيّ شعور بالعجز يراودها عن ثباتها أحياناً، وكان مستقبل يعقوب كلّ لحظة بين عينيها، يعقوب الولد العبقريّ والوحيد الذي يمكن أن ينتصر على رحيل والده المفجع، ويصالحها مع الدنيا مرّة ثانية. حينما شعرت نبيلة بعجز في مواردها المالية لتلبية مصاريف حياتها المتزايدة، تعاقدت مع مجلة خليجية ناشئة، تعالج فيها مشاكل القراء العاطفية. كبر يعقوب، ونبيلة تعتقد أنّ ولدها مقتنع بأنّ أمّه كاتبة مقالات، لم يقرأها يوماً. كان الولد يعرف أنّ وراءه يريد

أمّه الممتلئ بالرسائل دائماً، ليس أصدقاء الدراسة في ألمانيا، كما تدّعي، بل هو من أولئك الذين تبيعهم أوهاماً لتحقيق أحلامه. لذا لم يفتح رسائلها يوماً، ولم يسألها عن شيء يخيل إليه أنّه قد يحمل ما يمكن أن ينغّصه.

ورث يعقوب سؤال أبيه ذاته، لكنّه عطّل قواه عن البحث، وانطوى على رغبات أمّه التي قرّرت ألاّ نشاطات، ولا زيارات، ولا رحلات، وطبعاً لا أحزاب. كانت حياته تقوم على المذاكرة فحسب، ومن ضمنها كان تعلّمه للفرنسيّة والألمانيّة، فضلاً عن الإنكليزيّة. كانت تقلّه بسيّارتها "البيتل" الصغيرة، إلى مراكز اللّغات، وتنتظره حتّى يفرغ من حصّته، ثمّ تعيده إلى البيت. وبذلك تمكّن يعقوب من قراءة فولتير بالفرنسيّة، وغوته بالألمانيّة، التي كانت أشبه بلغته الأمّ، وحينما قرأ "آلام فرتر" رأى ذاته ترسم أمامه على الورق، فبكى طويلاً، وصعد إلى السطح، وقرّر أن يلقي بنفسه منتحراً، لكنّه حين أبصر حركة الحياة في الشارع، تراجع، وأدرك منذ تلك اللّحظة أنّه ولدّ جباناً.

بعد حادثة الانتحار التي لم يعلم بها أحد، أيقن يعقوب أنّه سعيد بتفوّقه وعبقريّته، وبنظرة الإعجاب التي يراها في عيون مدرّسيه، وبالحسد الذي يستشعره في نفوس زملائه، فقرّر أن يعزّز ذلك الاختلاف، فانكبّ بكلّ ما أوتي من طاقة الشباب على التحصيل والثقافة، وراح شكله يتماهى مع اختلافه، فنحل عوده حتّى كاد أن ينطوي لرقّته، وتكاثف نور الوجود في عينيه،

وطال شعره الأسود الغزير، الذي كان يربطه دائماً على شكل ذيل فرس، ويطويه، وهذب شعر لحيته الناعم، فصار أشبه ما يكون بصورة يسوع المسيح في الأيقونات الغربية، مع اعتبار اختلاف الألوان. وعلى الرغم من انشغاله الدائم بأمه، وبطلّعاكما معاً، كان يشعر أنّ في داخله بقعة سوداء لا سبيل لإضاءتها، وخواء يصعب ملؤه، إنّهُ خواء الجذور المرعب! وكان كلّما رأى أحداً من عائلة أبيه بالتبني، والذين هم في جلّهم بسطاء، وغير متعلّمين، يشعر بأنّه مختلف، وأنّه لا بدّ من أن يكون من سلالة جهابذة، وربّما لم يكونوا عرباً أصلاً، قد يكونون إنكليزاً أو يهوداً جاؤوا من مكان ما، وكانت الاحتمالات كلّها تفتح دروب العذاب.

استطاع يعقوب بتفوّقه أن يدرس الطبّ في الجامعة الأردنيّة، ثمّ أن يحصل على منحة للتخصّص في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، وكانت نبيلة منذ زمن طويل تعدّ نفسها لهذا اليوم، اليوم الذي سيغادرها فيه وحيداً نحو حياته الخاصّة، ولن يكون دورها فيها كما كان سابقاً. لكنّ وحدتها، وأشواقها، وحزنها، لن تقف في وجهه أبداً. لم تنه عن السفر، ولم تتوسّل إليه ليبقى معها. لم تسأله كيف سيغيّب سنوات، ويتركها بلا أنيس في هذه الوحشة كلّها، وكيف ستقضي لياليها بلا صوته في الدار، بلا حليب الصباح، وقهوة المساء التي لا يفوتان موعدها، مهما كان الظرف، ومهما كانت الأعباء. ومثلما اعتاد يعقوب ألاّ يفتح باب الأسئلة

مع نبيلة، راح يكابد وحده آلام الرحيل، ومغادرة الحضن الذي آمنه على الرغم من المشقات كلّها. شعر بأنّه جاحد، وأنانيّ، إذ يعلم مدى شقائها بفراقه، من غير أن يجرؤ على أن يعلّلها حتّى بالكلام، لكنّه أخذ على نفسه ميثاق شرف بأنّ ينهي تخصّصه في أسرع وقت، وعندها لن يثنيه شيء عن العودة.

* * *

بعد سفر يعقوب، شعرت نبيلة لأوّل مرّة في حياتها باليتم، والشكل، والرملة معاً، ولم تجد حتّى في تصوّر مستقبل ولدها الباهر بعد أعوام قليلة، عزاء كافياً لحزنها ووحدها. تمرّ صباحاتها بصعوبة بالغة، ومساءاتها موحشة وثقيلة. ليس بها رغبة في الذهاب إلى عملها، وحينما تذهب تفقد الرغبة في العودة.

انضمّت إلى نادٍ للقراءة، وصارت تلتقي بمجموعتها مرّة كلّ أسبوع، يكونون خلاله قد قرؤوا الكتاب المقرر مناقشته في تلك الجلسة. لقد ساعدها ذلك كثيراً في مجابهة وحدتها. كان النادي سيستضيف في جلسته المنتظرة الروائيّ العراقيّ "كريم سعد"، لمناقشة روايته الأخيرة "تمائم بابل"، والتي حازت على جائزة معرض عمّان للكتاب.

في ذلك المساء المطمئنّ من مساءات أواخر الصيف، التي يحتاج المرء فيها إلى أن يصطحب شالاً أو سترة خفيفة، إذ يرقّ نسيمها ولا سيّما في تلال منطقة "الحُمّر"، المشرفة على بيوت

"وادي السير" تلك التي فاتها عزّ كثير، توجّهت نبيلة إلى نادي القراءة الذي تديره سيّدة أردنيّة متزوّجة من جرّاح صدر شهير، والذي تستضيفه في صالون زجاجيّ واسع، ينال جزءاً من فيلّتها التي تعنّي تلة مشجّرة، ومثل قصّة محكمة في حبكتها، التقت بالدكتور رشيد شهاب، جرّاح تحميل عراقيّ من تكريت.

كان رشيد شهاب قد اختار مثل كثير من العراقيين العيش في عمّان، بعد الاحتلال الأميركيّ للعراق في العام 2003، قبل ذلك قضى سنوات متنقلاً من بلد أوروبيّ إلى آخر، بصفته ملحّقاً عسكرياً في السفارة العراقيّة، والتي ستحوّل إلى قهمة عمالة للنظام السابق، لا سيّما أنّه عاد إلى بغداد منذ أواخر الثمانينيّات، وعمل طبيباً في مشافي القوّات المسلحة. كانت حياته حافلة بالعمل والنجاح، ولم تترك له فرصة لتكوين عائلة، وقد عرف من ويلات الحروب التي خاضتها بلاده، ما لم يعرفه غيره، إذ قضى أيامه ولياليه، يرّم حروق الجنود وتشوّهاهم تلك التي خلّفتها الأسلحة الفتّاقة، الكيماويّة، والجرثوميّة، والأخرى التي ما تزال ماهيّتها حبيسة الملفات السريّة، منذ حرب الخليج الأولى، الإيرانيّة العراقيّة، إلى خروجه من بغداد، وقد ذاع صيته في الأوساط العراقيّة العسكريّة والمدنيّة على حد سواء، وعرف بصاحب الأنامل الذهبيّة. ويُشاع أنّه هو الذي أجرى جراحة عبقرية لعديّ صدام حسين، إثر تعرّضه لإطلاق نار من قبل أحد أصدقائه الشخصيّين، بسبب استيلاء الأوّل على حبيبة الثاني

وكانت الطلقة قد اخترقت وجنته، وشوّهتها، لكن لم يعد لها أثر يذكر بعد تلك الجراحة على يديه. لقد نسجت حول حياته العملية أساطير عدّة، أشهرها أنّ مبضعه الجراحيّ كان وراء النسخ المتعدّدة للرئيس الراحل، وهو لم يؤكّد ذلك يوماً أو ينفيه، لذا بقيت هالة الغموض والسطوة والنجاح المحيطة به، أشبه بمغناطيس يجذب النساء من حوله: الطبيبات، والمرضات، وضابطات الجيش، ونساء وزراء وقادة وسياسيين... لكنّه كان يحرص على أن يكون بعيداً دائماً عمّا يمكن أن يُلحق به مشاكل من أيّ نوع. ومهما كانت المغريات، فإنّه يفضل علاقة هادئة مع امرأة جميلة وبسيطة وصغيرة، ومدفوعة الأجر.

انتقل رشيد شهاب إلى عمّان، وفتحت معظم المشافي أمامه أبوابها، ليتفنّن هذه المرّة في أجساد النساء، يصلح الأنوف، ويرفع النهود، ويشدّ البطون، فاستطاع أن يحقّق لنفسه في وقت قصير حياة مستقرّة وراغدة.

حينما وصل الدكتور رشيد لحضور ندوة صديق عمره "كريم سعد"، بدا بسنواته السّتين أشبه ما يكون ببطل ملحمة إغريقية، يقف في نهاية المعركة، مستقبلاً الريح، يحصي خسائره، ويتفجّع على من فقد من أحبة. لم تسلبه سنوات الحرب ألق مراحل العزّ الماضية. شعره أشهب، متموّج، وممشط إلى الخلف بسالفين عريضين وطويلين، يكشف عن ملامح واضحة، عيّن داكنتين مستقلّيتين في مسار مستقيم، وبشرة حنطيّة صافية،

وأنف حادّ يتمّ على مزاج عصبيّ، ولحية صغيرة تغطّي دائرة ذقنه فحسب. بنطلونه الجينز الليفيس الأزرق، يدي تناسق قوامه العسكريّ المتين، والذي يؤكّده حذاء الشاموا البيج ذو الرقبة القصيرة، وقميص البولو الأبيض، المكويّ بعناية، ليظهر كرشه الصغيرة، وفي بنصره خاتم ذهب عريض بزفيرة زرقاء بيضويّة، يرمز إلى جامعة ليدز التي تخرّج فيها. ذلك كلّه أثار رغبة نبيلة لتكشف نوع المتعة التي يمكن أن يكثرها رجل من طراز الدكتور رشيد، متعة مجبولة بتجارب فريدة من النجاح والخوف والألم، والانكسار الذي يمكن أن يصنعه الارتحال عن الوطن في خريف العمر. كان من السهل أن تقع نبيلة في هوى الدكتور رشيد شهاب من اللقاءات الأولى بعد تعارفهما، لكن ما الذي سيدعو ذلك الرجل الباسق، ليضع قلبه في عهدة امرأة خمسينيّة؟!

* * *

فقدت نبيلة زوجها يوسف في توقيت لم يكن في صالحها إطلاقاً. كانت في حوالي الأربعين من عمرها، حيث كلّ مجازفة يجب أن تكون محسوبة جيّداً، فلا وقت لدى المرء ليعثره في علاقات إنسانيّة، قد تبدّد الطاقة الروحيّة، التي يكون الناس في أمسّ الحاجة لشحنها إيجابياً، في مثل هذا العمر.

لم تبّن صداقات جديدة، عادت إلى صداقاتها القديمة والنادرة مع زميلات الدراسة، واكتفت بمعارفها في محيط عملها

في السفارة الألمانية، والذي كان مكتظاً بعض الشيء: استقبالات، ولقاءات، ومناسبات وطنية ورسمية، ومحاضرات، وبعض الإجازات التي تسافر فيها مع يعقوب إلى ألمانيا، يبددان بها روتين أيامهما، للمضي من جديد.

على الرغم من الفراغ المؤلم الذي خلفه غياب يوسف، بقيت نبيلة صامدة، تنشئ يعقوب بعناية فائقة. كانت تعرف أن الولد تحديداً يحتاج رجلاً ليربيه، ليكون نموذجاً له، يسلمه مفاتيح أسرار الرجولة، ويطلعه على خباياها، يحدّثه عن بلوغه، واغتساله، يعلمه حلاقة الذقن، وتربيت ماء الآفتر شيف عليها، والتخفّف من شعر الإبطين، ووضع الديودرانت... يأخذه معه ليهتئ ويعزّي، ويرشده إلى ردود فعل الرجال عند الحزم واللين، ومواجهة النجاح والفشل. بمنطق يختلف تماماً عن منطق امرأة. كلّ ذلك فقدته يعقوب، وكان على نبيلة أن تعوّضه بلا انكسار، لأنها لا تريد له أن يكون نتاج أرملة، لذلك كانت تحيطه دائماً بذكريات أبيه، الوهميّة، في غالبها، وهذا أقصى ما تستطيع: أبوك فعل كذا...، قال كذا...، طلب إليّ كذا... لو كان أبوك معنا لتصرّف كالأتي... ولم تتعب نبيلة من التسويع، والتعليل، والفرضيّات....

بعد ذلك وجدت أنّ الحياة طويلة جداً، وما يزال الوقت مبكراً لتزهد فيها، ولا سيّما حين كانت تلتقط من بين عيون من تجتمع بهم، نظرات تُنبئ عن أنّها ما تزال امرأة قادرة، وعمق

النظرة في عينها وحده يمكن أن يشي بعمرها، لأنّ جسدها المعتنى به جيّداً، وحضورها الأخاذ، وأناقته الأصيل، تمنحها مظهر امرأة في الثلاثينيات.

كانت نبيلة صاحبة بشرة سمراء مخمليّة، طويلة، ومسكوبة بلا ترهّلات إلّا قليلاً ممّا فرضته السنون، والولادة الوحيدة، إذ جعلت من الرياضة نظاماً لحياتها منذ وقت طويل، عيناها بنيتان ذئبيتان، وأنفها صغير، وكذلك فمها. يُبدي شعرها القصير، والمصبوغ باللّون الخمرّيّ، جيدها المشدود، والذي تزينه دائماً بسلسلة من الذهب الأبيض، وقد علّقت بها لؤلؤة (تاهيتيّة) سوداء كبيرة، رأسها محاط بماسات صغيرة برّاقة، من ماركة "تيفاني"، لم تتخلّ عنها يوماً، منذ أن أهداها يوسف لها في عيد زواجهما الأوّل. أنيقة دائماً، ينطلقون جينز أو كتان، وقميص من الشيفون غالباً، وفوقه بليزر، تختاره دائماً بعناية، أسود، أو كحليّ، أو بيج، أو رماديّ، فوجودها في السفارة يفرض عليها دائماً أن تكون مستعدّة لأيّ لقاء عمل، أو مهمّة، أو حتّى رحلة قريّة.

يبدو أنّ غدّة نبيلة النخاميّة نشطة جدّاً في إفراز هورمون الأوكسيتوسين، الهورمون الذي يُقرّب المسافات بين البشر، فتنشأ علاقات الحبّ. وعلى الرغم من هدوئها الذي ينجح في جعلها باردة في أغلب الأحيان، وحذرها الشديد في علاقاتها الشخصية بمن حولها، فإنّه لا يأمن من يقترب منها كثيراً، من أن

يحترق بجمر ثقتها، الكامن تحت رماد اصطناعي حصّنت به نفسها. لكنّها، وعلى مرّ ذلك الوقت، بطوله، ووحدته القاسية، لم تمنح نارها سوى لرجل واحد:

فلاديمير بيريكتش، أو (دي دي) كما تحبّ أن تسمّيه، عازف كمان ألمانيّ، من أصل صربيّ، استضافه المركز الثقافيّ الألمانيّ في عمّان لمُدّة سنة، في مشروع تبادل ثقافيّ. وقع بيريكتش في غرام نبيلة من اللقاء الأوّل. كانت وقتها في حالة جموح غريبة، تتسلّق جذران الأربعين، وتشعر أنّ الأشياء التي عاشتها كلّها، ولم تدرك كنهها، كانت جميلة، لكنّها تنسرب من بين يديها: الشباب، والحبّ، والنشاط، والفرح، والجمال...

كادت تقع مبكّراً في شرك أزمة منتصف العمر، فحقّدت على كلّ شيء، على حظّها، وزواجها، وأهلها، ووطنها، وقراراتها، حتّى على يعقوب، الذي تجده السبب الرئيس في تعاسة التصقّت بها كجلدها. لكنّ بيريكتش مدّها يداً قويّة، وحانية، لتنقّذها من ذلك كلّ، ففتحت له حصونها.

فلاديمير بيريكتش الذي يصغر نبيلة بأعوام ثلاثة، هو ابن رادوفان بيريكتش، السياسيّ الصربيّ الذي كان عضواً بارزاً في حركة التشيتينيك، التي قاومت ألمانيا النازيّة وأنصار تيتو الشيوعيين، بعد الحرب العالميّة الثانية، وقد كان اسماً لامعاً في معركة التحرير النهائيّ لسرايفو في العام 1945، حينما كان في العشرين من عمره.

في العام 1951 ولد فلاديمير، وعاش محاطاً بعناية الدولة، والتي توليها بشكل استثنائي لأولاد المناضلين. دخل أكاديمية الفنون، ودرس تاريخ الموسيقى، وتخصّص في عزف الكمنجة، الذي أتقنه منذ طفولته.

حينما دخلت القوّات الصربيّة إلى البوسنة والهرسك، لضمّ أراضي الصرب إليها، وتشكيل ما عُرف بـ (صربسكا)، لم يحتمل فلاديمير ما فعله أبناء عرقه بالمسلمين البوشناق، من تنكيل، ومذابح، واعتداءات دمّرت بلاده، وحيث أنّه من صرب البوسنة، خاف أيضاً من انتقام المسلمين، فحزم أغراضه، وهرب إلى العاصمة الصربيّة بلغراد منذ العام 1992. لم يطب له المقام هناك، شعر أنّه محاط بجرائم ليس له يد فيها، وآته مدان بقتل أبناء بلده، بسبب صدفه تاريخيّة جعلته مسيحياً أرثوذكسياً صربياً، فغادر بلغراد، المكان الذي يُفترض أن يكون وطن الصرب، نحو ألمانيا، التي سطرّت العائلة تاريخاً مجيداً في مقاومتها! وجد برلين المكان الأقرب روحاً إلى بلده، فأقام فيها، وانضمّ إلى الفرقة الفلهارمونيّة الألمانيّة، ثمّ صار قائداً لها، ومُنح الجنسيّة الألمانيّة في احتفال رسمي.

مع (دي دي)، عادت نبيلة جسداً عشرينياً بخبرة امرأة أربعينيّة، وراحت تكتشف من جديد أسرار ذلك الجسد المهجور، ونقاطه الساخنة، ومحرضات اشتعاله، وما تكره، وما تحبّ فيه، وقد تبلغ نشوئها مرّتين أو ثلاث، في كلّ لقاء من

لقاءاتهما التي غالباً ما تكون صباحيّة، يمارسان خلالها الشغف، في شقّة فلاديمير الصغيرة في جبل اللوييدة، بعدها تنطلق نبيلة إلى عملها لتكون في البيت، مع ولدها، في موعدها تقريباً. صارت ترتاد محلات التجميل، واللّانجري من جديد، تنتقي أكثر القطع إغراء وحدائّة، لتعوّض ما فاتهما من شباب ومتعة، وما أن أقبل الصيف حتّى استقبلته بالسباحة، وعناق الشمس، فصار جلدها ذهبياً مثل جلد حوريّة بحر!

كان (دي دي) الآريّ الأصل، يذوب في تفاصيلها، ويجد فيها تنمّة حقيقيّة لحكايات حريم السلاطين اللّواتي خرج من أرحامهنّ، والتي كانت تحكيها له جدّته في سرايفو. دلّلتها كأميرة: كان يعدّها الإفطار في كلّ مرّة تأتي فيها لزيارته، يطعمها بيديه، يجلس بكمنجته عند قدميها الصغيرتين بشكل ملحوظ، ويعزف لها كلّ ما تحبّ: الدانوب الأزرق لشتراوس، وضوء القمر لبيتهوفن، وشهرزاد كورساكوف. كان يصاب حينما يكون معها بما يمكن تسميته (ديسليكسيا الحواس)، إذ يضع بين لونها الأسمر، ورائحة عشبة الشاي في شعرها، والبحار الشرقيّ في مسامحتها، والذي دعاه لتأليف سيرناد حارّة على شرفها، سمّاها "مسك"، يفتح بها معظم كونسرتاته.

كانت المرّة الوحيدة التي تغيب فيها نبيلة عن يعقوب، هي في الليلة التي قضتها مع بيريكتش في البحر الميت. المسّاج الذي منحها إيّاه (دي دي) كان له فعل السحر، وكان كافياً ليغنيها

عن الرجال لسنين قادمات. دلّكها برؤوس أصابعه، وبرموش عينيه أيقظ حلمتيها... كانت تسمع في تأوّهاته مواويل البلقان الحزينة، وحينما تحرّر سخونة جسدها سوائله، تنتشر رائحة غابات الألب الدينارية، رائحة توت العليق، والصنوبر، والينابيع الساخنة، وكان ماؤه الذي يُراق على جسدها كثيفاً ومختمراً مثل قشطة مصنوعة من حليب ماعز الجبل الأسود. تعود بين يديه إلى أرضها التي ما عرفتها إلا في الخرائط، وتتساءل إذا ما كان فلاديمير يشمّ في جسدها أيضاً رائحة البحر والبرتقال، ويتحسّس تلك الموتيفات المؤلمة التي تركها في روحها الاقتلاع من الجذور. كان فلاديمير يشعر، حقيقة، أنّهما متشابهان! لقد سلكا درب التحوّلات ذاته، كلاهما جاء من مُلك عثمانيّ قديم، وكلاهما قاده الاستعمار الأوربيّ إلى درب الشتات والاغتراب، ومثلما فقدت نبيلة أمّها في رحلة التهجير، قضت أمّ فلاديمير في غارة للناتو على سرايفو، ضدّ جيش صرب البوسنة في 1995. إنّها الهيمنة، التي كثيراً ما تصنع من الضحايا عشاقاً!

* * *

خلال العام الذي قضاه بيريكتش في عمّان، توتّرت علاقة يعقوب بأمّه. كانا قبل ذلك يتشاكلان، مثلما يتشاكل أيّ مراهق مع أحد والديه، لكنّهما سرعان ما كانا يتضامنان، مهما كان سبب النزاع، فثمّة حقيقة يؤمنان بها معاً، وهي أنّ كلّاً

منهما هو الوحيد الذي يحب الآخر بلا مقابل. لكن يعقوب بحسّ
البنوة الأوديسيّ، أدرك ما يربط بين بيريكتش ونبيلة. كان قد
تعرف إليه وكرهه منذ اللقاء الأوّل، كره أمّه أيضاً، وكان يلمح
لها دائماً بأنّه يعرف تماماً ما تخفيه، ويستفزّها بالإشارات الملفزة،
وبالأسئلة، وبالتابعة، وبالصراخ الذي لم يُسمع منه إلّا في تلك
الآونة، والذي تنفّلت خلاله كلمات مهينة تتعلّق بالغدر،
والخيانة، والعهر، والخداع.... يتوقّف عند ذلك الحدّ، ويجبن عند
لحظة المصارحة التامّة بعلاقتها ببيريكتش، يُغلق بعدها باب
غرفته عليه، يحتضن مجموعة الدمى الخشبيّة الصغيرة التي كان أبوه
يشتريها له من "بادن- بادن"، حينما كانوا يذهبون في إجازاتهم
إلى الغابة السوداء، ويقيمون في بيت جبليّ يطلّ على حيث ينبع
الدانوب. كان الصباح ينبلع وعينا يعقوب مسمّرتان على الساعة
الخشبيّة المعلّقة على الجدار، تلك التي اشتراها له يوسف في
رحلتها الأخيرة إلى هناك، والتي يطلّ منها كلّما اكتملت ستون
دقيقة، عصفور صغير، يؤكّد له أنّ أيامه الجميلة الماضية التي
عاشها مع أبويه كانت حقيقة لا وهمًا، فينفجر في بكاء مرير.

الليلة التي قضتها نبيلة مع بيريكتش خارج عمّان، كانت
مفصليّة في حياتها، فحينما عادت، لم تجد يعقوب في البيت. خيم
الليل، ولم يعد، وانهارت نبيلة! بحثت عنه مثل مجنونة، في كلّ
مكان يمكن أن يذهب إليه، وهو لا يذهب إلى أيّ مكان تقريباً.
كان في سنته الجامعيّة الثالثة، ولم يسهر مرّة في مقهى أو عند

صديق، أو حتّى عند أهل أبيه الذين يفترض أن يكونوا له بمثابة أجداد، والذين كان يحبّهم جدّاً. نبيلة اعتقدت سابقاً أن أقصى عقوبة قد أوقعها بها ولدها كانت حينما قاطعها شهراً كاملاً، ما كلّمها فيه ولا كلمة، لكنّ غيابة شيء آخر! بكت مثلما لم تبك في حياتها، كانت حقّاً أتعس امرأة في العالم. لقد هدمت كلّ ما صنعت في حياتها من أجل نزوة، أجل صارت علاقتها بفلاذمير بيريكش نزوة تستحقّ عليها العقاب. أقسمت أنّه ما أن يعود إليها ولدها سالماً، حتّى تلقي نفسها في حضنه، وتطلب غفرانه، وتنسى عالم الرجال إلى الأبد.

قضى يعقوب ليلته في الجامع المقابل للدار، وعاد في الصباح ثقل القلب، واجماً، فألقى أمّه وقد كبرت عشرين عاماً، محتفنة الوجه، عيناها منتفختان ومحمّرتان من البكاء، وحينما رأته زارت مثل لبوة مجروحة، واهالت عليه ضرباً، فاختلط نشيجهما، وراحا في عناق طويل.

انقضت سنة بيريكش، وحاول تمديدها فلم يفلح، وكانت نبيلة تدعو الله أن يغادر في أسرع وقت، فكانت تريد أن تتخلّص منه من غير أن تكسر قلبه. عرض عليها أن يبقى ويكونا معاً، أو أن تذهب معه إلى أيّ مكان في العالم، لكنّها رفضت. في قرارة نفسها كانت تعرف أنّ ذلك كلّّه إلى نهاية، حتّى في لحظات فرحها العارم أو نشوئها القصوى، لذا قرّرت مسبقاً أنّها ستحبّ إلى حدودها المرسومة، التي ستحميها من أن تتعلّق بأحد، أو أن

تقدّم الكثير، لا سيّما الدموع والحرقات، وبذلك يكون يعقوب قد أنهى الحلم الجميل، فأعاد جسدها كتيّباً، يغيب في ليالي عمّان، التي لا يعرف أحد قسوتها أكثر من النساء الوحيدات.

* * *

غياب يعقوب الطويل في أميركا، حرّر نبيلة. كانت تشعر بأنّ الحياة مدينة لها بالكثير، وأنها الآن ستستردّ بعضاً من ذلك الدين، وأنّ المكالمات التلفونية الأسبوعية لا تعني أكثر من أن تتأكّد من أنّه بخير، وأنّه يبني مستقبلاً آمناً. يعقوب الآن ينسرب من بين يديها إلى عالمه الخاصّ، بعيداً عنها أكثر من أي وقت مضى، له انشغالاته وصداقاته، وقريةً زوجة وأولاد، سيفرحون قلبها بلا شكّ، لكنهم جميعاً ليسوا لها. يعقوب سيكون مع امرأته، والأولاد في أحضان أبيهم. لو ماتت نبيلة في هذه اللحظة، لن يعرف أحد بموتها، ثمّ من يأبه لفقد امرأة وحيدة، اختارت أن تصير مقطوعة من شجرة، وأن ترسل ولدها إلى أميركا سنوات أربع وأكثر! قياساً على إمكانيّة موتها المونودراميّ، كانت نبيلة، وبعد أسابيع ثلاثة من تعارفهما، قد تزوّجت بالدكتور رشيد شهاب، زواجاً رسمياً لا ينقصه شيء. لم يفكر أيّ منهما بنتائج المغامرة، اتخذوا القرار بالبساطة ذاتها التي يستقرّ فيها رأي صديقين على تناول غداءهما في مطعم سمك وسط البلد! لقد كلّفها الأمر بضع لحظات من القلق قبل أن تتصل بيعقوب وتعلمه بأنّها قد تزوّجت.

تلقى يعقوب الخبر بنوع من الارتياح الذي ينمّ على تطوّر
كيانه النفسيّ. بكى قليلاً حينما تجلّت أمام عينيه صورة أبيه، ثمّ
تمنّى لها حياة سعيدة، وحينما أغلق الهاتف شعر بأنّ عبئاً ثقيلاً
انزاح عن كاهله، وأنّ القدر الذي تهدّده طويلاً وقع بلا أضرار،
فأطلق زفرة قويّة، وقال لنفسه: بذلك يكون قد صار للدكتور
يعقوب زوج أمّ، وابتسم للفكرة التي قبض على الجزء الفكاهيّ
منها.

* * *

حينما يستلقي شريف شهاب في فراشه لينام بعد سلسلة من
الجراحات التي ينكبّ عليها ثلاثة أيّام في الأسبوع، تندسّ نبيلة
بجواره محتفلة بعريّ عفويّ لجسدها الذي يتجاهل الزمن، وتجلس
نصف جلسة، تتأمّل بنظّونه الجينز المعلّق على المشجب،
وتتحسّس العقد العريضة لأصابعه السمراء الأنيقة، وتلوم نفسها
على أنّها أعرضت طويلاً عن الكرم المُغدِق للحياة، الكرم الذي
يقبع على ناصية الشارع المجاور، ولا نلتفت إليه! في الحقيقة لم
يكن بيت نبيلة يبعد عن بيت رشيد أكثر من شارع، إنّهما
يسكنان في الحيّ ذاته، في خلدا، حيث تقيم في العمارة المقابلة
لمبنى الروضة التابعة لأكاديمية ساندس الوطنيّة، بجوار كنيسة
الناصريّ الإنجيليّة، في حين يسكن هو على التلّة المقابلة لساندس
الوطنية ذاتها، لكن عند المبنى الرئيس، شرق إشارات "البشّيّ"،

هذا يعني أن أوتسترد خلدا فقط هو الذي أجّل لقائيهما طوال سبع سنوات. أن تكون نبيلة مع رشيد، فهذا يعني أكثر من أن يكون لديها ولد تهتمّ به، أو أن تعيش معها في البيت روح تؤنس وحدتها، كما يظنّ معظم الناس، والتي يمكن أن تكون بديلاً لقطة. لعلّ الأمر مختلف تماماً، حينما تبدأ من جديد بعد الخمسين، فتجد أن الحياة سهلة لدرجة أنها تستطيع ارتداء ثوب بسحاب خلفي، وأنها لا تحتاج كرسيّاً لتحصل على شالها الموضوع في أعلى رفّ في الخزانة، أو أن هناك من يناولها حبّتي البندول مع كأس الماء، ويطلب إليها أن تنام قليلاً، ثمّ حينما تستيقظ يسألها بلهفة:

- أحسن؟
- نعم.
- هل نخرج لنتمشّى قليلاً؟
- طبعاً!

لم تكن تلك السيناريوهات في بال نبيلة، نسيها تماماً، وعادت الآن لتستذكرها بوعي حادّ، وعي لمعنى أن تتزوّج امرأة برجل، فتلفي شكلاً جديداً للحرية، يمكن الحصول عليه فقط بعد منتصف العمر. نبيلة حرّة الآن في أن تنام في بيتها أو في بيت رشيد، أن تعلن عن اضطراباتها الشبقية أو أن تسكت عنها، أن تدلّل رشيد أو أن تتدلّل عليه. رشيد كان يفعل أكثر من ذلك بكثير، كان محبّاً أصيلاً، وغير متطلّب على الإطلاق، ولم يغيّر

شيئاً في حياتهما سوى إضفاء الأمن، والسعادة العميقة الهادئة، التي لا ادعاء فيها. كان كريماً في كلّ شيء، غير سيّارهما الفولكس واكن الجولف، إلى فولكس واكن "طوارق"، إذ كانت لا تؤمن إلاّ بصناعة السيّارات الألمانية، وأهداها خاتمين أنيقين من الألماس، وكانت تقول إنّ ذلك ليس ضرورياً، فيقول لها: نبيلة عيني لا بدّ، هذا أقلّ شيء!

في المساءات يخرجان معاً، يمارسان رياضة المشي التي اتفقا على حبّها من ضمن ما اتفقا عليه، يذرعان شارع "المعارف" القريب، من السادسة إلى السابعة، ثم يقفان مستندين إلى سيّارهما المصفوفة على جانب الطريق، يتأملان الشمس البرتقالية تختفي بوداعة وراء جامع "الملك حسين" في بساتين "دابوق".

في الشتاء، تحبّ نبيلة أن تقضي ليلاتها في بيت رشيد، رغم أنّ بيته يقف منفرداً في براح لا تحيط به أبنية تصدّ عنه الثلج والريح، لكنّه أكثر دفئاً. تحبّ موقد الحطب الرخاميّ الذي يلقي رشيد على منصبه المعدنيّ حبّات الكستناء، يلتقطها بملقط الجمر بعد أن تفتّح، ثمّ يقشّرها بالأصابع ذاتها التي يجدد بها جمال نساء عمّان، ويلقمها شفاه نبيلة المصبوغة بحمرة كرزية اللون، واحدة بعد واحدة، فتعترق رائحة: يكفي، فيه الكثير من الكالوريز....

لا ييالي رشيد بذلك كلّ، يحبّ نبيلة مثلما هي، يحبّ المعنى الحقيقيّ للمرأة فيها، المرأة التي تغرّبت رضيعة عن البحر، واحتفظت نصف قرن بقوة الجحداق! يلفّها بذراعيه اللتين ما تزالان قويتين:

- نبيلة عيني، شكّر تسوين!

تضحك، تحبّ لهجته العراقية العميقة...

- تسوين عمري إنت، تسوين بغداد، وعمّان، والقدس

الشريف بعدا!

تضحك نبيلة وهي تغمر وجهها في طراوة رقبتها، وتعلن

تحفظها على ورود عبارة "القدس الشريف" في هذا السياق.

لا تخمد نار الموقد إلى ما بعد منتصف الليل، حيث ينام رشيد،

وتبقى هي مستلقية على الريكلاينر أمامه تقرأ في كتب (أوشو)،

وفي قلبها غبطة يُثيرها ندف الثلج الذي يطرق على النافذة، مؤمنة

تماماً بأنّها توصّلت إلى معاهدة سلام أبدية مع الحياة.

حينما عاد يعقوب من أميركا، يحمل تخصّصه في أمراض

الدم، لم يسبّب آية قلاقل، لقد تجنّب كلّ من الأطراف الثلاثة

المواجهات، نبيلة قسمت وقتها بمنتهى الهدوء بين البيتين على

طرفي أوتستراد خلدا، وكان يعقوب قد باشر العمل فور معادلة

شهاداته في مركز السرطان، ودخل دهاليز الشغل الذي لا

ينتهي. في الحقيقة كان الرجلان اللذان يتشاركان في نبيلة،

يبادلان بعضهما البعض احتراماً أكيداً، عزّزته المهنيّة من جهة،

والرجولة الحقّة التي نشأ عليها كلّ منهما، والتي صقلتها الحياة

العربية التي هي سلسلة من الحروب. رشيد يتحدّث عن العراق،

و(إنجلترا)، ويعقوب يتحدّث عن فلسطين و(الستيتس)، ونبيلة

تصغي إليهما سعيدة بهذا الوثام الذي استطاعت أن تصنعه.

وقع رشيد شهاب في حبّ يعقوب بغريزة الأبوة المغيية. لم يفكر في حلاوة أن يكون له ابن، إلى أن رأى يعقوب، يخرج ويدخل، ويعودهما بحنان، مثلما يعود مرضاه بمهنية ونبل، فينجح في عمله، ويستقبل التحديات بشجاعة أبناء الرجال العظماء. في الحقيقة كان يعقوب يعترف لنفسه بإعجابه البالغ بتجربة الدكتور رشيد، وبخبرته الطبية، وبالمنعطفات القاسية التي مرّ بها، واستطاع الصمود من دون أن يتنازل عن أبهة الطبيب العسكري، لكن هذا لا يعني أن يُجلّه محلّ أبيه، فيوسف الشريف الذي غادر منذ خمس وعشرين سنة ليس له بديل أبداً، لكنّه لم يكن ليطمح بخيار أفضل من رشيد ليكون زوجاً لأمّه.

لم يكن الدكتور رشيد يعرف أنّ الله قد أحبه كثيراً، ليضعه في عناية الدكتور يعقوب، إلّا بعد ثلاث سنوات من الزواج بنبيلة، حين اكتشف أنّه مصاب بنوع شرس من سرطان البنكرياس، والذي لن يمّله أكثر من هذه السنة. نبيلة تعاملت مع الظرف الجديد الذي وجدت نفسها فيه، بروح مناضلة يائسة، تستمرّ فقط لأنّه ليس أمامها خيار آخر، وهي تكلم نفسها كلّما اختلت بها: "يكفي يعني يكفي"، "لا تسويات مع الحياة"، "الله وحده يعرف لماذا يحصل لي ذلك كلّ!"

كانت تجد في عناية يعقوب برشيد، ردّاً مناسباً على جميل السعادة التي منحها إياها خلال هذه السنوات الثلاث، التي عرفت فيها جيّداً معنى أن يمرّ بحياة المرأة رجل نبيل. أغدقا عليه الرعاية

الطبيّة الفائقة، والعطف الإنسانيّ، والحبّ العائليّ، وما كان يمكن لمريض سرطان أن يطمح إلى أكثر من ذلك، وبخاصّة لمريض مثل الدكتور رشيد الذي يعرف أكثر من أيّ شخص آخر مغبّة حالته، ومراحل تطوّرها السريع والمفجع، مثلما يعرف أيضاً أنّ معجزته الوحيدة التي سيكتفي بها هي أن يكون إلى جوار الشخص الأقرب إليه في ما تبقى من العالم، إنّهُ يعقوب. كانت المعرفة هذه المرّة قاسية عليهما، ولا سيّما حين بدأ رشيد يستشعر نهايته التي لن يطيق ذلّ آلامها، فنادى يعقوب إلى خلوة لا شهود فيها عليهما سوى الأرض والسماء، وعيّن الذي سوّى الأولى ورفع الثانية:

- يعقوب عيني، أريدك تحفظ آخرتي يرحم أبوك!

هزّ يعقوب رأسه بإذعان، وقبّل جبين الرجل المريض، الذي أصرّ على ألاّ يغادر بيته، فرتب يعقوب له عناية تلطيفيّة آمنة في المنزل، تضاهي ما يمكن الحصول عليه في أهمّ المراكز الطبيّة.

مثل فارسين خارجين من كتاب سيّر من القرون الغابرة، عاهد الدكتور يعقوب زوج أمّه على أن يمنع عنه العذاب المهين، ولم يخلف عهده، فبعد أن تثبّت من غيبوبته التي لا رجعة منها، سحب عنه، بمهنيّته المعهودة، أجهزة الوظائف الحيويّة، فخفّف ضغط الأوكسجين، وثبّط عمل عضلة القلب، وأخضعه لما يُسمّى بالموت الرحيم.

جنّ جنون نبيلة، لا للفقْد المفجع الذي كانت قد استعدّت له، بل للجريمة الباردة التي اقترفتها يدا وحيدها. أذهلها أن يكون

بين الطبيب والقاتل فرق ضئيل يدّعيه العلم. قالت له وقد علا نحيبها وصار مثل خوار بقرة مذبوحة: ليس في ديننا ولا في قانوننا هذا الإثم الأكبر الذي ارتكبته. كان يمكن أن تنتقم منّي بطريقة أكثر رافة بسي وبك، القاتل يقتل يا يعقوب، وليس لي قدرة على أن أفكر في أن أفقدك.

كانت تعلم أن يعقوب لا ينتقم، وأنها تلقي بالكلام جزافاً مثل المجانين، لكنها خائفة على ولدها من نفسه، ومن عقاب الله، خائفة من الجريمة الكاملة. يعقوب أخذ عزاء رشيد ثلاثة أيام، واكتفى بالصمت. لا يمكن أن يشرح لها ما حدث، إنهما الآن عقلان مختلفان في إدارة الأزمة، ومعتقدان لا يلتقيان بآية حال، ونبيلة لا تعرف السرطان كما يعرفه هو، ولا تعرف ماذا يصنع بأجساد البشر وبكراماتهم، ولا تعرف أن ما قام به كان وفاء لعهد بين رجلين شجاعين، وبين طبييين استثنائيين، وإجراء عادياً قام به مراراً في مشافي أميركا.

نبيلة تعيش محنة الفقد، وألم الطعنة الذي لن يطيب أبداً، طعنة الدنيا التي لم تنصفها يوماً، وأجهزت عليها بأن خطفت منها رشيد الذي كان أكثر من صخرة، وأكثر من فرح، وأكثر من عزاء. باتت تخشى حقاً من أن هذه الدنيا التي لا تكفّ عن الغدر، لن تتورّع من أن تحرمها ولدها، الذي صار يرجوها أن تتخلّى عن بضعة أفكار موروثه ليس لها وجود سوى في مغارة خوفها، وأن تبدّلها بما تعلّمته عن هيغل ونيتشة وشوبنهاور، وإلاّ

سيودي بها الرعب إلى مستشفى المجانين. صارت علاقتهما باردة، نبيلة اختبأت خلف جدار اليأس، ويعقوب اختفى وراء صمت كثيف، وكأبة لا تليق برجل أربعيني، لكنّه وجد ألّا طائل من بذل أيّ جهد للتغيير، وأنّ الزمن وحده كفيل بمعالجة هذا الصدع غير المسوّغ إطلاقاً.

في هذا الظرف المرهق، الذي يعيشه الدكتور يعقوب، كانت هانية قد وصلت إلى المراحل الأخيرة في علاجها، وعادت الحياة لتدبّ في جسدها الحلّو من جديد.

روليت روسي^٣

قالت هانية:

كانت جلسات الكيماوي قد مرّت بكثير من التعب والضيق، بسبب شقاء فكرة السرطان، لكنني كنت أقاوم، لم أستسلم! خمس جلسات مضية لم أستسلم فيها ولا لمرة واحدة. الورم كان في رقبتي، هنا على اليمين.

نظرت حيث أشارت فلم أجد له أثراً!

اختفت كتلي الصغيرة منذ الجلسة الأولى. في الحقيقة، لم أتألم كما يصف الناس آلام السرطان، ولم يؤثر في الكيماوي كثيراً، كما تفرض روايات الآخرين. ربّما لأنني أخذت قراراً بـ لا أتألم! الألم هنا، وأشارت إلى رأسها، هنا في العقل.

لا يمكن لرجل أن يقاوم جاذبيّة هانية، إذا كنت أنا امرأة ومريضة، لا أستطيع تحويل نظري عنها كلّما تحرّكت أو تكلمت! حركاتها رشيقة، وموقّعة، ومتوازنة مثل غزلان البريّة، في حين أنّ حركات بقيتنا توغل في الفوضى والتخبّط. ملاحظها ثابتة وقويّة، زادها تخطّي المرض حدّة، وهناك في الداخل براكين تنفث حممها من حجر العينين، ومن مسامات الوجه، ومن الشفاه الممتلئة الرّيانة التي لم يحرقها الكيماوي الموكل بأن يحفّف الماء في العروق حتّى تضمر.

قالت:

استعدت صبحتي سريعاً، كل شيء عاد بعد آخر جرعة،
لوني، شعري الذي بدأ ينمو، دورتي الشهرية... نظرت في عيني
نظرة عطف مطمئنة: لا تخافي، سيعود كل شيء أفضل مما كان!
هزرت رأسي مع نصف ابتسامة، أطلب منها أن تزيد في
الحديث، لقد كانت إيجابية، وكنت بحاجة لسماع الإيجابيين.

- هل أنت محجبة أصلاً؟

- لا.

- هل سقط شعرك كله؟

- لا أعرف، حلقتة قبل أن يسقط.

- لماذا تغطينه؟ انزعيه، واجهي الظرف واستمتعي
بالتحوّلات، اتركي مرضك في عناية الشمس والريح،
ذكرّي جسدك بالحياة، ليصلح الخلل الذي حدث
فيه.

سكتُ، إنها محقّة، أخفي رأسي الأصلع عن من؟! لا أحد
يعرفني في هذه البلاد، لكنّه النمط، الخشية من النظرات المحدّقة
التي تذكّرني بمرضِي إذا نسيت لثانية واحدة. المحجّبات يتجاوزن
جزئياً مسألة الشعر، أنا لا يهتمني سوى ناصر الذي يقول إنني
أبدو أجمل، وأنّ الشعر يصرفنا عن ملاحظة جمال الوجه، ومن
تملك وجهاً جميلاً عليها أن تتخلّص من شعرها حتّى في الأحوال
العادية كي يتأمّل المرء براءة عينيها، وأنفها العنيف، وفمها المحير

الذي لا يمكن لنا أن نراهن على كونه من لحم حيٍّ أم من
ياقوت! ناصر يبالغ بشكل مزعج، وأنا لا يسعني أمام كلامه
سوى البكاء.

"حنان" المريضة التي التقيتها في إحدى الجلسات الطويلة التي
كنّا ننظر خلالها أذوارنا للقاء الطبيب، كانت محجّبة، قالت إنّها
لا تستطيع نزع غطاء الرأس في البيت، لا تريد لزوجها أن يراها،
ولا أطفالها، وأنّها استطاعت لمدة سنة كاملة أن تخفي رأسها
الأقرع عنهم جميعاً.

قالت هانية:

الرقص هو الذي أنقذني، الرقص يشفي... تعرفين زوربا؟
- طبعاً.

- زوربا قال: "عندما مات صغيري ديمتري، وقفت هكذا
ورقصت، وصار الناس يصرخون: لقد جنّ زوربا!
لكنني أنا في تلك اللحظة لو لم أرقص، لجننت من
الأم". هذه العبارة، مدوّنة في مقدّمات كتب الرقص
الحديثة كلّها، فالرقص نقول بأجسادنا ما نعجز عن
قوله بأفواهنا. حينما جيئت إلى هنا للمرة الأولى،
صادفت شاباً كان قد أنهى علاجه وجاء لمراجعة دورية
لدى الطبيب، فسألته أسئلة المرضى الجدد ذاقها، قال لي
وقد وجدته عفيفاً، إنّ المرض بسيط، أبسط من نوبة
حبّ، وإنّ حبيبته التي تركته آلمته أكثر من المرض

بكثير، الله يرحم، والبشر لا يرحمون. من يومها لم
أعد أسأل أحداً، فقد آمنت بالشفاء. إذن، ما هو
عملك؟

حكيت باقتضاب، فنظرت إليّ بابتسامة متأسية:
- هذا المرض يختار (الإيليت)، النخبة، يقولون هو حسد،
عين!

نظرت بدوري إلى مريضة أخرى تجلس قبالتنا، وتتكلم
بتلفونها، ومعها ابنتها، البنت صغيرة في السابعة أو الثامنة. سمعتها
تقول لمحدثها. إن البنت لم تذهب اليوم إلى المدرسة كي تأتي إلى
المشفى مع أمها، فالمرأة عمياء! من سيحسد عمياء لتصاب
بالسرطان يا ربّي!

ما تزال هانية مشاءة جديدة في مدارج التجربة، مأخوذة
بالفنون، وبكلام مدرّسي الحياة، وكتب تنمية الشخصية، وتريد
لجسدي أن يحكي وهو يدوي ويموت! كانت متحذقة أكثر ممّا
ينبغي لمريضة سرطان قد وطئت قدماها هذا العالم الذي لا
تستطيع حتّى الشمس إنارته، أو أنّي كنت أبالغ في آلامي
وبؤسي، لكنّ الطبيب كان يقول في كلّ مرّة، إنّ كلّ حالة قائمة
بذاتها، ولا تشبه الأخرى، لذلك لا يسمع أحد عن خبرات أحد
شيئاً.

* * *

العالم ينقسم إلى فريقين فحسب، فريق المرضى وفريق الأصحاء، لا معايير أخرى لديّ، لا ثقافيّة ولا مادّيّة ولا جندريّة، وأنا أحسد الجميع على صحتهم، ثمّ أراجع فأغبطهم.

من الخطوات المبكّرة التي اتخذتها أساساً لهذه المرحلة، اختراعي قاموس الأدعية الخاصّة بي، جمّعته من أدعية الأنبياء والمحتاجين والمضطّرين والشحّادين، وأردّده بلا انقطاع: الله لا إله إلّا أنت سبحانك إنّني كنت من الظالمين، اللهمّ بحقّ اسمك الأعظم الذي سمّيت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو احتفظت به في علم الغيب عندك، أن تشفيّني شفاء تامّاً عاجلاً لا يغادر سقماً! وعلمّني ناصر أن أتمم: فإنّك على كلّ شيء قدير، وإنّك بالإجابة جدير، وإنّك حسبي ونعم الوكيل. اللهمّ اجعلي على البلاء صبورة، اللهمّ إنّني مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين...

هكذا أستعيد بعض طمأنيني، لكنّ مراجعات حياتي تمضي بسرّيّة تامّة بعيداً عن ناصر، أتهيّب من أن أحكي هواجسي كلّها فأفقدّه، وكلّ يوم أسأل: لماذا ناصر معي؟! الأجدر به أن يكون مع امرأة بكامل صحتّها وبهاثها، سعيدة ومفرحة، تأخذه معها إلى مركز الحياة حيث الطاقة والقوّة والحبّ، يسافران معاً، يسهران معاً، يذهبان للندوات العلميّة وللتبضّع ولعروض السينما والرقص! لماذا وهو في الخمسين برجلته الآسرة، وعليه أن يجني ثمار جهود طويلة، وصبر، وحياة ماضية غادرها، يرهن ذلك لامرأة في محطة ترانزيت إلى الموت، تقضي اليوم وهي تراقب

خلاياها التي تموت وخلاياها التي تولد، مراقبة الخلايا متعبة، لا يفكر فيها غيرنا نحن الذين نخضع للعلاج الكيماويّ.

تأتي إجابات ناصر أكبر من أسئلتني التي لا يعلم بها! قال لي مرّة: إنّ من رحمة الله أنّي أصبت أنا بالمرض لا هو! جفّلت، ثمّ أدركت أنّ وراء قوله حكاية، قال:

إنّ سلطة الانتداب البريطانيّ كانت في يوم ما، قد منعت الاتجار بالتبغ، وجرّمت بالحبس والغرامة من ستجد معه علب الدخان، وكان جدّه مدخناً شرهاً، وقد اشترى في يوم أربعة كروزات من علب السجائر، وحملها في سيّارته، يرافقه ابن أخ له في حوالي العشرين من عمره. أوقفته دورية، وفشّشت السيّارة، ووجدت الدخان المهرب، فادّعى الجدّ فوراً أنّها لا تخصّه بل هي للشاب الذي أخرسه المفاجأة، فهو لم يعهد عمّه، الرجل الذي يحسب الجميع حسابه، جباناً أو كذاباً أو مدلساً، ليوقع به. ذهب الشاب إلى الحجز، ولكن ما أن أمسى المساء حتّى كان عمّه قد وسّط معارفه جميعاً فأخرجه من التوقيف ليكون بين أهله على العشاء. عاتب الشاب عمّه غاضباً، فقال له: يا بنيّ! أنّ تدخل أنت السجن فأعرف كيف أخلّصك، أفضل من أن أدخله أنا فلا تعرف كيف تخلصني!

لم أكن سأتمكّن من مساعدة ناصر، ولا بجزء ضئيل من القدر الذي تدبّر به أمري، وإنّ كلّ ما يقوله صحيح، أمثولاته كلّها في مكائها، تفيض حكمة، لكنّ أسئلتني تندافع باتجاه واحد:

لماذا عليّ أصلاً أن أمرض، حتّى يضطرّ ليكون معي؟! لماذا يمرض أحدنا! ألم يكن من الممكن أن نبقي أصحاء، وما الذي سيخسره أيّ أحد في العالم لو بقيتُ عقيّة بلا سرطان! الاتصالات التي كانت مقطوعة منذ شهر عن الرقّة عادت، فكلّمتني جود فوراً، قالت:

- ما الذي سيخسره الناس لو بقيت سورية بلا حرب!
- لا أستطيع التفكير بالحرب، أريد أن أتنفّس، أن أقوم من مكاني كما يقوم الناس عادة.
- نحن الآن تحت القصف.
- تنفّسون، في أجسادكم قوّة كافية لتتقلّكم من مكان إلى آخر، من غرفة الجلوس إلى القبو، حيث تلجؤون عند الغارة. أمّا أنا فلو جاء ذبّاح الآن ليدبحني، فليس بي طاقة لأقوم من مكاني، سأخضع لسكّينه فحسب.

* * *

دخل البيت وفي يده أكياس ورق كثيرة، أخرج الأشياء بحماس ونثرها أمامي. كانت ملابس رياضيّة من أديداس وريوك، بنطلونات قطنيّة، وقي شيرتات، وسويترات، بألوان هادئة، مع حذائين مطّاطيّين أنيقين، أحدهما أسود والآخر أبيض. هي أشياء مفرحة لأيّ شخص في غير مكاني، كان ناصر مثل أب يحمل الهدايا لأولاده، يرغب في أن يرى الفرحة والامتنان في عيونهم:

- أريد أن تسير حياتنا بهدوء يا جمان، وأن تكون أيامك
كما كانت دائماً، مرتبة وأنيقة ومترفة، ولن نهمَل
أنفسنا، سنحافظ على هذا الجمال الذي سنحتاجه
طويلاً طويلاً، سنأسر اللحظة التي رأيتك فيها إلى الأبد.
أقول في نفسي:

- ياااه يا ناصر كم تأخّرت في مجيئك إلى حياتي، ليتك
عرفتني قبل هذه الأشهر السوداء، ربّما كنت ستغدو
أسعد رجل في العالم! والآن تريدني أن أواجه موتي
بأناقة وترف...

قَبْلته في خدّه قبله امتنان، وأمسكت دموعي، إذ عاهدت
نفسي بعد البكاء الطويل الذي ارتكبته في الأيام الأولى، ألا أبكي
أبدًا، وألا أتفجّع، وأن أتوقّف عن رثاء شبابي، فما يجدر
بالدكتورة جمان بدران، هو أن تنتقل من مستوى الشكوى إلى
مستوى الامتنان، وأن تواجه قدرها مثل فارس اختاره الله ليتبارز
مع خصم محتوم، وعنيد. أمّتُ أن أرسل الله ناصر، يمدّ لي يديه في
هذه الظلمة، التي بدا أنّها ستأخذ وقتاً طويلاً لتنقشع.

حدّثنا أمّ ماري، جارتنا الأرمنيّة، التي كنّا نناديها بالجدّة،
يوم موت زوجها، قالت: الله لن يتركني، لقد كان معي دائماً
مثلما كان مع أمّي، فأُمّي التي فقدت أهلها في المذبحة، جاءت إلى
الرقة مع قافلة عثمانيّة تسوق النساء الوحيدات، ليصرن سبايا
وفاعلات، هربت مع بعض رفيقاتها، ووصلن البلدة الصغيرة،

استضافها أهل هذا الحيّ، أطعموها وسقوها. كانت تصلي طوال الليل، وتقول حائرة: يا إلهي لماذا تركتني! سمع دعاءها أحد المتّقين، فحكى لها حكاية المرأة التي حملها الله، المرأة التقيّة التي كانت تصلي، وتطعم طيور السماء من رغيفها الوحيد، وكانت حين تمشي على شاطئ البحر تلتفت خلفها فتجد آثار أقدام أربعة، وتتساءل عن سرّها، فيأتيها الجواب: إنّ الربّ يمشي معها، ويتابع خطواتها، وحينما مرضت بمرض شديد وابتأست، مشت على الشاطئ ودعته، والتفت فلم تجد سوى آثار قدمين اثنتين، فقالت: يا ربّي لماذا تركتني في الضّرّ، أين قدماك اللتان كانتا معي وقت السلام؟! لم أتركك، قال لها: أنا هنا، لكنني أحملك، وتلك آثار قدمي على الرمل، انظري جيّداً، قدماي لا قدماك. بعد أيام تقدّم أبي لخطبتها، كان حذاءً فقيراً، لكنّه أحبّها، فقدّ أهلّه أيضاً في الحرب. عاشا سعيدين، قنوعين، يتناسيان ماضيهما المؤسف في النهار، ليعود في الليل كوابيس حيناً، وحناناً، وعشقاً دافئاً أحيان كثيرة، وفي الأعياد يصير صلوات ورقصات حلوة، وعشت أنا مع (أبو ماري)، ومعكم كلّ هذ العمر، لكن بذكريات أبعد، وفرح أكثر، ورزق أوفر، وفي كلّ حال الله لا يتركنا، لا يتركنا أبداً.

* * *

انعقدت بيننا صداقة قويّة، واستقبلتني هانية مثلما يستقبل
بحار قديم مراكبيّاً مبتدئاً، لم يتعد كثيراً عن الشواطئ، يعلّمه
قراءة مزاج الموج، وخرائط النجوم، ومواسم الريح. صداقات
مرضى السرطان عتيّدة، فليس وراءها غاية أو مصلحة، هدفها
تخفيف السابقين لآلام اللاحقين، والأخذ بيدهم، وطمأنتهم.
كلّما اعتراني اليأس كنت أهاتف هانية، وكلّما طرأ تغير على
حاليّ أكلّمها:

- هل كان نظرك يتأثر، ترين الأشياء متداخلة؟
- طبعاً، الكيمو يفعل كلّ شيء، يؤثّر في النظر وفي
السمع، وفي الروح أيضاً. لا تصغي إلى جسدك الآن،
فكلّ الإشارات التي يرسلها خاطئة، اتركيه يتفاهم مع
الدواء، وبعدها سيجد الإيقاع وحده.

- متى سأشفى؟
- عندما ينتهي العلاج.
- وسأصير مثلك، أمشي بلا دوار، بلا شياطين تضرب
في رأسي، وأتنفّس من غير أن أفكّر بالشهيق والزفير،
ورثتي ستتخلّص من الآفة التي لا تتوقّف عن عضّها ليل
نهار؟

- ستصيرين أفضل منّي أيضاً!
أريد أن أصل مرحلتها لا أطمع بأكثر، فقد بلغت المنتهى،
كلّ شيء فيها طبيعيّ وصحيح.

- هل قال لك الدكتور يعقوب شيئاً عن وضعي؟
- لا طبعاً، يعقوب لا يتكلم عن مرضاه إطلاقاً. ثمّ إنّه لا يخفي عنك شيئاً، إذا قال لك إنّ وضعك في المسار الصحيح، فهو يعني ما يقول حقّاً.

هانية لا تشبهني، مطمئنة وهادئة، الطبيب شخصياً معها، يهتمّ بها، وينام إلى جانبها، ويجب عن أسئلتها، ويحيطها كلّ الوقت بعنايته الفائقة، في حين تأكلني الهواجس، ولا أجد إجابات شافية، وفي المرّات القليلة الدورية التي يمكنني فيها أن ألتقيه، أسأله سؤالاً واحداً يفضي إلى آخر: هل سأشفى تماماً؟!

- إن شاء الله.

- هل سيعاودني المرض ثانية؟!

- نأمل ألاّ يفعل.

جواب يحبي، وجواب يقتل، في حين تستطيع هانية أن تنتزع منه الجواب الذي تريده، فأعود إلى ناصر لأخذ جلسات تأملية عن أساطير الخلق، وأسرار الأرض والسماء، أستنبط منها إجابات غير شافية أشبه بالتأويلات. أريد من يقول لي: سأشفى تماماً، ولن أمرض ثانية، وسينتهي هذا الكابوس وسيصبح ذكرى. "تامي" الخادمة وحدها التي تقول لي ذلك.

* * *

بعد الجلسة السادسة بأسبوعين، أجريت الصورة الطبيّة،
وذهبت إلى موعدى المعتاد مع الطبيب. دخلت غرفته، على
كرسي الجلد الأسود أمام طاولته. كلّ شيء من الحجم الصغير
حتى الطبيب نفسه، لكنّ الأمل يكون كبيراً. يجعلني دائماً
أنتظره، يدخل متأخراً قليلاً، وبطريقة احتفالية! لا يهمّ فليحتفل
بأنه المتضخّمة، فهي تستحقّ حينما يحمل لنا البشرى، بل
سأحتفل بها معه، في هذا المكان الذي أراه مثل زنزانة منفردة
لنزيل محكوم بالإعدام، تفوح من زواياها رائحة الموت، وعلى
ستارها الرماديّة تُعرض صورٌ لعذاب القبر، لكنّ هانية تراها
مقصورة عشق، تعمّرها قبلات نهمّة، وملامسات حارّة. أريد أن
أسألها عن التفاصيل، وعن كيف يفرّق الطبيب بين جسد يعالجه
ويحبّه في آن معاً، لو سألتها ستحكي كلّ شيء، فهي غير
متحفّظة تجاه ذلك أبداً، لكنني أتوقّف، فالآلهة إذا هوت لا تقوم
ثانية، وأنا لا أريد للطبيب أن يكون بشريّاً، كي أضمن على
الأقلّ خيلاً للشفاء.

الشحّادة التي تقف خارجاً، صاحب عربة القهوة على
رصيف المركز، الزبّالون، العابرون، المعثرون، كلّهم يراهم مريض
السرطان أوفر حظّاً منه، ويعود ليسأل: ما الذي فعلته يا إلهي
لأستحقّ هذا الابتلاء! ويأتي الجواب من الذين لم يكتنوا بنار
التجربة: امتحان، لا تضيّعوا أجره، حسنات، تكفير سيّئات...
آية سيّئات هي التي تصير ورماً قاتلاً!

بعد ذلك نكتشف ما استعجلنا الحكم عليه، إذ يرى المريض الرحمة كلّ حين تنبجس من الأرض، أو تنشقّ عنها السماء، وتحيط به من كلّ جانب، ولا أحد غيره يشعر بها. نظر في تقرير الصورة أمامه، شعرت به مرتبكاً لكنّه سعيد، مثل من ربح مقامرة، قال لي: الورم الذي كان عندك، انتهى. أحبطته بطريقة تلقّي الخبر، ففرحتي كانت مختلفة، إذ لا يعني انتهاء الورم نهاية درب الآلام، هذا هدف مرحليّ، وأمامي أشواط أخرى، لكنني سأتابع العلاج باطمئنان، أناور على الغموض، على آية خلّية مختلة اختبأت في مكان ما من صدري، لذلك قرّرنا أن آخذ جرعتين إضافيتين، أي اثنان وأربعون يوماً من الجحيم، ستمرّ كما مرّ ما قبلها، لكنّ الأشواط الأخيرة هي التي تفصح عن المعنى الحقيقيّ للصبر، والمفاجآت المحتملة ستكون مريعة.

* * *

قالت هانية: أصبت بالسرطان، ووقعت في الغرام، وضحكت ضحكتها المغوية...

أنا أيضاً وقعت في حبّها، وصرت أشتاق إليها، وأنتظر لقاءها، فهي من بقايا الحياة الجميلة التي تخلّت عني. جلسنا في صالة المبنى الرئيس الواسعة، الصالة الزرقاء التي تصطفّ فيها المقاعد الجلديّة السوداء، متقاطعة طويلاً وعرضاً. ركبت كلّ منّا إبرة (كانيولا) في الوريد النافر على ظاهر الكفّ الأيمن، وجلسنا نتناول زجاجات الماء

المرء، وعلى كلِّ منّا أن تنهي زجاجتها في غضون ربع ساعة، قبل أن تستلقي تحت جهاز التصوير الطبقيّ، الذي يشبه أرجوحة في مقبرة: تنفّسْ بعمق، واكتم أنفاسك... يمكنك التنفّس الآن...

ثمّ يأتي المختصّ ليسكب في الإبرة المركّبة في اليد قطرات المادّة الملوّنة، بمجرد أن ينتهي يكون ماء النار قد أحرق الحلّق، وعروق اليدين، وأعضاء التناسل.

الإبرة تؤلم الأطفال فحسب، يصرخون، يكون لأنّهم لا يدركون ما ينتظرهم، لا يدركون فداحة الخطوة التالية، وفكرة الموت غير واضحة في عقولهم. المعرفة مؤلمة، والأهل معذبون بأولادهم. شكرت الله أنّي بلا أطفال، وأنّ ماما ماتت قبل أن يكون مرضي سبباً لشقائها. حتّى الآن لم أعالج فكرة الحرمان من الأمومة، سأفكّر بها لاحقاً، فالفكرة المحوريّة بالنسبة إليّ هي الشفاء، وعودة النّفّس الطّبيعيّ، ثمّ عدم معاودة المرض، وبعدها يمكن التفكير بإصلاح بقية الأضرار، لكن أن يكون الكيماوي قد أحرق مبايض، وقضى على دوريّ الشهرية، وحرمني الحمل والولادة، فتلك خسارة فادحة، سأنفجّع عليها مستقبلاً لو حصلت. كنت أحلم بأن تكون لي طفلة بضعفرتين بنيتين، وولد أوديسيّ يغار عليّ من أبيه!

لينا السيّدة الأربعينية التي التقيتها في واحدة من ساعات انتظار المعاينة، قالت لي: إنّ أقسى ما واجهها هو فكرة حياة بنتها الوحيدة بعدها، بنتها ذات السنوات العشر:

"البنّت بحاجة إلى أمّ تحنو عليها، وتقدّم لها وصفات جاهزة للحياة، من سيذاكر لها دروسها بطريقيّ الجادّة والمفصّلة، التي أجعلها بها تتجاوز إخفاقاتي السابقة! ومن سيحدّثها عن البلوغ، وكيف ستصرّف حينه بلباسها، ونظافتها، وكيف ستداري نفود ثديها وأردافها، وماذا عليها أن تأكل أو تتجنّب لتحافظ على الحديد في جسمها، من الذي سيهتمّ بخذلائها ويأسها وعواطفها... فكرت في أن أكتب لها وصايا، أو ملاحظات، لكنني في النهاية وجدت سبيلاً لأواجهها بهذه التفاصيل كلّها. حدّثتها عن كلّ ما رغبت بقوله، جلسات طويلة قضيناها في شفافيّة متناهية، شرحت لها كيف تتجنّب التئمّر والتحرّش، عليها أن تملأ الدنيا صراحاً، وتبلّغ ضدّ المعتدي، وقبل ذلك ألاّ تأمن لأحد، وتتجنّب الأماكن المنعزلة، والملابس المكشوفة، والممرّات بين رفوف السوبر ماركت، وأن تتجنّب الملامسة الجسديّة مع البنات مثلما تتجنّبها مع الأولاد، ويمنع منعاً باتاً المبيت خارج البيت عند أيّ كان... لكنّ الحياة كريمة، إذ سمعت وساوسي، ومكّنتني من أن أشهد لحظة بلوغها، وأن أكون معها. لقد بلغت باكراً، وفي تلك المرحلة ذاقتها. مرّ على ذلك سنتان، وأنا الآن أفضل، وأرجو ألاّ يعاودني المرض لأكون معها دائماً، أرى الحياة في عينيها، وأسندها كلّما احتاجت إلى ذلك، المرض مع الأولاد أقسى وأمرّ!

يمرّ الوقت وأنا أراقب الجلوس، ثمّ أنتبه إلى ملاحمي متشنّجة، ولو نظرت في مرآة لوجدت وجهي في غاية البؤس. السرطان

مربوط بالموت، الجميع يصرّ على تأكيد الفكرة. أنظر إليهم واحداً واحداً، كلّهم أشقياء: المؤمنون، والمستسلمون، والمتذمّرون، والكفرة، والرجال، والنساء... وأبدأ في ممارسة لعبتي الإجباريّة، من سيموت منّا قبل الآخر، من الأقرب إلى الهاوية، من سينجوا لكلّ منهم حياة وعائلة وأحبة، ماذا يفعلون حينما يعودون إلى البيت؟ أنظر إلى ملابسهم البائسة، كلّهم لبسوا على عجل، جلايب صيفاً وشتاء في الغالب، أو بيجامات رياضيّة، النساء يغطّين رؤوسهنّ، ومن لا تفعل يمحّطها الجالسون بالنظرات ليختمّوا إذا ما كان الشعر طبيعياً أم مستعاراً، وإذا ما كانت الحواجب مرسومة، أم ما تزال صامدة، ولا يجروّ كثيرون على الاستفسار. المتمرّسون لا يسألون، المتبتّثون هم الذين تراودهم الأسئلة، فالسؤال قد يعني أملاً، بالاحتماليّة نفسها التي قد يعني فيها ألماً وخيبة. مقعدي هنا بين الذين اصطفاهم الله للألم، المتآزرين، الذين طهّرتهم التجربة من خبائث العالم، يحبّون بعضهم، يحترمون عذاب بعضهم، ويؤمنون بأنّ الله اصطفاهم لأنّ فيهم سرّاً كامناً، وليسوا بشراً عاديين.

الذين يضحكون أو تعلو أصواتهم، ليسوا مرضى بل مرافقين. المرافقون وقحون، متجّحون، ينظرون بشفقة، ويستعيذون بالله سائلينه المعافاة ممّا أصابنا، يفعلون ذلك في وجوهنا، ويدعون لنا بالشفاء بوقاحة، لا يعرفون الحسرة التي تسكن كلّ خلّية من خلاياي التي تتأّهب للموت، وبعد يومين أو

ثلاثة ستموت، لكنّها ستورّث ذاكرة الألم للخلية الوليدة الجديدة.

حينما يرّن هاتف أحدهم، ويجيب وأسمع صوته، تغلّيني دهشة. هل يرّد الموتى على التلفون! لكنّه لم يمت بعد. سمعت امرأة، جاءت لتراجع الطبيب، تحدّث ابنها عن وليمة أعدّها بالأمس لأقرباء، ذهلت، وسألته:

- هل شفيت والدتك؟
- منذ سنوات ثلاث، الحمد لله.
- الحمد لله.
- تعاني فقط من آلام المفاصل بسبب الكيماوي.
- الحمد لله...

اعتراني جذل غريب، مثل الجذل الذي يبدو على وجه رجل اعترف للتوّ لامرأة بأنّه يحبّها، ومضى في طريقه غير آبه بالردّ.

* * *

وجدتها بائسة، أوّل مرّة أرى البؤس على ملامحها، هانية جميلة حتّى في بؤسها:

- لماذا تصرّين على إبقاء شعرك إبريًّا هكذا، مادمت شفيت فعليك أن تتخلّصي من مظاهر المرض!
- هكذا أحلى، "تريندي" أكثر، حتّى إنّ كلّ الذين لا يعرفون وضعي تذهلهم جرأتي كما يقولون، وإنّ قصّة

الشعر هذه تحتاج إلى امرأة تثق جداً بجمال وجهها،
خاصة حينما أرقص...

- خائفة من الصورة؟ قلقة؟

- أكيد، أقلق في كل مرة، أستعيد التجربة من أولها،
وكلّما رأيت وجوههم تذكّرت وجهي، وأنت أيضاً
حينما تشفين، وتأتين لفحوصك الدورية، سيعتريك
القلق، لكنّه سيتبدّد بعد قليل، ويعود عند كلّ نزلة برد،
لنكن واضحين: سيرافقنا القلق دائماً... نخشى المرور
بالتجربة مرّتين، ليس القلق وحده، أشياء كثيرة
ستعترينا، نحن بعد السرطان لسنا كما كنّا قبله، لكن لا
تخافي لن يعاودنا ثانية.

- أرجو ذلك. إن شاء الله. أريد أن أشفى أولاً، بعدها
سأفكّر بالخطوة التالية، معاودة المرض أو الخلاص منه
فهايّاً.

لم أسألها إذا ما كنّا سنكون أفضل أو أسوأ بعد التجربة،
كلّ ما أعرفه أنّي أمقت التجربة، وأتمنّى لو أنّها حادت عن
طريقي.

- حالتي مختلفة، متعبة، الورم يكبل نفسي، والصراع الناتج
عن العلاج يزيد حدة المعركة في رئي التي قالت عنها طبيبة
الأشعة إنّها صغيرة، لو كانت أكبر لكانت أرض المعركة
أوسع! وأنت معك الدكتور يعقوب لحظة بلحظة...

- وأنت معك الدكتور ناصر لحظة بلحظة، ثم إنَّ يعقوب لم يكن معي منذ البداية، تقاربنا قبل جلسة الكيماوي الأخيرة بقليل، حينما ظهرت ملامح الشفاء، وبدأت أنفاعل مع الحياة من جديد. كانت معي أمي، بعدها رجوتها أن تعود إلى سان فرانسيسكو، لديها عمل، وأنا بتّ مرتاحة، عندها أخذ ظلّ يعقوب بالتمدد في حياتي...

قالت: يعقوب! وعلت ملامحها ابتسامة مطمئنة، فصارت تشبه باقة زهور تلتفّ على بعضها من الشغف.

- لماذا مرضنا؟
- لأننا استجبنا لنداء الجسد.
- طعامي كان صحياً، وأمارس الرياضة بانتظام!
لوت شفيتها إشارة إلى الحيرة:
- السرطان بطاقة إنذار أخيرة يرفعها الجسد في وجه صاحبه. قبل ذلك نبّهك مرّات وبطرق ألطف، فانشغلت عنه، وتركته تحت سيطرة إهمالك وقسوتك، فتمردّ. لم نفكرّ به وحده، افهمكنا بالآخرين، بأجسادهم، وبرغباتهم.

- أنت الراقصة، الرشيقّة، ألم تخدمي جسديك!
- ليس من أجله، من أجل الرقص، من أجل معايير الآخرين. لم أفكرّ يوماً أن أمكث في البيت من أجل

جسدي، أن أكل من أجله لا من أجل أن يحملني، أن
أحتفظ به جميلاً من أجل حبيبي، أو من أجل إرضاء
أنوثتي لا من أجله هو! ألا تقضين الوقت في المخيمات
من أجل أجساد الآخرين...

تذكرت المرات التي لم أنم فيها، لم أكل، المرات التي بكيت
فيها، قلقت، فقدت أعصابي، خفت، انبجس شيء في صدري
من الذعر، هل يمكن لفرد أن يعيش في عالمنا فلا يمرض من القهر!

* * *

مرّت الجلسة السابعة على خير، وبعد الخضوع للجرعة الثامنة
بأسبوع، انطرحت في الفراش، وارتفعت حرارتي، ولم أعد أتمكّن
من الصمود. استسلمت لعنف حصان الموت بعد أن قفزت الحاجز
الأخير. حملي ناصر مساءً إلى غرفة الطوارئ، وقد جاهدت كلّ
تلك الأشهر محتملة الآلام والوهن والمعارك، كي أبقى في بيتي ولا
أدخل الطوارئ، لكن لا بدّ مما ليس منه بدّ. لم تكن غرفة الطوارئ
مخيفة كما تخيلت. معظم المرضى يبحثون عن مسكّنات ومغذّيات
للتخفّف من أعراض العلاج الكيماويّ، والذين تأخّرت حالتهم
يرقدون في الأسرة. أجريت صورة إكس راي سريعة، طيب
الطوارئ أشار إلى أنّ ترافق الليمفوما مع الحرارة أمر مقلق، لكنّ
ناصر أكّد لي أنّ الليمفوما انتهت، وأنّها أعراض الكيماوي، لا
غير، ولن نقلق حيالها، وأنا لا أصدّق إلّا ما يقوله، بل إنّ ما يقوله

هو ذاته الذي يؤكّده الدكتور يعقوب دائماً. كان المكان مزدحماً
بسكّان السماء المحتملين. أجلسوني في كرسي لأنني متماسكة،
وبجانبني على بعد خطوتين مريض في سرير، ستارته مزاحمة،
وجسده مكشوف. رجل قد تضاءل، وبان هيكله من عزم المرض.
حلّ الليل، وكان على ناصر أن يذهب إلى ابنته، رجوته أن
يفعل وكان يرفض، يعيش بين نارين، هذا المسكين! اطمأنتنا على
التحالييل السريعة، والصورة. كان ذلك الانهزام الجسديّ بسبب
تراكم الكيماوي في جسدي. سيعطونني محاليل مغذية حتّى
الصباح، توسّلت لناصر أن يتركني في عنايتهم، ففعل.
الرجل الذي بجانبني كان متعباً جداً! معه رجلان: عشرينيّ
يدو ابنه، وآخر خمسينيّ، أخوه ربّما. غفوت للحظات على
كرسيّ، فأيقظني ضجيج باهت، تجمّع طاقم العمل حول الرجل،
ثمّ انفضّوا على مهل. نظرت إليه وهو يهمد، وفاضت روحه
حولي، شعرت بها تخرج حارّة، ثمّ دخل هواء بارد وكان أحدهم
فتح الباب، مع أنّنا كنّا في أوّل أيلول. بكى الشاب بكاء مكتوماً،
وأصوات تتمتّم بـ "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"... غطّوه على
عجل، وسحبوه من جانبي على سرير متنقل. الدموع خرجت
من مكان سحيق في قلبي أستدلّ عليه للمرّة الأولى، وأريد أن
يتوقّف العذاب هنا وفوراً، لأنني لم أعد أحتمل يا ربّ، فارحمني
بحقّ اسمك الأعظم يا ربّ!

* * *

تحملت على نفسي وذهبت إلى استوديو الرقص. كان عليّ أن أحتفل بانتهاء جلسات العلاج الكيماويّ بطريقة ما، حتّى لو لم أشعر بالشفاء. بالكاد أمشي، مهددة، جسدي لا يحملني، وفي نفسي ضيق، ومكان الورم يؤلمني، وشيء هورمونيّ يجعلني أكره الحياة.

ناصر قال إنّ علينا أن نفرح كثيراً، بقي القليل، بقي تعزيز الشفاء بالأشعة:

- متألّمة، متهافئة، أما لهذا الألم من نهاية؟ كلّ شيء يؤلمني، ولا أعرف كيف أحدّد شكل الوجع أو مكانه!
- آلام الشفاء، إنّها آلام الشفاء يا حبيبي، الثلج يذوب، وليلة ذوبانه تكون أبرد من ليلة الهطول ذاقها، إذ يتخلخل فيها تماسك العناصر التي تشبّث بالأرض، ثمّ عليها أن ترحل، والرحيل مؤلم! نحتاج بعد الثلج إلى شمس حادّة لتسلّك الحياة في الدروب من جديد، ولتكوي الرطوبة التي عشّشت في أجسادنا وزوايا بيوتنا، لا بدّ من الشمس لتمنع السوس من أن ينخر في خشب النوافد. اذهبي باتجاه الشمس.
- كيف؟

- اذهبي مع هانية، واستمتعي بالرقص.
- ناصر يُفقدني أعصابي، إجاباته أبرد من الثلج الذي يتحدث عنه. أعرف أنّه متعب منّي، سئم من الهمّ الذي حمّلته

إيَّاه لاشكّ، كلّ ما يفعله حمل عليّ شخصيًّا، لكنني لا أستطيع
إلاّ أن أمضي في حاجتي إليه، وأن أمتنّ. سمعته يحدث ابنته السيّ
غادرت إلى أميركا لتتابع دراستها عند أمّها، بعد أن أنهت الثانوية
العامة هنا، قالت إنّها لا تستطيع التكيّف، تشعر باكتئاب، بغربة،
وإنّها غير منسجمة مع أمّها، فردّ عليها:

- اذهبي مع أصدقائك يا صغيرتي وتناولوا البيتزا،
ستشعرين بأنك أفضل!

قلت في نفسي: غريب ناصر، غريب، لم أتمكّن من فكّ
شيفرته إلى الآن. غريب وشركائي فيه كثر، ما أجمل أبوتّه!
تمنّيت لو كنت ابنته أنا أيضاً، وقارنت بينه وبين بابا الذي غاب
عني كثيراً ليعيش ملحمة الخاصّة في خضمّ الحرب.

يقع الاستوديو في بلازا كبير، تحت الأرض، أنزل إليه بسلم
كهربائي، وأعبر الباب الشفاف، الذي تغطّيه صورة كبيرة
مرسومة بقلم أسود لثنائيّ لاتينيّ راقص، نحو ريسبشن صغير
وخلف الكاونتر سيّدة أوكرانيّة، تسجّل المنتسبين الجدد لتدرّجهم
على رقص الهيل (Heel) هيب هوب، الهيب هوب بالكعب
العالي. في صالة باهما إلى اليمين، أجد هانية تقف أمام (سي دي
بلاير) ضخمة. الصالة واسعة، وأرضيّتها من الباركيه البنيّ المشقّر،
وجدرانها مرايا.

تنقل هانية عن زوربا: "لقد تعبت قليلاً وأنا أعترف بذلك،
لكن ما الضرر! لقد قاتلنا أيّها المعلّم، ولقد انتصرنا، فأنا

سعيداً". ثمّ تزيد: يعقوب يقول عن هذا المرض رحلة، وعن الدواء إنّه مثل أيّ دواء آخر، نأخذه لنطيب.

- يعقوب لم يحترق بنار التجربة.
- ما أدراك أنت، لقد عاش يتيماً!
- كلّنا أيتام أنا وأنت وهو. لكنني أقصد تجربة الموت الذاتي، ألم تفكر في قبرك، وماذا سيحدث في الليلة الأولى! لا تقولي لي: كلّنا سنموت، أعرف، لكن هناك مرشّحون أقوى حظاً، إنهم نحن. يعقوب ما يزال أسير الحياة، والضعف، وآلام الآخرين التي يراها كلّ يوم، لكنّه منها على مسافة، يقف على عتبة النار يمرّ الناس منها وإليها، وفي الوقت نفسه يرتعب من شكلها. نحن احترقنا بها ونداوي حروقنا، تذكّر كيف عرفت أنّك مصابة! وناصر يراقب النار أيضاً. المرض يحرّر أليس كذلك؟ المرض جزء من الموت، يحرّر!

- قد يشفى الإنسان من السرطان، لكنّه لا يشفى من اليتيم أبداً! أنت لا تعرفين يعقوب، ترينه رجلاً آلياً يحفظ درسه جيّداً، بصدريّة بيضاء شاحبة، ووجه تصعب قراءته للغاية، لكن وراء نظّارتيه السميكتين عيناان لم يرث جمالهما عن أحد، لقد صارتا جميلتين لأنّه بكى بهما كثيراً، لا تعرفينه أبداً.

أردت أن أقول لها: اسكتي، أنا التي أعرف، أعرفه قبلك،
رأيت عينيه قبلك، رأيت دموعهما البكر، دموع الطفل المقهور،
المراهق المستفز، رأيت وجهه الحقيقيّ البريء قبل أن يتحوّل إلى
قالب شمع، واشتريت له حلوى الجيلاتيني، وأنت لم تكوني معنا في
بورتوفينو يا فيتناميّة.

غرّت من هانية، تسرق معارفي ومستحقّاتي، وتنسبها لنفسها.
إنّها تفشل في التعبير، لأنّها تعجز عن الشعور بالصدق، فعيناه
عميقتان لدرجة تستطيعان فيها أن تغرقا بضعة آلام من الكيماوي،
لكنّها لا تجيد التعبير، آلامها أيضاً كانت محدودة.

سعدت بغيرتي لأنّها مؤشر للحياة، وما زال بإمكانني أن أشعر،
لم يحرق الكيماوي كلّ شيء إذن. غرت منها مرّة أخرى، وهي
تأخذ دور معلّمة أو خبيرة في الحياة، لا لأنّها سبقتني إلى المرض
بأشهر، بل لأنّها حبيبة الطبيب. أهرب حيناً عن وهي باللجوء إلى
علاقتهما، أتخيّل تفاصيلها، فتعيدني إلى الحياة. قالت لي: إنّ الخوف
أجبرها على أن تسعى وراءه مثلما يسعى كلب بوليسيّ وراء رائحة
المخدّرات، كان ذلك بعد شفائها، خافت من أن تعود خطوة باتجاه
الموت. الارتكاس أكثر ما يخاف منه مريض السرطان، يخاف من أن
يفلت حبل الحياة من يديه بعد أن ذاق طعم النجاة. الحياة بعد انتهاء
العلاج لها وجه آخر، وجه أمّ عادت من سفر طويل.

- شعرت به يجاهد ليكون معي حياً، مثل الآخرين،
لكن بدأ يتركني أنتظر، لأدخل للقائه بعد أن ينتهي

المرضى جميعاً، لتحدث عن أميركا، عن سان فرانسيسكو، عن لوس أنجلوس... كان يحنّ إلى تاريخه المحبّب في لغتي، ومدرستي، وجامعتي هناك، وهذا المشترك هو الذي جعلني أعبر إليه. ثمّ زارني في الاستوديو، أحبّ عالم الرقص، لا يشبه عالمه أبداً، بعدها صار يأتي باستمرار، أحياناً كلّ يوم!

تخطئ هانية في تقديراتها، حنّ يعقوب فيها إلى جذوره التي ما زالت هشاشتها تؤلمه، يبحث في تاريخ أيها الشيوعي الفلسطينيّ الرفيق أبو هانية، عن البطولة التي حرم منها، وحرم منها أبوه من قبله، عن القدر المقاوم، وعن فتنة الأحزاب. ساقته هانية بتاريخ والديها النضاليّ الذي عزّزته ببضعة أوشام، إلى أسئلته الشائكة، وأنا ماذا أفعل بين هذين الفلسطينيّين المرتهنين للتاريخ؟ ترى ماذا فعل حينما رأى وشم الكلاشنكوف عند سرّتها! قالت:

- مسح عليه كمن يزيل الغبار، ثمّ ضغط على الزناد! ورثت ضحكها في صالة الرقص الممتدة، لأسمع صداها في المرايا المحيطة، ولا أعرف كيف أصف مشاعري بين الغيرة، والاستهجان، والودّ، والامتنان للحياة، إذ بدأت أنتبه لتلك المفارقة التي جمعتنا كلّنا أنا وهي ويعقوب وناصر، وسعدت بانتباهي، فهو يعني أنني أهتمّ بشي آخر غير المرض، وتلك إشارة جيّدة أيضاً.

- ألم أقل لك إنني أستطيع أن أفكّك البارودة الروسية (الكلاشن) بدقيقة، وأركبها بدقيقة؟! أستطيع أن أفعل ذلك بوقت أطول، وأنا معصوبة العينين.

- واووو! لا أصدّق.
- كلّ أبناء جيلي تعلّموا كيف يفعلون ذلك. ثماني قطع سهلة الفكّ والتركيب. تدرّبت عند تلّ على مشارف المدينة. أعرف كيف أصوّب جيّداً، تدرّبت في عقلي كثيراً، والتدريب العقليّ يساوي الواقع كما قال المدرّب. أصوّب بين الرأس والصدر حيث لا خوذة ولا درع، فتكون الطلقة قاتلة عند الحنجرة أو الوجه. الكلاشنكوف التقليديّة تحيد نحو اليسار قليلاً عند الإطلاق، لذا عليّ أن أحرفها إلى يمين الهدف قليلاً، وأن أمارس قوّة مقاومة فاعلة حين ترتدّ على كتفي. احتضنها بين ذراعيّ وكتفي الأيمن، أحرّر العتلة من وضعيّة الأمان نحو المستوى الأوسط، ثمّ بعدها بطقتين إلى الأسفل، تكون في وضعيّة الدِراك، أو الإطلاق نصف الآليّ: تنكّب، استعد، حرّر، أطلق، نار...
- هل ذهبت إلى الحرب؟
- لا، كنت أتحلّل أنّي سأذهب، وأحارب إسرائيل. أوّل مرّة رأيت فيها إسرائيلياً وجهاً لوجه، كان في فندق في شرم الشيخ، حيث ذهبنا لحضور عرس ابن صديق للعائلة. كان يجلس في اللوبي، نحيل بشارين ولحية، وقلنسوة. ارتعدتُ لرؤيته، وشعرت باليباب، ولم يكن معي كلاشنكوف، كنت أرتمي فستاناً وردياً ويدي حقيبة صغيرة ذهبية اللون!

- تجاهلي الحرب الآن، وتذكّري أنّك في نورينكو،
استوديو رقص، لا ساحة معركة.

لا أريد أن أوّجّل معرفة تفاصيل علاقتها بيعقوب، لقد حان
وقت البوح وأريد أن أعرف كلّ شيء عنهما. كنت أوّجّل
لأشفي، لأكون جاهزة لسماع قصص الحبّ ولأنفعل بها، مثلما
يتشوّق أطفال خيمة إفريقيّة لسماع قصّة قيلولة الظهر في هوارقم
القائظة، ينتظرون أن تفرغ الأمّ من عملها، من رشّ التراب بالماء،
فتسري الرطوبة، لتحكي لهم. أريد أن أحصل على الشفاء، كما
حصلت عليه هانية، ووقتها سأقرّر إذا ما كنت سأفتك بهذا
العالم، أو أدعه وشأنه.

تقول هانية:

ستعشق المرأة الرجل الذي يشبه أحبّتها جميعاً، الرجل الذي
له حنان أمّها، وجبروت أبيها، وضحكة أختها، وعطف أخيها،
وشجاعة حبيبها الأوّل، وتمنّع الثاني، وقسوة الثالث، وحضن
الرابع...

فكرت بناصر، فكّكت صورته: له الملامح الجادّة ذاتها لجار
خالتي الذي لم يعبأ بوقوفي ساعات على الشرفة، حيث كان
غارقاً في قراءة "بيساوا". لناصر الابتسامة الحانية لذلك الصديق
البعيد الذي كان قد أمسكني يوماً حينما أوشكت أن أقع على
درج كليّة العلوم الإنسانيّة، أمام جموع الطلبة الغفيرة! يشبه حقّاً
الكثير من أحبّتي، الذين ضاعوا منّي، أو هربت منهم. تتابع:

في العقل خريطة للحبّ، تبدأ بتجميع صور من نخبّ منذ ولادتنا، وتستمرّ في فرزها عبر تاريخنا الشخصي، وفي لحظة ما يكتمل (الكولاج)، ويظهر الحبيب.

كانت مغوية، عضلات ساقها، وفخذيها واضحة، ويمكن ملاحظة بداية العضلة ونهايتها، والإمساك بها مثل التماثيل الإغريقيّة. لوها باهت قليلاً! رحت أبحث عن عيوب جسدها، لم أجد. قالت:

كنت أدفعه إلى أن يكون معي، وكان يرغب بشدّة، ويتوقّف عند نقطة الانزلاق، لا يريد أن ينزلق الطبيب في حبّ مريضته، لكن بالنسبة إليّ، كلّما خطا باتجاهي هذا يعني أنني أقرب إلى النجاة. أريد أن أنهي المرحلة، وأتحوّل إلى مريضة سابقة، ثمّ أصير حبيبته فقط. كان يعرف متى يتوقّف. يعطيني، ويمنع بعدل. المنح والمنع يوزنان. يميزان الذهب، وهذا ما يجله جلّ الرجال! لا تطلب المرأة أن يغدق عليها الحبّ يمنة ويسرة، لكنّها حينما تكون على شفير هاوية الألم أو الخوف أو الضعف، فعليه أن يجعلها تجده، وألاًّ تحتاج إلى سواه، وألاًّ تنتظره كثيراً أيضاً، فهناك نقطة ما، إذا بلغت المرأة وتمكّنت من تجاوزها، فستعجز أعنف تعويذة في التاريخ عن إعادتها إلى الخلف.

لا أستطيع أن أكون مثل هانية، فأنا أقف عند حدود النظريّة، وهي تعيش التجربة. أغلّف متعتها الحارة بالمصطلحات الباردة التي لا أتقن غيرها:

- يحبّ فيك نفسه، قدرته، مثل بجماليون.
 - لا أعرفه.
 - أسطورة.
 - أحبّ الأساطير.
 - اذهبي إلى غوغل.
- ضغطت على شفتي بسبابتها، وكأنّها تفعل زراً في لوحة المفاتيح، فتتصل بغوغل.
- بجماليون كان نحاتاً يكره النساء، ومرةً نحت امرأة جميلة من العاج، فعشقها، وطلب إلى فينوس أن تحييها، فكان له ذلك، وامتلك جسدها. حكايته تحوّلت إلى تفسير لعقدة عاطفية لدى الشخصيات التي تصنع من العدم شيئاً فاعلاً، مثل مخرج يحول فتاة عادية إلى نجمة، ثمّ يعشقها ويحتكرها بصورة مرضية، في الحقيقة هو يعشق قدرته على الخلق، وهي ترضي الـ (إيغو - ego) المتضخّمة عنده. يعقوب يعشق قوّة الحياة التي استطاع أن يثبّتها فيك. يعشق ذاته.
 - لقد عاج عشرات أخريات، بل مئات! كلام غير منطقيّ.
 - لا يُشبّهنك. فروقات في إظهار قوّة الحياة.
 - أعتقد أنّ لديه مشكلة مع النساء فعلاً. حين رأيّ أرقص هنا في الاستوديو للمرّة الأولى، أخذني إليه. كان هادئاً،

- لا، كنت صغيرة حينما اغتيل أبي، كل ما أذكره من موته الصندوق الملفوف بالعلم، وأكاليل الزهور، والازدحام الشديد.

- يحشون فتحات الجسد بالقطن، ويلقون حول الرأس شاشاً كي يبقى الفكّان الرخوان مطبقين، ثمّ يلقون الجسد كله بقماشة بيضاء.

- لماذا بيضاء؟ ستسوخ بالتراب فوراً!

- مم، ليس لديّ جواب دقيق، ربّما أملاً في مواجهة نقيّة مع الذنوب، إعلان السلام من الدنيا...

- في فيتنام غالباً يحرقون الأجساد. بوذيّون، يجمعون رمادها في جرار ثميّة، أو يسمّدون بها حديقة الدار، أو يحوّلونها إلى بلّورات زجاجيّة توضع كقلادة، وربّما يذهبون بها إلى صائغ ماهر، فتصير خاتماً ثميّاً، وقد تصير ألعاباً ناريّة! أهل أمّي يتبعون الدفن السماويّ، يضعون الجثّة في مكان عال، كقمّة الجبل، لتأكلها الجوارح، إنّه كرم أخلاقيّ ينبسي عن تشارك المخلوقات، وفي هذه المراقبي تتناسخ الأرواح، فتحلّ روح المتوفّى في كائن آخر من الكائنات. إنّه منتهى النبل، التبرّع بالأرواح، شيء يشبه التبرّع بالأعضاء.

أحاول دائماً أن أسحب الحديث باتجاهه، وهي تطاوطني، تستجيب لتلصّصي، وتغريني به أكثر، ليس بقصد أن تغيظني،

فهي تَخَلَّصت مثل كلّ مرضى السرطان من هذه النوايا التافهة، لكن لديها رغبة في أن تسمع صوت حكايتها، حتّى تتأكّد من أنّها تعيشها، من أنّها شفيت تماماً.

رفعت قدمها إلى كرسيّ بلاستيكيّ صغير، وانحنت تثبّت إبريم حذائها الفضّيّ ذي المقدّمة المدوّرة والكعب المربّع متوسط الارتفاع، وهي تنظر في ساعة معلّقة على الجدار. أنا حتّى الآن لا أستطيع الانحاء والقيام بسهولة، فترسّبات الكيماويّ في أنسجتي ما زالت تثقل عضلاتي، وكذلك أفقدي الاستلقاء المستمرّ في الفراش رشاقتي السابقة.

كانت ترتدي كولوناً سميكاً نيليّاً، وفوقه تنورة قطنيّة رياضيّة سوداء قصيرة، تعلو الركبة إلى منتصف الفخذ، وبلوز قطنيّة سوداء أيضاً ضيّقة، بكمين طويلين، صدرها محفور بنصف دائرة، وكذلك ظهرها، ويّين لون جسدها الأبيض المصفّر مثل لون قلب سفرجلة، وشعرها الأسود القصير الذي نما في موجات صغيرة، ملتصقاً بجلدة رأسها، يلمع مثل شعر المواليد الجدد، يكشف عن عنقها الحلو المشدود، المزّين بالوشم، عاطلة من آية زينة أخرى أو إكسسوارات سوى جمال الشفاء. لماذا يتزيّن الناس وينهمكون بالاهتمام بالألوان، والأصباغ، والحليّ التي تثقل أجسادهم، أجمل زينة هي العافية التي تنضج من جسد هانية كأنّها لم تحترق بالمرض يوماً!

دخل شاب عشرينيّ، ربّع القامة، حنطيّ البشرة، وبشعر بنيّ غزير، يطول ليغطّي رقبته، وقد أزاحه عن وجهه بقوس

بلاستيكيّ مسنّن، كالذي تستخدمه البنات، فبانّت تفاصيل وجهه القويّة. يرتدي زياً رياضياً بلون رماديّ، أضيق من أن نراه على رجل، حيث يفصح عن أعضائه المحشورة تحت، وعن عضلاته البارزة بافتعال. قالت هانية: أكرم، صديقي، وشريكي في العمل، مدرّب الرقص رقم واحد في عمّان.

سلم عليّ بحياء، لاحظ أنّني لا أنتمي إلى عالمهما، وربّما خمن أنّني خرجت للتوّ من قبري، صفراء باهتة، والعمامة ما تزال على رأسي، وبنطلوني الجينز أوسع من جسدي وإن كان من ماركة ليفايس. العالم هنا يقف عند حدود المظاهر.

ضغطتُ على الريموت كونترول، فراحت تنمو إيقاعات على مهل، فاستيقظ في روحي شيء كان في غيبوبة طويلة. كان تمريناً للتانغو، وكانت موسيقى (لاكومباريستا)!

توكّدت لي هانية أنّ قوّة الحياة ليست خيالاً، وهي امرأة واضحة ومنطلقة، وتعرف كيف تدلّل ذاتها، فذاثها أوّل أولوياتها، ومن ثمّ يأتي العالم، ذلك أنّها لا تنتظر من أحد شيئاً، تعطي بقدر ما تأخذ، وغير ذلك تعدّه سخرة، وتقول إنّ عهد السخرة ولّى منذ زمن طويل. اعترف أنّني معجبة بشخصيّتها، لكنّني لا أستطيع أن أكون مثلها، أنا أكثر جدّيّة منها، بل أكثر تراجيديّة! كلّما شعرت باليأس، كنت أشحن بطّاريتي بلقائها. قالت لي في ذلك المساء:

إذا كان رجلك فوق الأربعين، فراقصيه الفالس، ستمنحينه الوقت ليكتشف عمقك، وأنوثتك، وأناقتك، وهذا كل ما يريده. وإذا كان تحت الأربعين، فراقصيه السالسا، ستحرقينه بحرارتك، وجنونك، وحيويتك، وهذا كل ما يريده. سألتها: وأنا في أيّ عمر عليّ أن أكون؟ ليس لديّ وقت. قالت: لا يهمّ، المرأة التي تعرف كيف ترقص، لا عمر لها، وهذا كل ما تسعى إليه نساء العالم، وسيكون أمامك وقت طويل!

تستسلم هانية لقيادة شريكها، والاستسلام ليس رضوخاً كما كنت أفقع نفسي طيلة الوقت، فلم أستسلم للضعف، ولا للفشل، ولا للتسلّط، مثلما لم أستسلم للحبّ. كنت يقظة دائماً، أقيس المسافة إلى حافة الهاوية، وأتوقّف عندها، وتلك اليقظة كانت تسلبني المتعة، وتمنعني من الذوبان حتّى النهاية، لذلك ظلّت معارفي في كلّ ما اختبرته ناقصة. لو عرفت قبلاً أنّ الحياة قصيرة إلى هذا الحدّ لاخترت سيناريوهات أخرى لتاريخي، فماذا لو ذاق المرء طعم الإخفاق، أو الخنوع، أو الضعف! ومن سيموت عنه لو مشى في التجربة حتّى نهايتها المرّة أو السعيدة؟ ومن سيهبه من عمره ساعة، لو أحرق أوراقه كلّها!

الرقص يشبه - بناء قوقعة، ثمّ الخروج منها، انطواء وانفتاح اختياريّان، وبناء قواقع للآخرين وإخراجهم منها أيضاً!

- قوقعة! كلمة صعبة، لماذا كلّ هذا الإرهاق لجهاز النطق! SHELL أسهل. ممكن، يعقوب بنى قوقعة

سميكة، أنا أخرجته منها، وأعرف كيف أدخله إليها
ثانية!

خطرت في بالي حلزونات بيتنا في الرقة، التي اختفت، ولم
ننتبه إلى اختفائها!

- كان متحفّظاً جداً، حتّى في أكثر لحظاتها حميمية لم
يكن يتعدّ كثيراً عن قوقعته، تغيّر فيما بعد، صار
متوّجّ الرغبات، يعرضها مثل دبلوماسيّ عريق، يحكي
في أثناء المتعة، ويشتم، ويسمّي الأشياء بأكثر أسمائها
سوقيّة، وبالعربي....

سألته مرّة: كيف عرفت كلّ هذه البذاءة؟! قال إنّّه حينما
كان يزور أهل أبيه في البيت القديم كان يسمع الأولاد يتشائمون
في هدأة الليل، وقد أحبّ مفرداتهم كثيراً، واحتفظ بها في
ذاكرته!

حينما أرقص أستطيع أن أجمعه بيديّ وأرميه في قوقعته من
جديد، أن أمسكه من لحيته، هههه، للحيته ملمس مقشعر، مثل
ملمس خيوط العنكبوت، هل لمست مرّة بيت عنكبوت،
والتصقت خيوطه الواهنة على أصابعك الدبقة!

أقبلت صورة ماما، وجود وسلمى الصغيرتين، وهنّ يلعبن
على شاطئ بورتوفينو بالرمل، بمايوهاتهنّ الصغيرة الملوّنة، "مايو"
جود أزرق منقوش بقلوب وردية، ومايو سلمى بنيّ منقوش
بقطط برتقاليّة، سألتها:

- هانوي! هل عنده فطريات في أظافر قدميه؟

- من؟ يعقوب؟! لماذا؟!

فكرت قليلاً وهي تبتسم، ثم انقلبت الابتسامة إلى نظرة غير مريحة، اتهام أو عتاب...

- أجهل ذلك، لكنّ ظفري إصبعي قدميه الكبيرين أصفران، وملتويان.

يا الله يا ماما! كنت تعرفين كلّ شيء في العالم!

* * *

العلاج الإشعاعيّ يمثل مرحلة نقاهة بالنسبة لعذابات الكيماويّ، لكنّه ليس بالسهولة التي كنت أتصوّر. الأمل الآن يكاد يبلغ منتهاه، وحين أشرف من قريب على خطّ النهاية، أراه واضحاً، وعليّ الآن أن أقتحم شريط السلوفان بجسدي الذي أثبت صموده في هذا الماراثون الطويل.

استغرق إعداد الخريطة الإشعاعيّة شهراً، يحدّد فيه الفريق مكاناً دقيقاً لضربات الأشعّة على مكان الورم مباشرة، كي تقتل آيّة خلية خبيثة محتملة، من غير أن تسبّب ضرراً لبقية الأعضاء. إنّهُ الشهر الأوّل بعد رحلة العلاج الطويلة، الذي مرّ بلا جرعات، وبلا حبوب كورتيزون. بدأ شعري فيه يأخذ فرصته للنموّ من جديد. الخضوع للأشعّة بحدّ ذاته عمليّة غير مؤلمة، أخلع عمامتي، فيفاجئني بياض جلدة رأسي وقد نبتت فيه إبر سوداء، لن تسقط

ثانية، يتعرّى جذعي العلويّ، فيؤلمني عربي في المرايا، لماذا تحتمّ على جسدي أن يواجه هذه التقلّبات المهينة! أستلقي على طاولة، يضعون رأسي في قناع معدنيّ واق، أعُدّوه حسب مقاساتي مسبقاً، يغلقونه بإحكام، فتصدر عنه قعقعة، وأغمض عينيّ فلا أرى تفاصيل غرفة التصوير الواسعة، وأتنفّس من فتحتي الأنف بمجاهدة الثقل في أنفاسي، والذي سيخفّ يوماً فيوماً، وأبدو مثل فارس من القرون الوسطى، قد استعدّ لمعركة. يخرج الجميع، يطفئون الأضواء، ويتركونني مسترسلة في صلاة، بعيدة عن جسدي، أخلد في ظلمة عميقة مثل جنين داخل رحم غريب، لا يحمل آية أسئلة، أو مثل بذرة في باطن الأرض تبدأ بالإنبات حيث لا يراها أحد. عشر دقائق، ويعود الضوء، مع أصوات الفنيّين، أرتمي ملابسي، وأخرج، وقد سقطت ورقة يوم من العلاج النهائيّ، الذي سيبلغ عشرين جلسة يومية، واستراحة في الجمعة والسبت. لا بأس! شهر سيمرّ كما مرّ ما قبله. الأشعة تستنفد ما تبقى من طاقة في الجسد، تهدّه كما تفعل مطرقة صغيرة في حجرة من الكلس. عظامي كلّها تؤلمني، ودوّامات دائريّة تلفّ دماغي، فيء، وجفاف يهاجم فمي وحلقي، لا يرويه ماء. سعال يعاودني بين حين وآخر، والألم مكان ورمي لا يبارحني، حتّى إنّني لا أستطيع أن أثني جسدي. قالت لي الطبيبة المشرفة على علاجي الإشعاعي: قد يكون التهاباً شعاعياً بسيطاً، وإنّ الألم سيبقى لفترة. الضوء يحرق الخلايا الحيّة عند قلبي، حتّى إنّ الجلد تحت

ثدي الأيسر قد اسودّ وتقرّش. أكّدت أنّ هذا طبيعيّ، مثل أيّ حرق يسببه مصدر حراريّ، والمهمّ في الأمر أنّ رئتيّ قويّتان، وستقاومان وطأة الجلسات العشرين، وأنّ حياتي مع الأشعّة ستكون أفضل. سألتها عن الشفاء التام. فقالت إنّ شفائي الكامل وفق الفحوصات كان بالجرعات الكيماويّة، وهذا علاج مساند، يخفّف من احتمال عودة المرض.

- هناك احتمال ليعود.

- الاحتمالات قائمة دائماً.

تخطّطني هذه الإجابات، والإحباط يأخذ شكل موت مجّانيّ في ذروة الفرح، كأنّ ينجو المرء من مركب غارق، فيتزحلق بقشرة موزة، وتدنّق عنقه.

ألقيت بكلامها في درج النفايات الذي ركّبت في مؤخّرة رأسي. لقد طلب إلي الدكتور يعقوب ألاّ أسمع كلام أحد في العالم غيره، وأنا أحبّ واحديّته المتطرّفة، تهبني سكينه مثلما يهب إله إغريقيّ محبّ قدراً مبشراً لواحد من أبطال الملحمة.

انتظرت دوري أمام صيدليّة المركز لأصرف وصفة شراب للسعال، ومرطّبات للنفّس ضدّ فعل الأشعّة، جلست بجانب رجل يرتدي لباس شيخ جامع، بيده بطاقة الدور لصرف وصفته، ويبدو مطمئنّاً، وعلامات المرض لا تبدو على سحتته الخمسينيّة. كان لديّ مزاج لأفتح حديثاً مع أحد، أوّكّد به لنفسي أنّني أسترجع شيئاً فشيئاً علاقتي بالحياة على أكثر من صعيد. المصادفة

الجميلة في هذا المكان الذي تتنافس فيه عوامل الكآبة على السيطرة، هي أنّه قد خضع لعلاج مثل علاجي تماماً، الورم كان في الغدة بين الرئتين أيضاً، لكنّ جلساته أقلّ لأنّ الورم أصغر. كان ذلك منذ خمس سنوات. قال: نسيت الموضوع كلّه، آتي فقط للفحوص الدورية أو حينما أصاب بعارض لا علاقة له بالسرطان، نزلة برد مثلاً، لأنني خاضع للتأمين في هذا المركز. الله كريم، سيسفيك مثلما شفائي، وستصير الحياة أفضل، بعد شفائي تزوّجت بامرأة جديدة وأنجبت أولاداً آخرين!

أنهي الجلسة في التوقيت ذاته كلّ يوم، أخرج من المركز، تقابلني عند الباب الرئيس، تحت شجيرات الجزيرة التي تقطع الطريق، سيّارة دفن الموتى، يقف سائقها بنزق مستنداً إلى الباب بانتظار الجثة التي تكفّن في الداخل، لتتجه مباشرة إلى المقبرة. لن تمرّ الجثة ببيتها، لن تودّع فراشها، وزوايا الذكريات، الأهل سيلحقون بها جميعاً إلى حيث ستواري، يتمّون مهمّتهم بضمائر مرتاحة، يتبادلون التعازي التي تقول: ارتاح أو ارتاحت من العذاب، ويغرقون في حياتهم. السيّارة التي تشبه سيّارة الإسعاف، كُتب على بابها الخلفي الذي يدخل منه الموتى ويخرجون، بخطّ أسود عريض: "كلّ نفس ذائقة الموت"، وعلى جانبها كتب بالخطّ ذاته مؤسسة "سدرة المنتهى" الإسلامية. في أيام علاجي الأولى كنت أصطدم بكلماتها من بعيد، فأصاب بكآبة لا قرار لها، فأعرض عنها، وأمشي على الرصيف الثاني، فيدفعني شيء في

عقلي نحوها، أقاومه، فيأتي ناصر بسيّارته (الجالنت) الرماديّة،
ألقي بنفسي على المقعد بجانبه، وأنجو. ظلّت سيّارة سدره المنتهى
واقفة، لكنّ شعوري بها الآن أقلّ حدّة، صارت المسافة بيننا
أبعد، ويبدو لي أنّه قد تمّ تأجيل مواعيدي معها حتّى إشعار آخر.

* * *

أزف يوم الجلسة الأخيرة، أردته يوماً عادياً، تمضي أموره
على خير، في نهايته ستفرغ أجندة المواعيد، لا جلسات كيماوي
ولا أشعة، ولا بأس باحتمال صورة طبقية بعد شهر، ثمّ أخرى،
وثالثة، وإن مضت الأمور كما هو مخطّط لها، سأخضع لمراجعات
دوريّة كلّ ثلاثة أشهر، وفي السنة التي تليها ستكون الفحوصات
كلّ ستّة أشهر. لديّ أمل كبير في أن يتعظ جسدي ويكفّ عن
خياناته. سأعود اليوم لأستلقي في فراشي، أتابع قراءتي في كتاب
"التأمّلات" لماركوس أوريليوس، كتاب يبعث على السلوى:
"آيتها النفس، أما آن لك أن تقنعي بحالك الراهن، وتجدي متعة
فيما هو الآن بين يديك؟" بتّ أقدر على القراءة، ستتحسّن
علاقتي بها حينما تعود هورموناتي لتعمل جيّداً، وستكون من
الأشياء القليلة التي سأحتفظ بها من حياتي السابقة.

طلبت إلى الله أن أودّع قناع المحاربين إلى الأبد، وخرجت
ملوّحة لطاغم الفنيين الذين تمّنوا لي السلامة. لمرضى السرطان
أيضاً أفراحهم الصغيرة، وأجواؤهم الاحتفاليّة.

قابلتني هانية عند بوابة منطقة الأشعة، جاءت لتأخذني معها
 نتغذى في الاستوديو بمناسبة الجلسة الاختتامية. مشينا باتجاه
 سيارتها، كنت أتحامل على الألم في صدري، والوهن في جسدي،
 وأحاول أن أفنع نفسي بالشفاء، وبأثني مثل أوديسيوس خرجت
 من عالم الموتى، وما تبقى هو نقاهة وترميم وصلوات. فوجئت
 بيد هانية تمتد إلى رأسي، تخلع عنه العمامة الرمادية، فينفرد
 قماشها القطني الطويل، ربطتها بخفة بلاقط لاسلكي (أنتين)
 منتصب لسيارة على جانب الطريق، همّ بالتحرك، لم ينتبه
 سائقها، انطلق مسرعاً، وعمامي ترفرف مثل راية خلفه،
 فوجدت نفسي أواجه العالم عارية إلا من حقيقة التجربة،
 كخروف جزوا صوفه في موسم الربيع. قالت هانية: والله شعرك
 جميل، بعد شهر ستضطررين لاستخدام المشط.

دخلت في هاجس عودة المرض، أسأل ناصر، لماذا أتألم؟
 لماذا أسعل؟ يفترض أنني شفيت! ناصر الذي يعيش لحظاته
 السعيدة بنجاح علاج طويل وشاق، تمّ تحت رعايته، يقول: لا
 يهم، تألمي، إنها آلام الشفاء.

اتصل بابا، لم أسمع صوته منذ شهرين، إذ انقطعت الاتصالات
 عن الرقة، وصعب التنقل إلى مراكز هواتف "الثريا" الفضائية،
 بسبب عمليات القنص التي كثرت في الآونة الأخيرة، لا يستطيع
 أحد أن يخبرني: مَنْ يقنص مَنْ، نتكلم في التلفون بالرموز خوفاً من
 داعش والنصرة والنظام والجيش الحر وأولياء الله الصالحين...

- المهم خلصنا، ستستعيدون عافيتك بالتدريج.
- خائفة من أن يعود.
- لن يعود، كلهم شُفوا، كلّ الذين في مثل حالتك: أبو فرح، ورهف، وكلوديا... السرطان انتهى ولم تنته الحرب.
- جود تعالي.
- والهّم الذي برقبتي لمن أتركه! سيمنع سفر النساء بلا محرم. الله يحبّك، أبعدك عن هنا، ويجبّ ماما، لأنّه أخذها قبل أن ترى هذه الظلمات، الطائرات تقصف من فوق، والمسلّحون يقتلون على الأرض. ماتت العمّة سويداء (san culottes)!
- لا...
- والله.
- كيف؟
- تعبّت، سرطان مثانة، والعلاجات صعبة، أجرت عمليّة في دمشق، وماتت بعدها بشهر.
- هزّرتني من جديد كلمة "سرطان"، ففهمتني جود:
- ما علاقتك أنت! أنت طبيّ، خلاص.
- مسكينة العمّة سويداء!
- طبعاً مسكينة، حمدتُ الله على أنّ ماما ماتت بعزّاً!
- سويداء لم يستطيعوا دفنها بسبب القصف، دفنوها في

حديقة دار أحيها، وبعد أسبوع نقلوها إلى المقبرة، لقد
ذاقت المرار، الذي يموت لا يجد قبراً. الناس يبحثون عن
ستر جثث أهلهم كي لا تأكلها كلاب الشوارع.
أغلق الخط، أشكر الله على سلامتهم، وأرمني كلامها في
الدرج الخلفي لرأسي، وأتفرغ لآلامي، كأنني لم أعرف العمّة
سويداء يوماً، ولم أكل من سكاكرها.

* * *

أنتظر الزيارة الدورية إلى الطبيب بقلق يعجز الوقت من
الانتصار عليه. زنزانة الدكتور يعقوب صارت أكثر ألفة، وذاب
الشمع من على وجهه، صار يضحك، نتحدث لبعض الوقت،
ننظر في وجوه بعضنا، ونخفي سؤالاً عالماً في زاوية ما، ينتظر
دوره للمرور، ولا نتحدث عن هانية، وكأنها ليست موجودة في
عالمنا. اللحظات الأولى للزيارة هي الأشدّ حدة، ينظر في تقرير
الصورة الطبقيّة على شاشة الكمبيوتر أمامه، ويدخل معاً أنا
وهو في لعبة "روليت روسي". في يديه المسدّس المحشو بطلقة في
واحدة من الحجلات الست، يدور الأسطوانة، وأنتظر ألاّ تخرج
الرصاص من بينها فتقتلني، يقول لي: الفحوصات سليمة،
فأكسب الجولة، لكنني سأصير رهينة لهذه المقامرة مدى الحياة،
كلّما جاء موعد الزيارة، بعد شهر، بعد ثلاثة، بعد ستة، سأدخل
مع يعقوب في جولة "روليت روسي" جديدة.

جاء رمضان، سأصوم من جديد، لم أتمكن من الصيام في رمضان الماضي، لأنني كنت تحت العلاج. وصل أولاد ناصر الثلاثة من أميركا ليقضوا معه شهر الصيام، كان منهمكاً في تحضيرات استقبالهم، طلبت إليه أن يأخذ "تامي" لتعدّ لهم كل شيء. لم أعد أحتاجها، تمنيت لو أنني قادرة على مساعدته ومشاركتهم الاحتفال. فضّلتُ أن أبقى بعيدة، أنا بعيدة فعلاً، هم عائلة، من أنا!

اعتذر ناصر عن اضطراره للانشغال بهم، رجوته ألا يفعل، فأنا التي عليّ أن أعتذر كل لحظة عن إشغاله بمرضيه وهواجسي وآلامي، لن أطمع بالمزيد، هذا القديس قدّم لي ما عجز عنه أبي. أريده أن يكون أسعد رجل في العالم، وبالطريقة التي يختارها، وأنا سأكتفي بجسدي الذي يتعافى.

رغم وحدتي استأنست بـرمضان، بعد العصر فتحت الفيسبوك، لم أفعل ذلك منذ أربعة أشهر، فليس لديّ من أهتمّ بالتواصل معه سوى أهلي، الذين انقطعت عنهم خدمات الإنترنت وقتها، كما أنّ ناصر كان يتوسّل إليّ ألا أسمع أخبار البلاد، ومناوشات مراهقي السياسة على الصفحات الإلكترونية. تصفّحت قليلاً، مررت بعبارة لواحد من شباب الرقّة، تركتها لثانية، ثمّ عدت إليها، استوقفتني حروف مألوفة فيها: "اختطاف المهندس سهيل بدران من أمام منزله!" أعرف أنّها لم تكن مزحة، بل حدثاً أكيداً، ومتوقعاً.

قالت سلمى: أخذوه في سيارّة زجاجها مظلّل، من أمام البيت، رآه أحد الجيران، فأشار إليه أن يخبر البيت. كانت الساعة في حوالي الساعة مساءً، اتصلوا بعد منتصف الليل، وطلبوا خمسين ألف دولار فدية.

سلمى وجود كانتا قد استقصيتا عن حالات الخطف المشابهة، والأقرباء شكّلوا ما يشبه خلية للأزمة، حدّدوا الجهات الممكنة، وبدأت الوساطات العائليّة. حين تمكّنت من التواصل مع سلمى كان عقلي قد رسم السيناريوهات المحتملة جميعها، واستسلم لقسوة قدر هذه العائلة التراجيديّة. أختاي كانتا قويّتين، وطلبت إليّ جود أن أتماسك، فالمسألة لن تأخذ وقتاً طويلاً. شعرت أنّها مطمئنة على غير عاداتها في مواجهة المصائب. سلمى أعلنت أنّها ستغامر بحياة بابا، وأن تمهّل في دفع الفدية، وقرّرت التفاوض مع الفصيل المتطرّف الذي استوثقنا من هويّته.

لم أتصل بناصر، تركته ينعم بأحضان أولاده، أقيت جسدي على الكرسيّ ذاته الذي استقبلت به خير ثبوت مرضي قبل سنة ونصف، وضعتُ يدي على خديّ، وأضأت شاشة الماسنجر أنتظر خبراً. الحزن أيضاً يحتاج إلى طاقة، وأنا لا أملكها لأنّألم، لقد استنفد السرطان طاقتي كلّها. بقيت على حالي حتّى الصباح، أستقبل صورة بابا وأودّعها. ذلك المهندس العظيم، النقيّ، الأنيق، النبيل، الذي وقف وحيداً مثل صفصافة، تظلّ الجميع، ولا يسندها أحد. ماذا يفعل الآن بين أولئك السفّاحين،

والعصابين، والحاقدين، الذين صاروا يحكمون جزءاً من البلاد بشرع وهمي، ويقتلون بشرع وهمي، وتغيب الدولة تماماً بشرعها الوهمي، الدولة التي لحم أكتافها من خيرنا نحن المواطنين. بنيناها بالحب، والعرق، والحرمان، والأحلام، واختفت في غضون أيام. عدتُ إلى أيام كان يحملني صغيرة ونغني معاً "سالمه يا سلامة"، و"ون واي تيكيت"، و"سوريّة يا حبيبي أعدت لي كرامتي، أعدت لي هويتي. تم تم تتأ...". بعدها يحدثني كيف غير هنري فورّد وجه العالم، بناءً على احتياجات الناس، قال: لو سألت الناس ماذا يريدون، لقالوا لك خيولاً أسرع!، وبعدها قال لي إنّ أجمل ما تنتجه الحرب، الرومانسيّة ورقصة الفالس. رأيته يفرد مخطّطاته، ويحدثني عن منتجع سياحيّ على النهر، و"كامب" صغير لعمّال النفط، وبيوت صحيّة لمحدودي الدخل، وهنا حزام أخضر يمنع العجاج. عمارته كلّها صديقة للبيئة ونظيفة، أنظف من أن يحتملها الزمان الذي عاش فيه.

قلت لسلمي: أرجوك، ادفعي لهم ما يطلبون، سأرسل لك كلّ ما تحتاجين. "جون" سيحوّل لي أيّ مبلغ ناقص. طلبت إليّ أن أهدأ، وقالت إنّني بعيدة، وأجهل الأعراف التي باتت متّبعة، فالعالم في الرقّة الآن، ليس كما تركته قبل ثلاث سنوات. قالت إنّ الله لن يتركنا. وأنا أكّدت لها أنّه لن يتركنا.

الخبر الذي جاء بعد ثلاثة أيام أشار إلى أنّ بابا بنخير، وأنهم قد أحضروا له أدويته اليوميّة، الخاصّة بالقلب، وذلك منحنا

فرصة أكبر للشباب. بعد يومين سمعت سلمى صوته عبر الهاتف، كان قوياً في أوّل كلمتين، ثمّ أجهش بالبكاء. الرجل الذي تناول منه السمّاعة وكَلّمها بلهجة سعوديّة محوّرة، قال إنّها إن لم تدفع المبلغ المطلوب سيقطعون لسانه. تخيلت عذاباته، تخيلته يحدّثني بلا لسان، كيف سيقول: جمان، سورية، أخلاق الفرسان، حبسيتي، لا يصحّ إلّا الصحيح....

سلمى تؤكد أنّها حرب أعصاب، وإنّ الذين يطلبون المال، يحرصون على حياة ضحيّتهم، ويقبلون أخيراً بأتفه مبلغ ممكن. أنا أعرف أنّ سلمى قويّة، لكنني لم أتخيل يوماً بأنّها قادرة على مفاوضة أخطر جماعة إرهابيّة في العالم، بأعصاب باردة! أوصلت المبلغ إلى خمسة عشر ألفاً، قالت للمفاوض من طرفهم إنّنا لا نملك غيرها، صرفنا مالنا على علاج أمّي التي ماتت بالسرطان، ثمّ علاج أختي المصابة بالمرض نفسه. قال لها لديكم أملاك كثيرة، قالت له: تعال وخذها. حدّدوا موعد التسليم، وطريقته. قبل الموعد بساعتين كان بابا قد عاد إلى البيت بهيئة مزريّة، ذقن طويلة، ووزن أقلّ، لكنّه كان سليماً معافى. هذه المرّة جود هي التي كانت وراء عودته المظفّرة، قالت إنّ شخصاً يعمل معهم في المطبخ الإغاثيّ، ساعدها في تحريره، لكن علينا أن نبقي الأمر سراً.

* * *

حينما اشتدّ القصف على المراكز الكبرى للدولة الإسلامية في الرقّة، والتي هي عبارة عن مدارس، ومباني دوائر الدولة الرئيسة، والفيلاّت الفخمة في الأحياء الجديدة، انسرب المقاتلون وعائلاتهم إلى الأحياء داخل البلد القديمة، واقتحموا بيوت الناس، ليقموا فيها. كان القصف الجويّ قد شرذمهم. قالت سلمى: طُرق الباب في المساء، فتحت، وإذ بامرأة طويلة برداء أسود ونقاب، واجهتني بالرشاش الذي في يدها. جفلت، أرخت نقابها، فتأكّدت من أنّها امرأة، وعربيّة، خلفها رجل أحمر، شيشانيّ، بلباس طالبانيّ يحمل طفلاً ويده طفل يمشي. دفعتني بفوّهة السلاح، أردت أن أكلّمها، لكنني لم أجد صوتي. بابا كان ورائي، طلب إليّ أن أتركهم ليمروا. بعد قليل لحقت بهم عائلتان على نفس الشاكلة. حزمنا شيئاً من أغراضنا وخرجنا من بيتنا.

حيّ الثكنة، غرب المدينة حيث مكتب بابا، لم يكن حاله أحسن، مع ذلك انتقل أهلي إليه. جود أكّدت أنّهم لن يطيلوا المكوث في مكان مأهول بالأقارب، ومعزول عن قيادتهم. كان لدى جود معلومات تكتيكيّة غريبة عن تفكيرها، وكلّها صحيحة، فقد خرجوا من بيتنا، بعد أن أحدثوا دماراً هائلاً. كانت سلمى تحكي على التلفون وهي تضحك، وتردّد أنشودة مدرسيّة عن فلسطين، من كلمات سليمان العيسى: وجوه غريبة.. بأرضي السليبية.. تبيع ثماري وتحتلّ داري....

أخذوا كلّ ما خفّ حمّله وغلا ثمنه، كراسي الـ "لوي
كانز" صارت في خبر كان، تفوح منها رائحة براز، وخزانة
الكتلة الوطنيّة تحوّلت إلى "نملية": زيت وزعتر، ومرّبي، وفتات
خبز. لكنّ الخراب الأكبر حلّ بممتلكات أولاد عمّي يوسف،
احتلّوا المستشفى العائد إلى ولديه الطبييين، وأجبروا طاقمه على
العناية بجرحاهم. صاح الدكتور عليّ ابن عمّي، والمختصّ بجراحة
الأعصاب: ما نجا من تأمين الاشتراكيّة، أخذه الإسلام الجديد!

ملح القراصنة

لم تكن أختي سلمى تحبّ قراءة الروايات، لا سيّما العربيّة، وذلك الجفاء بينها وبين الرواية حدث نتيجة صدمة عاطفيّة مبكّرة، ففي صيف سنتها الثانية عشرة، أمسكت برواية نجيب محفوظ "خان الخليلي". كانت تقريباً الرواية الأولى التي أقبلت عليها بعد قصص الفتيان. أجهزت عليها بيوم واحد، وبقيت تبكي على مصير بطلها "رشدي" الذي مات بالسلّ، ثلاثة أيّام متواصلة، حتّى إنّها افحّارت من النشيج، واستقبل بابا ردّ فعلها بعنف بالغ، في غير محلّه، قرّعها، ووصفها بالجنونة، لأنّه عندما وجدها منهارة من البكاء، ظنّ أنّ حادثاً ما قد وقع لأحد أفراد الأسرة. بعدها قرّرت سلمى مقاطعة الروايات إلى الأبد. راحت تقرأ سير المشاهير، وقصص النجاح، واتّجهت في فترة من حياتها إلى الاهتمام بالباراسيكولوجي. كبرت سلمى صبيّة جميلة، وجهها مدوّر، وشعرها كستنائيّ، وعيناها لوزيّتان عسليّتان، وبشرتها ذهبيّة، وكان أصدقائي يقولون إنّها نسخة مطوّرة عني، وطبعاً يبالغون، فهي أجمل بكثير! حينما تكون منهمكة في إعداد طبق طعام، أو تصفّح كتاب، أو مشاهدة برنامج تلفزيونيّ، أتأمّلها، وأعجب بها كثيراً، فكلّ تفاصيلها على أحسن تقويم، أنفها الكرويّ، وشفتاها الممتلئتان، وقوامها الأميل إلى القصر،

والمناسب لنعومة تكوينها، ورشاقتها، وخفة دمها، كنت أغبطها دائماً، وأسعد بآثها شقيقي.

سارت حياتها هادئة بلا مشاكل أو عقبات، وبلا أية تجليات مبهرة. كانت تحاول أن تحافظ على حضور قويّ، غير دعائيّ، وتنجح على مهل، وتخاف من الحسد. درست الاقتصاد، وتخصّصت في إدارة الأعمال في الجامعة الأميركية في بيروت، وكان لديها طموح للنجاح في حقل العمل، فبحثت حال تخرّجها عن فرصة في الخليج، وجاءها ردّ سريع من شركة استثمار سياحيّة بريطانيّة، لديها مشروعات في "عمان"، فسافرت من فورها.

لم يكن لسلمي مشاعر عاطفيّة عنيفة تجاه الآخرين، ولم يُعرف عنها أنّها أحبّت رجلاً ما، ما كان يربطها بالناس وجهات نظر لا عواطف، لذلك استطاعت النجاح في عملها، كضابط ارتباط بين الشركة التي تعمل فيها، والسفارات الأجنبيّة في مسقط.

المنعطف الأوّل الذي واجهته سلمى حتّى ذلك الوقت، كان وقوعها في حبّ قرصان، تماماً كما يحدث مع أميرات الحكايات، وأنا لم أكن أتصوّر إلى أن حكّت لي أختي، أنّ ثمة قراصنة على قيد الحياة.

ذهبت سلمى آنذاك في عمل لصالح شركتها إلى شبه جزيرة موسندم في إقليم صحار، والتي يطلق عليها أيضاً اسم جزيرة الزبد، بسبب ضربات الأمواج التي ترتطم بصخور شواطئها

شديدة الانحدار، مكوّنة زبد البحر، وهي أوّل أرض عربيّة تشرق عليها الشمس كلّ يوم. ما تزال الجزيرة منطقة بكرًا، وقد أخذت شركتهم امتياز استصلاحها سياحيًا، إذ كانت محميّة عسكريّة مغلقة حتّى سنوات قريية، وذلك لقرها من شواطئ إيران التي تبدو مثل خصر يستقبل خنجرًا عربيًّا على بعد أربعين كيلو مترًا. قالت سلمى إنّها حين تأملت المشهد أدركت خديعة المسافات! قالت أيضًا: لم يكن هناك مرافق سياحيّة، فاستأجرنا بيوتًا صغيرة بيضاء عند أقدام الجبال الشاهقة، تشبه شاليهات البحر، وتعود لسكّان محليّين، على مقربة من الميناء البدائيّ، الذي ليس أكثر من رصيف متحرّك ترسو عنده قوارب بخاريّة لمهرّبين بين موسنم والشواطئ الإيرانيّة. المكان على فطرته ساحرًا شواطئ ذهبيّة عذراء ممتدّة، ووراءها باتجاه اليابسة أدغال النخيل المهيبه. البحر الحبريّ يروغ ضيقًا بين الجبال، ثمّ ينفّث نحو أفق متكاثف باتجاه المحيط، عالم لا يمتّ للمتوسّط بصله قرابة. من على الشاطئ يمكن لشفافيّة الماء أن تفصح عن أسماك ملوّنة تعوم بمرح، حمراء، وذهبيّة، وكذلك كائنات لم أعرف ماهيّتها بالضبط، أهى سلطعونات أم سحليّات ماء يبطون زرقاء وورديّة، تخرج جماعات إلى الشاطئ المخضرّ من كثافة الطحالب. في ذلك الهواء النظيف الذي لا رائحة له، ولا رطوبة ضاغطة، بل بخار كتله موزّعة بطريقة إلهيّة مريجة، اشتهيت الماء، ولم تكن السباحة ممكنة، فلا شواطئ مُعدّة، ولا سباحين، ولا نساء عاريات، بل

بضعة أطفال بدشاديشهم البيضاء، وبنات صغيرات بأثواب
مزرکشة، تختفين خلف عباءات أمهاتهن السوداء، اللواتي يحملن
قففاً من القش فيها أسماك وخضراوات.

قلت لنفسي أنتزّه في الماء، ولا أبتعد عن الشاطئ، مستخدمة
طوف أحد المهندسين الذين كانوا معنا. طوف أو فرشّة بحر
منفوخة برتقاليّة اللون، أصغر من التي نرميها في مسبح بيتنا. أتمدّد
عليه ينطلوني الجينز الذي كنت قد قصصته إلى ما فوق الركبة،
وتيّ شيرت أبيض، ولا شيء آخر. دخلت في الماء، واستلقيت،
ونظري غائب في الزرقة التي شعرت أنّها أبدية. قضيت وقتاً في
هذا السكون الجبار، وأغمضت عينيّ، وغفوت لما ظننته لحظات،
كنت ما زلت أتمادى فيها قرية من الرصيف، لكنّ الوقت كان
أطول من ذلك، لأنّني حينما فتحت عينيّ كنت في عرض البحر،
متجاوزة الممرّ الضيق المحاط بالجبال القريبة. دخلت عالماً من
القلق المتجاوز إلى حدّ الخوف، الشاطئ اختفى وراء المضيق،
وليس حولي أي أثر لبشر، لا سفن، ولا حتّى جزر قريبة، ولا
أحد يعرف بمكاني أو سيشعر بغيابي. استسلمت لنهايتي التي
باتت قرية، إمّا فريسة لكائنات البحر المتوحّشة وإمّا الغرق.
وبدأت بالابتهاال والدعاء، معرضة عن الجمال الفريد الذي أبحر
في قلبه. لم يكن ثمة أمواج تدفعني، فالبحر ساكن، ولسنا في وقت
الرياح الموسميّة، إلّا أنّ طيور السماء حلّقت على ارتفاع
منخفض، كانت كبيرة، صقوراً على الأرجح، لكنّها تجاهلتي،

وما أن تنفّست الصعداء، حتّى شعرت بحركة مائيّة قريبة من حولي، وتقافزت الدلافين التي لم أرها قبل ذلك إلّا في مجلّات ناشيونال جيوغرافيك التي كانت تصل إلى بابا بانتظام من أميركا. كنت أعرف من قراءاتي فيها أنّ الدلافين صديقة، لكنّها ستقلب الطوف الذي أستلقي عليه، وسيحدث معي كما حدث مع سيّدنا يونس، سيبتلعني الحوت، لذا هرعت إلى دعائه الذي تردده جدّي دائماً: "لا إله إلّا أنت، سبحانك إنّني كنت من الظالمين!". يبدو أنّ حركة الدلافين كانت بشارة الخلاص، إذ حرّضها قارب كان يندفع عكس اتجاه الشاطئ، من الشمال إلى الجنوب، فتتقافز من حوله. وصل صوت محرّكه إليّ فتهلّلت، وصرت ألّوح بيديّ حتّى كدت أنقلب إلى الماء الذي تحتي. كانت سفينة تقليديّة قديمة بأشرعتها المثلثة، لكنّها بمحرّك بخاريّ، وبدأ الكرب ينجلي. أطفئ المحرّك، واقتربت السفينة منّي وعلى متنها رجلان، مدّا أيديهما ليتناولاني، لكن لم يكن لديّ قدرة على التسلّق، ارتنخى جسدي بعد أن اطمأنّ لحتميّة إنقاذه. أحدهما مدّ لي سلّماً من حبال، صعدت عليه، وتلقّفتي الآخر، وصرت على ظهر المركب.

- أوووووو! الحمد لله على السلامة، كيف لم تخبرنا بهذه الحادثة، لقد كتب الله لك عمراً جديداً!

ومضيت في توييخها: كيف تهوّرين، كيف تلقين بنفسك

إلى الموت....؟

وقتها ابتسمت ابتسامة المنتصر. كانت فخورة بنفسها، إذ تعلم أن أحداً منّا لن ينال في يوم ما حظوة مغامرهما تلك.

قالت: هنا تبتدئ الحكاية يا ست جمان! كنت متماسكة حين جلست على الدكة الخشبية، أحاول تنسّم ريح الحياة من جديد، لكن بعد قليل انخرطت في البكاء، وذلك حين وجدت نفسي وحدي مع رجلين غربيين في البحر.

سارع الأصغر بينهما، والذي لا يبدو أنه تجاوز الثامنة عشرة إلى داخل القمرة. كان مفتول العضلات، أسود البشرة، وله حلقة شعر غريبة، كنجوم كرة القدم، صواعد ونوازل في شعره الأجدع. يرتدي شورت جينز مثل الذي أرتديه، وفوقه تي شيرت أخضر ممزّق، ويرتفع فوق البطن، كتب عليه بالأصفر:

!peace

بقي الرجل الآخر واقفاً قبالي، صامتاً، حائراً ببيكائي. كان في حوالي الخامسة والعشرين، ليس أكثر من ذلك، وربما أصغر منّي بقليل. طبعاً هذا ما بدا لي من نظرته، لأنّ جسده كان أكبر من ذلك بكثير. بشرته خلاسية، وعيناه رماديتان شفافتان، كعيني قطّ متوحّش. عضلاته نافرة، تكاد تخرج من جلده الصقيل. كان عاري الصدر إلّا من شعيرات متفرقة، وجذعه السفلي ملفوف ببقايا دشداشة بيضاء، بدت كوزرات البحّارة العرب، وشعره المنسدل الأسود، تحتفي جذوره تحت شال عُماني أحمر مزركش بنقوش الكشمير الصفراء.

حاولت أن أسكت نفسي، لكن حينما تفرّست في وجهه
عاودتني نوبة البكاء، وخفت من الاغتصاب، والإيدز، والتعذيب...
فأدار محرّك القارب، وعبر الماء باتجاه المضيق. لحظات التفّ
فيها حول الجبل، فبان الشاطئ الذي انطلقت منه. أطفأ المحرّك،
وقال بالإنكليزيّة: اهدهني، إنّك قرية من البيت، لقد انطلت
عليك حيلة الطبيعة، الشاطئ هنا مجرد رصيف ضيق مغمور
بالماء، بعدها تنزلين إلى هوّة سحيقة. هذه الأعماق ليست
متدرّجة كما هي في المتوسط الذي أتيت منه.

- ما أدراك أنّي متوسّطة.

- الوجوه لا تكذب!

عاد جعفر الشاب الآخر بأكواب شاي تفوح منها رائحة
الهل والمطيّيات الاستوائية، فناولني "إبراهيمو" الكأس وقال:
ستشعرين بتحسّن، هذا شاي عُمانيّ.
كان طعم الشاي لاذعاً، شعرت براحة، لا سيّما حين وسمه
بالعُمانيّ.

- هل آخذك في جولة أم أذهب بك إلى الشاطئ فوراً؟
وبدلاً من أن أنجو بنفسي، اخترت التجوال مع الغريب!

* * *

انطلقت سفينتنا السندباديّة، تمخر البحر مثل سيف يشقّ
الماء، لا زيد ولا قشور، ليس غير الزرقة الداكنة، وكنت مثل من

أغمض عينيه لثلاث دقائق، فانتقل بإكسير سحريّ ثلاثة قرون إلى الخلف، ولولا الموتور الذي يختفي في علبة خشبيّة، لما وجد أيّ دليل للحادثة في هذا العالم، الذي اقتصر على ثلاثتنا. قال إبراهيم الذي لا يعرف من العربيّة غير بضع كلمات، إنّ جدّه كان برتغاليّاً، ولد على سفينة من أسطول جاء غازياً لشواطئ زنجبار في القرن التاسع عشر. وقعت السفينة في أسر قراصنة عرب، لم يقتلوا الوليد الذي ربّته امرأة فقيرة من قبيلة المهرة العربيّة، كواحد من أبنائها. لما شبّ عشقته إحدى سليلات القبيلة الحاكمة، أغواها شقار شعره وزرقة عينيه، فتزوّجته وهربت به إلى مومباسا. عاشا هناك من تجارة البحر، فولد أبوه تاجراً، وتزوّج بامرأة من مومباسا، رسّامة شهيرة، تلك التي صارت أمّه. درس إبراهيم في معهد مهنيّ لصناعة السفن، أمّا جعفر، فيدرس الأدب الإسبانيّ في جامعة دار السلام الوطنيّة في تنزانيا.

بعد أن روى لي ذلك كلّهُ سألتُهُ ببلادة، ببراءة ربّما:

- هل أنتم قراصنة؟

ضحك إبراهيم، فبانت أسنانه المنضودة كلؤلؤ، فاتضح

اللون الورديّ لشفتيه:

- هذا ما يقوله عنّا أهل الشواطئ، ويرعبون به أطفالهم!

سرت في بدني رعدة خوف موروث، سرعان ما بدّدتها

نظّارة الـ (فوردي) التي وضعها على عينيه، فتأكّدت من أنّني

لست في حكاية من حكايات التاريخ. كنّا قد وصلنا إلى مجموعة من الجزر المتّصلة، التي سنرسو على إحداها:

- هل فيها سكّان؟
- طبعاً، صيّادون وتجار، وهناك - حيث أشار بيده - جبال إيران، إنّها قرية!

وتبدّت أمامنا مرتفعات جبليّة كأنّها انبجست من قعر البحر الساكن، قال:

- هذه جزيرة ميمزر، سكّانها عرب، وفيها الكثير من السحرة...

لكنّ المكان لم يبدُ لي سوى كتل صخريّة مصمتة:

- أين يعيش السحرة؟!
- هذه منازلهم، الجبال! ييوّهم ليست مفتوحة على البحر، الأبواب والشبابيك من الجهة المقابلة، إلى الداخل.
- ههه! هل ثمة بلاد بحريّة تدير ظهرها للماء؟!
- أرادوا اتّقاء القراصنة والغزاة، ففتحوا منافذهم على الداخل، بحيث تبدو للمقبلين جبلاً لا بشر فيها، وأشاعوا أنّ السحرة أخفوا المكان وقاطنيه....

اقتربنا لنرسو، فدخل إبراهيمو القمرّة، وخرج بمظهر آخر، يفوح منه عطر حاد من العنبر، وعليه شورت مشجّر بنقوش هاواي الزرقاء، وقميص من الكتّان الأبيض الناصع، بكّمين طويلين، وقد طرح الشال عن رأسه، فتجلّى شعره المسترسل

حتى كتفيه، والذي يبدو أنه ورثه عن جدّه البرتغاليّ لا عن جدّته الإفريقيّة.

نزلنا، وقال: لتجولّ في الجزيرة قليلاً، فعادتني الرهبة، وأفكار سوداء كثيرة، وسيناريوهات هوليوذيّة، بدّدها صوت الأذان الذي تردّد من حنجرة حيّة، بلا مكبرات صوت، فسكنني إحساس بالجلد والطمأنينة، ونسيت أنّي جئت من عالم فيه دمار، وقتل، ونشرات أخبار صاخبة. صادفت ولداً يركب حماراً أسود بيردعة، فانتابني فرح مضاعف، وتذكّرتك!

- بسبب الحمار!

كنت تحكين عن الفرق بينه وبين الحصان، بعيداً عن سمة الصبر أو البلادة أو الذاكرة، قلت: لا تكوني كالحمار، فهو سريع الامتثال، ولا يتردّد في منح ظهره للجميع، يركبه الراكب، فيحرّكه بنقرة عند الرقبة، ويوقفه بنقرة مثلها. أمّا الحصان فلا يمنح ظهره إلّا لصاحبه، ولا ينطلق إلّا بجهد، ولا يتوقّف إلّا بجهد، ويتطلّب لآية حركة فروسيّة أصيلة!

قال لي جعفر إنّ العبيد الذين كانوا يشترون من إفريقية الشرقية، يجمعهم التجار هنا في هذه الجزر، قبل وصولهم إلى شواطئ الخليج، وكانت هنا حيث نقف، أسواق نخاسة عامرة. مررنا ببناء كبير، مثل قلعة عمانيّة تقليديّة، فقال: هنا في هذه الأقبية، يتمّ عزل العبيد المرضى، وحرّقهم. تردّد صدى كلماته في الفضاء، وأصابني بقشعريرة مزعجة، فانكمشت، وتراءت لي

لوحات (ماتيس) في الكتاب الذي حملته من باريس في أول رحلة لك إليها. رأيت طقوس النخاسة، والأرواح الذليلة، والأجساد الفاتنة، والمقرحة من الأمراض، وضرب الشياطين، وأردت العبور إلى طريق آخر، فاستمهلاني قليلاً ليقبلاً صلاة الظهر، وقد ترك لي جعفر ثمرة بابايا، وثمره جوز الهند، التقطهما طازجتين وقشّتهما. أراحتني صلاتهما من وطأة الهواء الثقيل المسكون بأرواح الضحايا، ودموعهم، وهمهمهم.

غادرنا. كان جعفر قد أعدّ عدّة الغداء، وبدأ إبراهيم بالطهو، قال إنه سيذيقني أطيب طعام سأعرفه في حياتي على الإطلاق، وهذا ما كان. حقاً استطاع أن يحطّم أسطورة ماما في الطبخ! طبخ الأرزّ بحليب جوز الهند والكاراي، ووضع فوقه الصلصة التي طبخ بها ثمار البحر، والمكوّنة من شرائح البصل مع عصير البندورة، ومسحوق الذرة، وبعد أن رقدّها في طبق من الميلامين الأزرق والأبيض، صفّ فوقها الكلماري، والجمبري، وبلح البحر، وسمك الكينغ المقطّع، وجاء بمطربان زجاجيّ مربّع صغير، فيه قطع من البلّور الشفاف الملونّ بألوان مائلة إلى الوردي والأزرق والأصفر. أخرج بلّورات قليلة ونثرها فوق السمك، ودعاني إلى الطعام. أمسكت المطربان بيدي، وحرّكت البلّورات، فأحببت تماوج لوّنها، وأنا لا أكفّ عن عبّ رائحة الطعام المشهية:

- ملح هرمز، ملح نفيس، يمنح السمك طعماً ممتازاً،
هيا جربيه...

والله يا جمان، كانت الأشياء تكتب تاريخها من جديد بطريقة إبراهيمو الهادئة والواقعة، مشتبكة بمصري الشخصيّ. حتّى الملح، ما هو الملح سوى ذرات كلور الصوديوم البيضاء التي تتكتّل مع الرطوبة، أو أخرى خشنة تغرف منها ماما بملعقة الخشب لتصنع المخلّلات! لكن مع إبراهيمو صارت للجزئيات رواية أخرى، ووجهات نظر أخرى.

وجلسنا نتحدّث ونفتح قلوبنا للبحر والريح...

كان الرجل الأقرب إلى حقيقة الحياة، بلا أفنعة، بلا بهرجة، يضحك بلا حسابات، ويقطّب بلا ادّعاء، وله جمال الحيوانات المتوحّشة وفطرتها، ومعه أسقطت كلّ ما تعلّمته من نظريّات الاقتصاد، معه حاجات الإنسان تنتهي، وموارده غير محدودة، وهو رغم قوّته الراسخة، فيه هشاشة غير ملموسة، لها علاقة بأصوله ربّما، لا أعرف كيف أسمّيها!!

- تقصدين.. جرح اللّون، السواد؟!

- تماماً، دائماً لغتك هي الأعلى يا جمان.

- لا أعتقد أنّ لديه مثل هذه المشاعر، هذا في خيالك

فحسب، موروثك الفكريّ، الصياغة المتعالية الإمبرياليّة

التي تمّ تلقينك إيّاها في الجامعة الأميركيّة!

- هههههههه...

قال إبراهيمو إنّ عليه أن يعيدني إلى صحار، إذ يخشى أن

ينحسر المدّ سريعاً، فتغرس السفينة في الرمل، فيصعب عليّ

المرور إلى الشاطئ. لماذا على الجمال أن ينقضي هكذا سريعاً!
ولماذا حينما تسري روح الألفة بيننا وبين الأشياء نبدأ بفقدانها؟!
عموماً، لم تنته حكايات إبراهيم بإعلان العودة، فحينما
قام ليدبر المحرك، شعرت بأنني بحاجة إلى أن أضمه، وكان البحر
المشجع الأكثر حماسة، ادّعت بيني وبين نفسي أن عليّ أن
أشكره لأنه أنقذ حياتي، ولأنه عرفني على هذا الجمال كلّهُ،
ولأنني مضطربة في عرض المحيط الهندي، المهم كان لديّ
مسوّغاتي الكثيرة لأضمه إليّ، فاحتضنت خصره من الخلف،
وألصقت وجهي بجلد ظهره البنيّ، فملأت أنفي رائحة البخور
الحاّدة، وكدت أفقد توازني. كان إبراهيم ينظر نحو خطّ سير
المركب، ولم يبد حراكاً، أعتقد أنّه لم يكن يريد أن يفزعني،
واستفزّني صلابته أكثر، ورغبت في أن يطوي جسدي، فأمنعت
في دفعه نحو حافة المركب، إلى أن استجاب لي، وأرخى جسده،
وضمّني إلى قلبه، فسمعت طقطقة مفاصلي...

ياااااه يا جمان، أرجو أن تحظي بما حظيت به! السواعد
السوداء لا تشبه غيرها، أنضجتها الشمس، وصقلتها الريح
الموسميّة، واحترق بها جسد أختك!
- السافلة طبعاً!

ضحكت سلمى، وهبتُ من عمق إحساسها وجرأتها، وأردتها
أن تتوقّف عن الوصف، ورحت أحاول أن أمنع خيالي من رسم
صورها مع رجل، إنها في النهاية أختي، طفلي الصغيرة البريئة!

أطلّ جعفر وهو يحمل آنيتين ملوّنتين في كلّ منهما قشّة للشراب، ناولنا إيّاهما. كانت الآنية نصف يقطينة مجفّفة، قلبها محفور، وعليها نقوش إفريقيّة تقليديّة ملوّنة بالأخضر والأسود والأحمر، فيها شراب المانغا المبرّد.

ما أردت أن أفارق إبراهيمو، ثمّنت أن أبقى في قبضتيه الآسرتين، وأن أسمع المزيد من حكاياته الملوّنة بألوان السحر والخوف والأشواق. أمضينا بقيّة الوقت في أحضان بعضنا البعض، نتأمّل من حولنا البحر وطيور النورس، وجعفر متشاغل عنّا بترتيب المركب.

قال إبراهيمو إنّهُ ليس في متناوله شيء ليهديني إيّاه، وبلا تعمّد وقعت عيني على اللؤلؤة البيضاء التي تتدلّى من رقبته، معلّقة بخيط أسود، كبيرة الحجم بشكل مبهر، ولها شكل إحصاة، بل شكل الأجنّة المُجهّضة، ومن فوره أمسكها وقال بحزم: لا يمكنني إعطاؤك إيّاه، إنّها هديّة من حوريّة البحر. تحميني من الأحوال. وكان عليّ أن أصدّق الحكاية مثلما صدّقت ما حدث لي منذ أوّل النهار:

كان وجعفر يغوصان في أعماق قرية، يصطادان المحار، وفي واحدة من الجولات، وجدا أجمة مرجان، فهرعا إليها. قال: ما أن وصلنا حتّى وجدت جعفر قد شرع يسبح نحو السطح بحركة مباغتة، بلا أدنى إشارة، التفتّ إلى يساري، وإذ بامرأة بيضاء جاثمة وراء شعبة المرجان الأحمر، شعرها من لونه، وتحاول تخليص

يدي وليدها العالقتين بين أذرع المرجان المتشابكة. تماسكتُ، واقتربتُ منها، وكان طرفها السفليّ ذيل سمكة فضيَّة. قطعت بسكّيني أذرع المرجان، فسحبت الجنيَّة طفلها، وأنا أتحاشى النظر إليهما، حدث ذلك في دقيقتين أو ثلاث، وبعد أن أنهيت مهمّتي صعدت إلى المركب. كان جعفر ينتفض من الزعب، وقد انعقد لسانه. وبينما جلست أنا الآخر لألتقط أنفاسي وأتمكّن من التفكير بما رأيت، كانت يد بيضاء صغيرة قد خرجت إلى السطح، ورمت لي هذه اللؤلؤة النادرة، التي لا يوجد البحر بمثلها كما قال لي تجّار الشواطئ. لا أستكرها عليك، لكن أخاف إن منحتك إيّاها أن تغار جنيّتي فتؤذيكَ...

قلت له:

- هل عليّ أن أصدّق حكايات الحوريّات؟

- أنت حرّة في ذلك.

كان عليّ يقين تام بما حدث معه، وقد أحببتُ يقين هذا البطل، الطويل العريض، بحكايات الجنيّات، وأكثر من ذلك أنّني صدّفته، وأعطيته سلسلة الذهب التي تحمل "آية الكرسي"، التي أهدتني إيّاها ماما عند تحرّجي.

- قلت إنّك أضعتها، وجعلتنا جميعاً نحزن لفقد تلك

التحفة المحفورة باليد، والتي أهداها جدّو لماما عند ولادتك! وحمّلت لقاءها مطربان ملح، وكأساً من

اليقطين. مقايضة بائسة!

- لو أنه طلب منّي الرحيل معه ساعتها لفعلت، وفكرت:
ماذا لو نزل إبراهيمو عن عرش البحر إلى اليابسة، هل
سيفقد سحره وسلطانه؟! ولو ارتدى ثياباً عاديّة، بدلة
رسميّة أو معطفاً شتويّاً، أيّ تحوّل سينتابه! وحاولت أن
أتخيّل صورته طفلاً رضيعاً بحفاضة وأوفرهول، ثمّ ولداً
في صفّه الأوّل الابتدائيّ، يراقب أمّه وهي تجلس إلى
لوحة الرسم. تمّيت لو اقتنيت واحدة من لوحاتها ذات
الألوان الحارّة، لو عرفت أكثر عن جدّه القرصان
الأكبر...

- لم لم تسأليه عن ذلك كلّه، ما دمتما قريين إلى هذا
الحدّ؟!

- لأنّني ارتكبت خطأ فادحاً، وثقت بالوقت!
طلب إليّ أن أنتظره بعد يومين على الشاطئ، سيحمل لي
شيئاً سأحبّه، وسأأخذني إلى أماكن لم يعرفها بشراً... لحظة
الوداع قبلني في عنقي قلة طويلة، وأتبعها بقبلات لاهثة متقطّعة.
الشفاه العريضة المبطوطة لها وظيفة زائدة على وظيفة الشفاه عند
بقية البشر، أثرها أبقى. شعرت بأنّ رحمي يهبط، وسائلاً يدفعني
بين فخذيّ...

وضعت يدي على فمي، وكتمت شهقي، وصممت أنا
وسلمى...

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء، أنت اتصلت بي في اليوم التالي، وقلت إن
ماما مصابة بسرطان الكبد، وستموت بعد شهر،
فحزمت حقائبي وعدت إليكم في حلب.
سكتنا لبرهة، تستعيد كل منا بطريقتها تلك الأوقات
الموحشة...

- أما من عنوان للسؤال؟
- لا، القراصنة لا عناوين لهم.

* * *

أنا على يقين تام بأن الساعات الأجل التي قضتها سلمى في
حياتها، هي ساعاتها مع القرصان إبراهيم، ومنذ أن حكى لي
حكايتها صرت أناديها بالقرصانة سلمى. في الحقيقة، أنا وبابا،
عرفنا إبراهيم شخصياً، لكننا لم نقل لها شيئاً، لم نرد أن نفطر
قلبها. لقد زارنا إبراهيم في حلب، بعد أن استقصى عن سلمى
في الشركة التي عملت معها في مسقط.

جلس القرصان إلى مائدتنا، وقلنا له إن سلمى قد تزوجت
بعد موت ماما. وحتى ذلك الوقت، وبالرغم من كل ما قالته لي
عنه، كنت أتخيل إبراهيم رجلاً ضخماً، بلحية حمراء كثرة،
وبرقعة جلدية سوداء على إحدى عينيه، لكنه كان أعذب بكثير
مما وصفته، وفي غاية الأدب، وفي عينيه صبر الشراع على الريح،
وكان يبدلته الزرقاء الـ slim fit، والتي أجزم أنها بتوقيع

"آرماني"، مثل أمراء العرش الإسباني لا مثل قراصنة البحار، وأعتقد أنه من رحمة الله عليها أنها لم تقابله بعد أن نزل عن عرش البحر كما قالت، وبعد أن سارت في درهما. طلبنا إليه المكوث في حلب قليلاً لنقوم بواجب ضيافته، لكنّه فضّل الرحيل لإتمام رحلته إلى إسطنبول، وسألني أن أوصل إليها هداياها: لوحة صغيرة بتوقيع أمّه التشكيلية "ملحة محمود"، فيها بيوت صغيرة يركب بعضها فوق بعضها الآخر، وكلّ بيت مشكّل بلون من باليت الألوان الأساسيّة، أحمر، وأخضر، وأزرق، وأسود، وبنفسجيّ، وأصفر، على ساحل داكن الزرقاء، يعكس صورها على مائه، فتبدو مرسومة مرّتين، مرّة واقفة، ومرّة مستلقية على صفحة الماء. الهدية الثانية كانت شمعداناً من المرمر الأزرق، برأس واحد، وقاعدة من البرونز المعتق، منقوشة بوجوه صغيرة لاتينية الملامح. قال إنه أحد الموجودات التي كانت مع جماعة من القراصنة، الذين هاجموا سفينة من أسطول كريستوف كولومبوس في القرن الخامس عشر، عند عودته من أميركا إلى إسبانيا.

* * *

حينما عادت سلمى إلى الرقة بعد وفاة ماما، كانت البنوك الخاصّة قد شرعت تفتح لها فروعاً للمرّة الأولى في مدينتنا القصيّة، وتبحث عن موظّفين بمؤهّلات لائقة، وطبعاً لن يجدوا في

هذا المكان الموسوم بريفية مطعّمة بيداوة، أكثر أهلية من سلمى، في علمها، وحضورها، وذكائها، فاختروها مديرة لفرع البنك اللبناني السوري. كلّنا اعتبرنا ذلك حظاً أصاب العائلة، ذلك أنّها ستبقى مع بابا، فتخفّف من ثقل الفراغ المرعب الذي تركه رحيل ماما، وفي الوقت ذاته يمكنني أن أستغلّ وجودها لأتنقّل بين حلب والرقّة لأغراض عملي الأكاديمي، فأدرّس في الجامعة في حلب أياماً أربعة، وأقضي معهم الثلاثة الباقيات. بعد أقلّ من سنة على موت ماما عرفت أنّ سلمى تفكّر بالزواج. لقد حدث تقارب بينها وبين أحد العملاء الذين يتردّدون إلى البنك. مهندس زراعيّ تخرّج في جامعة دمشق، ورغم صغر سنّه الذي لم يجاوز السابعة والعشرين، كان قد كوّن خلال خمس سنوات من العمل في دبيّ ثروة معقولة. اشترى أرضاً على الفرات، وحوّلها إلى مزرعة للأشجار المثمرة، تفّاح، وخوخ، ودراق، وبني فيها فيلاً صغيرة، وحين تعرّف إلى سلمى كان يتابع معاملات قرض صناعيّ تقدّم للحصول عليه لإنشاء معمل للأجبان والألبان في هذه المنطقة الغنيّة بثرواتها غير المستثمرة بالشكل المستحقّ، بسبب إهمال الحكومة المتعمّد لها، لذلك يأتي اللبن من حلب وحمص فاسداً بسبب سوء النقل والتخزين.

كان "نسيب" ابناً لمعتقل سياسيّ سابق، من الاشتراكيّين، الذين سجنوا لمعارضتهم ضمّ حزبهم إلى أحزاب الجبهة الوطنيّة منذ السبعينيّات، لذلك حينما تقدّم لخطبة سلمى، تردّد بابا كثيراً

في مباركة الزواج. بابا يكره الإيديولوجيا في نسختها العربيّة تحديداً! قال لسلمي: ستكون ظروفه صعبة بسبب إرث أبيه السياسيّ، وستقف فروع الأمن كلّها في طريق خطواته، لكنّها أصرت على أنّ وضعه الأمنيّ ممتاز، وقد مكّنه من الحصول على تراخيص تجارية وصناعيّة، لا يستطيع غيره الحصول عليها، وأنّه عند الحاجة يدفع كثيراً. كنت أثق بقرارات سلمى العمليّة، وبصياغاتها الواضحة، وكذلك كان بابا، فتمّ الزواج.

عاشت مع "نسيب" حياة مستقرّة، وأنجبت بنتين خلال ثلاث سنوات، إلى أن حلّ الخراب بالرقّة. انسحب الجيش، ومظاهر الحكومة السابقة، ودخلت الجماعات المسلّحة التي انتهت إلى تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، الذي أُرعب العالم، واتخذ من مدينتنا، ولاية الرقّة، على حدّ تعبيره، عاصمة له. استولى نفر من الهيئة الشرعيّة على فيلا سلمى ومزرعتها، وجعلوها مقرّاً لهم، فعادت مع أسرتها الصغيرة للعيش مع بابا، وكانت تواسي نفسها فتقول: في النهاية سيخرجون، لا أحد يأخذ معه جدراناً، وعوضنا على الله.

كان الجيش النظاميّ يرمي براميل متفجّرة على أماكن تجمّعات أفراد الدولة الإسلاميّة، ومقارّهم، وغالباً ما تخطئ تلك الضربات هدفها، فتقتل المدنيين، لكنّها هذه المرّة أصابت مقرّ الهيئة الشرعيّة، بيت سلمى، والذي هو مركز اعتباريّ متقدّم للدولة الإسلاميّة، وسوّته بالأرض. تحمّلت أختي رزعا بقوة، لا

أعرف كيف كان شكلها أو ردّ فعلها الحقيقيّ، فأنا بعيدة. كنت أقول لها على التلفون إن توافرت الاتصالات: إنّ الصّحة هي الأهمّ! وأعرف أنّها كانت تنظر إلى مرضي، وتحمد الله، والغلّ يتقطّر في قلبها من الذين كانوا سبباً في خراب بيتها.

"نسيب" كان يحسب خساراته، لقد تحوّل فجأة من شاب يفوق أقرانه، يملك الكثير، وتضحك له الدنيا كلّ يوم، إلى ربّ أسرة، وأب لبنتين، لا يملك شيئاً. ظلّ صامتاً وقتاً طويلاً، ثمّ قرّر اللجوء، ونشبت حرب أخرى، لكن هذه المرّة كانت بينه وبينها:

- سأموت هنا، ولن أتحوّل إلى لاجئة، أنا أعرف تماماً مغبّة اللّجوء. سيعود النظام، وسيُمنع اللاّجئون من العودة إلى بلادهم، واستعادة أوضاعهم السابقة.

- السويد تمنح اللاّجئين أوراق إقامة رسميّة، ولكلّ واحد عشرة آلاف يورو، تمكّني من أن أبدأ من جديد في ظلّ الأمان والكرامة. هنا في الرّقة لا أحد يسأل عنّا، لا من قبل ولا من بعد، بل تركوا شرذمة من المجرمين يفتكون بأرواحنا كأننا قمل في الأرض، ثمّ يقصفوننا من فوق. سأذهب وأرتّب أمورنا، ثمّ تلحقين بي مع البنّتين.

اشترطت سلمى عليه أن يسجّل أملاكه، المعلقة أصلاً بين فكّي الشرع الجديد، باسمي البنّتين. هكذا هي سلمى، تُعمل عقلها حتّى في الطريق إلى الهاوية.

سافر نسيب إلى مصر، وأبحر من الإسكندرية إلى ليبيا،
حيث اتصل بها قبل خروجه من هناك. بعد أربعة أيام كانت
البحرية الإيطالية قد تعرّفت إلى أوراقه الثبوتية مع مهاجرين
غرقى، قبالة سواحل لامبيدوسا...

فارس قلعة يوركشاير

على عكس سلمى، كانت "جود" البنت التي لا يثق برأيها في البيت أحد. لقد أفسدتها عمّي ليلي بتدليلها المتجاوز لها، فكلّما قرّعتها ماما، أو تشاجرت مع إحدانا، تنسحب إلى غرفة عمّي ليلي التي تعيش معنا، وتبيت في سريرها. غرفة عمّي مثل مغارة سحرية، فيها كلّ شيء، مجوهرات ثمينة، ومرايا من بلاد بعيدة، وعطور باذخة، ومكاحل عربية، وكريمات مصنّعة محلياً من الغليسيرين وعصير الليمون، وصور لها في فندق الملك داوود، حينما ذهبت مع والديها في رحلة مقدّسة للصلاة في المسجد الأقصى في العام 1960.

بسبب من هذا الدلال تأخّرت جود عنّا في دراستها. كانت تحبّ متابعة التلفزيون في مساءات الشتاء، ممسكة بسيخي نسج الصوف، وبكبايب ملوّنة، مقلّدة عمّي التي أحضرت لها خصيصاً أسياخ ثخينة من البلاستيك الأحمر. في السابعة من عمرها بدأت جود بحياكة كنزة من الصوف الأخضر لـ "ربيع الخولي"، المطرب اللبناني الذي كانت مغرمة به، تتابع أغنياته، وتعبر عن افتتائها برموشه الطويلة وعينه الخضراوين، اللّتين جعلتاها تختار اللون الأخضر للكنزة. استمرّ العمل في حياكتها ثلاثة مواسم أو أربعة من الشتاءات، وقد صار لقطعة الصوف

شكل غريب، ممطوط، غير مؤطر بهويّة. كانت كنزة ربيع الخولي
مثار تندرّ الجميع في الحيّ، بسبب عمّي ليلي التي نشرت خبرها
بين الأقارب والجيران، وحين استطالت قطعة النسيج كثيراً،
صارت عمّي تقول إنّها أشبه بسرّوال داخليّ، فتبكي جود من
الإهانة، وبكت أكثر حينما علمت أنّ حبيب قلبها ربيع الخولي،
اعتزل الفنّ، ودخل إلى الدير، وصار راهباً. لكنّها سرعان ما
قالت إنّّه الآن سيحتاج الكنزة أكثر، لأنّ الأديرة غالباً ما تكون
باردة، وأنّها ستظلّ تسمع أغنياته القديمة. ماما أشارت عليها أن
تصعّر قياس الكنزة، لأنّ الرهبان لا يأكلون كثيراً، ويفقدون
وزنهم، وكنا جميعاً ننتظر أن يذهب أحد إلى بيروت، ليحمل معه
كنزة ربيع الخولي التي اتخذت أخيراً شكل لفّاحة، وهذا أقصى ما
يمكن لجود أن تفعله!

كانت لها آراء متطرّفة في الأشياء، فكانت تعرض عن شرب
الحليب، لأنّه بول البقرة، ولا تعرف كيف يمكن للناس أن
يشربوا البول! وحين أخذها فلاح مزرعتنا ليريها كيف يحلب
الضرع بعيداً عن البول، جلست تحت البقرة، التي بركت بدورها
عليها، وكادت تقتلها، فاعتبرت البقر حيواناً مفترساً وقاطعت
منتجاته إلى الأبد. وكانت تعتقد أنّها إذا ابتلعت بذرة برتقالة أو
تفّاحة، أو عنبية، ستنبت شجرة في بطنها، وتخرج من فمها،
وكانت حينما تفعل ذلك عن طريق الخطأ، تبكي وتورّقنا طوال
الليل. أحبّبت الموسيقى، ولم يكن في الرقّة معلّم واحد يمكن أن

يعلّمها العزف والنوّة، لكن كرمى لعينيها جاء لها بابا بمدرّس موسيقى من مدينة طرطوس، شاركه في تأسيس مركز صغير لتعليم العزف، وأعطاه شقّة صغيرة في واحدة من العمارات التي يملكها، ليقيم فيها. وكانت جود تدرس معه كلّ يوم ثلاث ساعات تقريباً، حتّى أتقنت الصولفيج، وانتقلت إلى العزف المتقن على الأو كورديون، وصار بيتنا منذ ذلك الحين صندوق أنغام، يتوقّف أمام شبائيكه العابرون، يستمعون إلى مقامات جود الشرقيّة في المقدّمات الطويلة لأغاني أم كلثوم، مع فالسات عبد الوهاب، وتانغو فريد الأطرش. فضجت شخصيّتها، وصارت أكثر مسؤوليّة وصفاء، ولا سيّما مع قراءاتها لسير الموسيقيين العظام، فصارت ترنو إلى السفر إلى عواصم الموسيقى لتتعرّف إلى آثارهم عن قرب.

كبرت جود، وكانت، وفاقاً لمعايير الذوق التقليديّ، أجملنا. بيضاء ناصعة، طويلة، وممتلئة، وشعرها الأسود الكثيف يصل إلى منتصف ظهرها، ولها حاجبان مثيران، مزجّجان بيد الله، تحتهما عينان سوداوان، فيهما يقين بريء ومستفزّ كيقين الملائكة، ومنذ يفاعتها كان لها سمّت النساء المتزوّجات، لكنّها كسولة، ومستسلمة، وجبّانة، وأرأف بها من أن أصفها بالمعثرة، لكنها كانت كذلك. فما أن اطمأنت لوجود هاني أستاذ الموسيقى في حياتها، والذي أدمنت العزف معه في حوارات موسيقيّة باذخة، جعلتنا نخشى من تعلّقها به كمراهقة، حتّى غادر. ذهب في

إجازة إلى أهله في طرطوس، وعلمنا أنه هناك قد قتل زوجة أخيه، وقد يحكم بالإعدام! امتازت جود غير مصدقة، وعادت إلى أحضان عمّي ليلي، لكنّ عمّي الخمسينيّة تركتها وهربت مع الدكتور صادق، الذي لم يكن طبيباً، كنّا فقط نناديه بالدكتور لأننا لم نجد لقباً يناسب تخصصه، لقد كان مدلّكاً.

كانت عمّي ليلي قد أصيبت بآلام في الرقبة والظهر، والمفاصل، وشخص لها الأطباء آلامها بما يعرف بالمناقير، فوضعت حول رقبتها طوقاً طبيّاً، وخضعت لجلسات مسّاج يوميّة. المدلّك الوحيد الذي كان في البلد هو صادق، الذي لا نعرف إذا ما كان قد درس العلاج الفيزيائيّ في معهد ما، أو امتهنه بالتعلّم والخبرة، لكن كلّ من خضع لمسّاجه كان يقسم على أنه ارتاح واستطاع نوم اللّيل، ولما كانت آلام رقبة عمّي مبرّحة ولا يمكن احتمالها، كان لا بدّ لها من صادق، الذي يعدّ بنفسه الزيوت العطريّة التي يستخدمها في التدليك، وكانت رائحتها تسبّب دواراً واختناقاً لمن يعاني من حساسيّة أو مشكلة في الجهاز التنفسيّ مثل بابا، فكان يغادر المنزل بمجرد دخول صادق حاملاً حقيبتة المعدنيّة الخضراء، محتفلاً بجسده المكوّن من مربّع كبير، يعلوه مربّع أصغر بمثابة رأس، فيما كانت عمّي تستلقي في سريرها على بطنها، وتغطّي جسدها بدثار كبير جدّاً، وتستسلم لكفّيه بأصابعهما المسطّحة، وأظافرهما ناصعة البياض، وتبدأ بالتأوّه والصراخ، وتتحلّق حولها أنا وجود وسلمى، لنشكّل كتيبة حراسة، نتمّم بعريها.

حين تزوّجت عمّتي خلسة به، استغرب بابا تصرفها المبالغت. قال إنّها لو أخبرته برغبتها في الزواج من صادق أو غيره، لما تردّد لحظة، فهي بالغة راشدة، ولها إرث كريم من والديها يجعلها مستقلةً ماليًا. كان سيارك زواجها، ويقدم لها هديّة لائقة! لكنّ ليلي لم تبارح عادتها في تمثيل الأدوار السينمائيّة المثيرة، كان عليها أن تبقى تلك الأرستقراطية التي ستحبّ الرجل الذي لن ترضى عنه العائلة. لم تستطع أن تتقبّل أنّ الزمان الأوّل تحوّل، وكان عليها أن تقرب مع سائقها أو خادمتها أو مرافقها، لذا هربت مع مدّلكها.

وجدت جود بعد ذلك نفسها بلا مصدر دائم للإطراء، وبلا من يتحمّل دلالها وكسلها. حاولنا إحاطتها بمحبّتنا واهتمامنا، لكنّها غرقت في أنانيّة مفرطة. حصلت في الثانويّة العامّة على مجموع أكثر من توقّعاتنا، ودخلت كلّية التعويضات السنيّة في جامعة حلب، حيث تتمّ صناعة المستلزمات المخبريّة لأطباء الأسنان. في الجامعة وجدت نفسها. كانت أخرى مختلفة، محبوبّة من قبل الجميع، ومرحة، ومثابرة. كنّا دائماً نخاف ردود أفعالها: حين مرضت ماما، لم نعلمها بحقيقة مرضها، خشينا عليها من الصدمة، تركناها في عملها في الرقّة، وبقينا أنا وسلمي الصغيرة، التي جاءت من عُمان، نعتني بماما حيث مكان علاجها في حلب. قلنا لجود: لا تغلقي مخبرك، وتؤخّري شغلّك، ستشفى ماما سريعاً، وسنعود إلى البيت. جود كانت تعرف أنّ ماما

ستموت، لكنّها تخادع نفسها بسلامتها، هكذا هي دائماً، تهرب من الواقع إلى النوم، أو إلى التجاهل، ولا تواجه أبداً. وحين ماتت ماما، فكرنا جميعاً بجود، واحتضناها، واطمأنا إلى أنّها لن تنهار من الصدمة. نجح بابا في منعها من الزواج بشاب يدرس معها، كانت قد أحبته. كان ربيب أب غنيّ، صاحب وجهة اجتماعيّة، يعمل مديراً لإحدى مؤسسات الدولة التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعيّة، تعنى برعاية المسنين وبالتكافل الاجتماعيّ، وكانت جود تقول: لو لم يكن نبيلاً لما أدار هذا الموقع الإنسانيّ، ولما عيّنه أصلاً رئيساً له، وكان بابا يقول لها: الجزاء في هذا البلد ليس من جنس العمل بل هو عكس العمل. كان وجه بابا محتقناً حينما حكى مع جود في هذا الموضوع، فهو لا يحبّ فتح الملفات القديمة، لقد عوّد نفسه على الصمت، يراقب انهيّارات العالم من حوله مثل بوذيّ ينتظر السلام الموعود، ويهزّ رأسه وهو يجد تحليلاته المنهجية وأحكامه على البشر والظواهر التي يشتركون في تشويهاها، تصيب ولا تخيب. حياديّ وصامت مادام العالم ينقلب بعيداً عنّا، لكن حين يقترب الخراب منّا، يتحوّل بابا إلى مقاتل عنيف ومنتصر دائماً. قال لجود إنّ الرجل الذي تتغنّى بنبله، والذي سيصير حماها، وجدّ أولادها، كان قد قاطع أباه الذي عاش متسوّلاً لصدقات أهل الخير، فكيف يمكن لمن ناء بحمل أبيه، فرماه في الطريق أن يحمي ضعفاء المجتمع كلّهم، ويضفي على حياتهم الأمن والثبات! كلّ ما في الأمر أنّ الوظيفة

شغرت، فرشحه الرفاق في الحزب لشغلها، ونالها مثل أيّ منصب يناله حزبيّ في بلد يحفل بالمتناقضات. جود وقتها خرجت عن الحدود التي اعتدنا أن نقف عندها في خطابنا مع بابا تحديدًا، أرادت أن تدافع عن حبّها، وطلبت إليه أن يكفّ عن احتكار أخلاق الفرسان، وسلبها من الآخرين، وازدرائهم، وتقييمهم على أنّهم رعا: هذا مرتشٍ، هذا خائن، هذا بخيل، هذا متملق....

حين سمع بابا إعلان الثورة المفاجئ، علا صوته، وبدأت كلماته تتداخل، وعيناه خرجتا من مكانهما وارتفعتا إلى وسط جبينه في مظهر مخيف. دفع جود نحو باب البيت بيده، وقال لها: هيّا اذهبي إليه، اذهبي إليهم، وعيشي في ظلّ التكافل الاجتماعيّ، فربّما يسكنك في الملجأ أو في الميتم....

فما كان من جود إلّا أن تحرّكت بالاتجاه الآخر، نحو غرفتها وانهارت بالبكاء، ولا نعرف إن كانت قد تركت حبيبها مقتنعة بتقييم بابا أم ممثلة لقراره.

* * *

مياه كثيرة مرّت تحت جسريّ الفرات، القدم والجديد، وحلّ الخراب بسبب الثورة وفوضاها، والقصف المستمرّ لأماكن تجمع الفصائل التي تعدّدت، ولم يعد أحد يميز الداخل من الخارج، وأغلقت جود مخبرها، لأنّ المرأة لا تعمل، ولا تخرج من

البيت إلا بمحرم في شرع الحكومة الجديدة. كانت وحدها في البيت تعدّ العشاء، سمعت صغير صاروخ يعلو شيئاً فشيئاً، قرب الصوت، ولم يمكنها هول رعدة القضاء المحتّم من النزول إلى الملجأ. التصقت بزواية المطبخ بين الحوض وغسّالة الصحون، لو استطاعت أن تحفر الجدار وتختفي فيه لفعلت. لا تعرف إذا ما كانت قد صرخت أم لا، لم تسمع سوى صوت سكّون، وأحد المارّة يصيح:

- بنت عمّي.. طيبين أم ميتين!

أدركت أنّها على قيد الحياة، وراحت في ضحك وبكاء... عاد بابا من مواعده لدى الطبيب، ومعه سلمى وبناتها، كان في حالة ذهول إذ قالوا له في الطريق إنّ الصاروخ قد سقط حول البيت. كان زجاج النوافذ قد تحطّم، وتصدّعت جدران القصر، الصاروخ سقط فوق البقّالة المجاورة، على بعد عشرة أمتار. عشرة أمتار فصلت بين موت جود وحياتها. لم تقل لأحد إنّها كانت قد أرسلت محمود ابن الجيران إلى البقّالة ليأتي لها بعلب التونة للعشاء. محمود الولد الأحمر السمين، بأعوامه العشرة، تشظّى، ولم يعثر له على باقية. بعدها قالوا إنّهم قد عثروا على رجله على بعد خمسين متراً، تعلو برج ساعة المدينة، البرج الذي كان فوقه قبل دخول المسلّحين، رجل يحمل شعلة تمثّل شعار ثورة الستينيّات. لم يعرف أبوا محمود لماذا كان ولدهما في البقّالة، وهو لا يملك قرشاً ليشتري به شيئاً، فالرواتب لم تصل منذ ثلاثة

أشهر! صاح منتحباً: يا الله! لم نقتل، لم نسرق، لم نقطع رزق أحد، ماذا فعلنا؟ شربنا كأساً انتشيناً بها، وهونا مع بضع نساء، جعلنا حياتهنّ أفضل!

كنّا نحبّ محمود، وكان يحبّنا جميعاً، وكنت دائماً أسأله: محمود، ما هي أمنيّتك في الحياة؟ وكان يقول: سندويشة لا تنتهي، ومعها كازوزة لا تنتهي.

بعد الصاروخ، وضعت جود الحجاب، وقرّرت العمل في المطبخ الإغاثيّ. وجدته مكاناً تصنع فيه شيئاً مهمّاً، فتشعر بالجدوى، وتحدث فرقاً. تساعد في إعداد وجبات للأسر المحتاجة، والتي غالباً ما انخرط أحد أفرادها في الفصائل المقاتلة ضدّ الجيش النظاميّ، والتي لم تعد وافدة بالضرورة، بل من المكان عينه، حيث جاع الناس نتيجة الفوضى والحصار والقصف المستمرّ. رفض بابا خروجها في هذا التوقيت الصعب، وتعاملها مع ناس من مشارب مختلفة، وهم في معظمهم ليسوا من أهل البلاد، منهم متطرفون، ومنهم عناصر من التنظيم المسلّح، شيشان وأفغان، وتونسيّون، وسعوديّون، أولئك يجب ألاّ يروا جود، فثمّة اختطاف، وسبي، ورجم، واختراعات أخرى غريبة عن طبيعة حياتنا المسالمة والتمدّنة. انسلخت عنّا تماماً، وكأنّها ليست من البطن التي حملتنا. كنّا في كلّ مرّة تخرج فيها جود، نحسب حساباتنا في أنّها لن تعود لأيّ سبب، رغم أنّ معها صبايا كثيرات من بنات الرقّة، وفيهنّ بنات أعمام لنا، لكنهنّ لسن

بجمالها، ولا برقتها. كانت تذهب إلى المطبخ الإغاثي بسيارة رينج روفر، قد خصصها المتبرعون لتنقلات المتطوعين، وطبعاً كانت ترتدي الأسود، العباءة، وغطاء الرأس، والنقاب الذي يغطي الوجه. يجتمعون هناك في مطبخ النساء، يعدّون للمحتاجين، وللمشرّدين، وجبات الأرزّ ويخنة الخضار والدجاج، والجزر مع البطاطا المطبوخة بصلصة البندورة وكرات اللحم، أو الفاصولياء البيضاء، أو البامياء، أو الفول، وكلّ ما يصلح ليكون وجبة مشبعة للمقاتلين، ولأسرهم. عاش كلّ من بابا وسلمى حرباً أخرى مع جود، حرباً لمنعها من الخروج إلى هذا الأرخبيل القذر من تجمّعات الفصائل العسكريّة، المتأسلمين، والزعران، والفاشلين، والمرضى النفسيين، وكلّهم يحملون السلاح، ويشكّلون هدفاً لقصف النظام الذي لا يهتمّه وجود مدنيّين بينهم، فهذه حرب ليس فيها حقوق لأحد، أو موثيق، أو معاهدات تخصّ الأسرى والنساء والأطفال، القيم فيها معطّلة.

* * *

عندما أسّس بن لادن القاعدة في العام 1988، لم يكن "روح الأمين" قد ولد بعد. ولد في العام الذي يليه، في بيت قرميديّ لا تتجاوز مساحته خمسين متراً، لكنّه محاط بجنيّة صغيرة، مزروعة بأشجار الخوخ والليمون، في نورثالرتون، عاصمة مقاطعة يوركشاير، شمال شرق إنكلترا. عاش ولداً وحيداً، وبلا أصدقاء،

إذ لم تكن العائلات تحبّ اختلاطه بأولادها، ولا سيّما حين كانوا يلاحظون ذقن أبيه، وعباءة أمّه التي كانت بخلاف أمّهاتهم، محجّبة. كانت أمّه كاثي الإنكليزيّة صديقه الوحيدة، وقد تحوّل اسمها إلى آيشة، أو عائشة بعد زواجها بأبيه شريف خان، الذي كان طبيب طوارئ في مستوصف الحيّ المعزول نسبياً في طرف المدينة. أحبّ التنزّه معها، وكان مكان نزهاتهما المفضّل قلعة نورمنديّة عتيقة، مبنية على رابية قريبة من بيتهم، كان يحلم دائماً أن يكون أميرها. في سنته السادسة عشرة، أخذه أبوه إلى لندن، حيث اصطفّ مئات المسلمين داخل مسجد ميدان فاينسبري، ممتدّين إلى الخارج، يستمعون إلى خطبة أبي حمزة المصريّ، محاطين بعناصر الشرطة البريطانيّة. لقد أدهشه الرجل الذي جاء منذ السبعينيّات ليدرس الطبّ في بريطانيا، فصار خطيباً بليغاً، مقطوع اليدين، وبعين واحدة، إذ فقد أعضائه وهو ينزع الأغلام التي زرعا الروس في أفغانستان، بلده هو، لا بلد المصريّ، في حين غادر أبوه شريف خان المكان الذي عليه أن يكون فيه، وهرب إلى هنا، إلى بلاد الكفار.

ينحدر شريف خان من مدينة فارياب، في الشمال الأفغانيّ، حيث يشكّل البشتون أقلية بالنسبة للطاجيك والكازاخيّين، لذلك غادر أجداده الشمال، نحو الجنوب الشرقيّ، واستقرّوا في محيط قندهار، ملتحقين ببقايا عرقهم، ولا سيّما أن وشاة الطاجيك كانوا قد أبلغوا البريطانيين، أن (الروح الأوّل)، الجدّ، انضمّ إلى

مقاتلي الجبال الذين أوقعوا بجنود الإمبراطورية العظمى، عند عبورهم السلاسل من الهند إلى أفغانستان.

درس شريف خان الطبّ في جامعة كابل، وشارك في محاربة السوفييت، طبيباً ميدانياً، ثمّ حاملاً للسلاح، وبعد أن نجح من أكثر من موت وشيك، غادر إلى بريطانيا، التي رعت رحلته إلى معسكر الحديّة في الفيلبين، بمساعدة من المخابرات الباكستانية، وبتمويل سعوديّ. عاد إلى لندن، بعد أن تلقّى وزوجته عائشة فصلين دراسيّين في الجهاد الحديث، وانضمّ إلى مكتب للإرشاد، بهدف توحيد طاقات الشباب المسلم للجهاد خارج المملكة المتّحدة. كان روح الأمين مغرماً باللّعب بالقطار الذي قدّمه له أبوه حينما آثم حفظ "جزء عمّ"، تلك هي الهدية الوحيدة التي حصل عليها، لأنّه فشل في حفظ بقية أجزاء القرآن الكريم. يفكّك السكّة، ويعيد تركيبها عشرات المرّات في اليوم، ثمّ يترك العربّة الوحيدة التي بقيت سليمة من الكسر، تنطلق بأضواء خضراء لا توقفها قواطع، وهو يحملق في الشبابيك التي تظهر خلفها رؤوس لمسافرين من كرتون، يلوّح لهم، ويتسمّم، ويحلم في أن يمتدّ الطريق إلى أبعد من هذه القضبان الصغيرة المنغلقة على دائرة.

كانت جود رغم إنكليزيّتها الضعيفة، قد أغرمت بكلام روح الأمين عن صلادة رجال البشتون، الموازية لوعورة جبالهم، وعن حميتهم الملتهبة على مرّ الزمان، وعن براعتهم في استعمال

السلاح، ثروتهم الوحيدة التي أخرجوا بها الإنكليز والروس والأميركان من بلادهم، وذاذوا بها عن حياض الإسلام. رقص أمامها رقص الـ (أتن)، رقصة رجال البشتون الأحرار، وقال إنه قد غادر عيشته الراغبة في أوربة، وجاء هنا ليعرفها، وهذا مخطط له في السماء، سرّ من أسرار الحجرات المكتوبة في اللوح المحفوظ، وليس لأحد من البشر أن يرده لا بقول ولا بعمل.

حين دخل "روح الأمين" بيتنا، لم يكن يشبه المقاتلين الأجانب الذين كانت شاشات التلفزيون تعرض صورهم في كابول وبيشاور. كان معتدل الطول، قويّ البنية، بشرته إلى بياض، وعيناه خضراوان ضيّقتان، شعره أشقر منسدل حتّى كتفيه، وقد ربطه بشكل ذيل فرس، وأطلق لحية كثّة تدلّت تحت ذقنه بضعة سنتيمترات.

لا يبدو على محيّا الشرّ، ولا يحمل آية إشارة عنيفة سوى بندقيّة الكلاشنكوف التي لا تفارق كتفه، ورغم برودة الجوّ كان يرتدي بنطلوناً من الكتّان الأسود، وقميصاً مثله، ينسدل فوقه، بياقة إيرانيّة، وحذاء عسكريّاً خاكيّ اللون، بدا النسخة الأكثر رصانة لـ كارل لاغرفيلد، المدير الملهم لدار شانيل للأزياء.

حين رآه بابا لا يرتدي الثوب الطالبايّ، هداً قليلاً، في حين كانت سلمى ترتجف من الخوف والظلم، وتسأل: كيف وصل هؤلاء الغرباء إلى سورية؟ ما الذي أتى بهم من البلاد البعيدة؟ ولماذا تركوا دمشق واللّاذقيّة وحلب وجاؤوا إلى الرقة!

كان بابا يحب أن يرى في بيتنا رجلاً تكون الإنجليزية لغة أصليّة له، فيشبع لديه النوستالجيا إلى بوسطن، حيث قضى أجمل أيامه، والتي لم يطفى الوقت جذوتها، لكنّه لم يفكر مطلقاً بمثل هذا السيناريو، أراد أن يجلسا معاً، ويتكلّمان في السياسة والثقافة، وهما يتناولان كأساً من الويسكي أو البيرة على أقلّ تقدير، أما أن يأتي صاحب اللسان الإنكليزيّ على شكل مجاهد! سأله سؤالاً واحداً:

- لماذا أتيت إلى هنا؟!

كان جالساً على كرسيّ الـ "لوي كانز" المنجّد بالساتان الأزرق، ينظر في صورتنا الموضوعة على الكونسول الرخاميّ بجانبه، صورة التقطت لنا في عرس أحد الأقارب، ماما وبابا، ونحن الثلاثة نرتدي فساتين "ديكولتيه"، تبدي أكتافنا العارية، فما كان منه إلّا أن قلب الصورة بيده، فغابت وجوهنا في بياض الرخام. حوّل نظره إلى الأرض، وقال بأدب جمّ:

- المكان الذي جئت منه شوارعه مستقيمة وواسعة، ليس في يوركشاير أو لندن مكان يشبه زوايب "السبع حارات" الملتفة وراء هذا القصر. هل تعرف أيّها "السيد"! إنّ قصرك هذا يشبه القلعة التي كنت أتجوّل حولها كلّ يوم حينما كنت صغيراً، أمسك بيد آيشة أمّي، ومرتقي الدرج الكبير. أمّي ماتت، قتلها السرطان، لأنّ أميركا لم تسمح لها بالدخول إلى أراضيها للعلاج،

قالوا إنها إرهابية. تخيل: آيشة التي علّمت اليتيمات
الصغيرات الصلاة، والحياكة، والتطريز، إرهابية!
إنّ بلدكم تشبه وطني، تشبه قندهار، حيث القطارات حرّة،
لا تأبه للوقت الإنكليزيّ المهرق، تتأخّر، أولاً تأتي مطلقاً!
لم ينم بابا طوال الليل، وكذلك سلمي، ظلّ يقرأ القرآن،
وهو يفعل ذلك فقط حينما يكون ثمة مصاب جلل.

سألتُ سلمي: كيف! لماذا لم يحبسها بابا، لم يربطها!
- لأننا جميعاً استسهلنا الموت. لم يتبادل معها آية كلمة،
فهي حتّى لو رجعت عن موقفها، سيأخذها الأفغانيّ
بقوّة السلاح، فالدخول في هذا المستنقع ليس كالخروج
منه إطلاقاً، أنت بعيدة، لا تعرفين الحرب، في الحرب لا
أحد يملك مصير الآخر.

بكى بابا كثيراً، بل انهار. قالت سلمي إنّّه بكى أكثر من
يوم موت ماما، وأكثر من يوم علم بمرضه، وأكثر من يوم غرق
نسيب. كان يعلم أنّه لن يرى جود الصغيرة ثانية، وكان يتضرّع
إلى الله، ويسأل لماذا ابتلاه بقهر الرجال!

كاميكازي

أعلن الآن عن نفسي، وقد عدت إلى الحياة من جديد، أقاوم فكرة عودة المرض ثانية، وأحتفل باللحظة الراهنة، وبأنفاسي وهورموناتي التي استعدتها بعد مرور سنة ونصف على نهاية العلاج الإشعاعي، بمساعدة الوقت، وبجهود كبيرة بذلتها بالرياضة، والتغذية، والتفأول.

كان مساء الجمعة، وقد دعتني هانية لحضور أمسية راقصة لتدريبيهم في الـ "تريدر فيكس"، نادٍ ملحق بفندق ريجنسي عمان، الواقع قرب دوار الداخلية. ارتديت ثوباً قصيراً من المسلمين الأسود، بياقة تكشف قليلاً الصدر، وبلا أكمام، فظهرت أوشامي، أو شاماتي الجديدة. إنها النقاط الثلاث التي تقع على مستقيم واحد، من الذراع، فمنتصف الصدر، فالذراع الأخرى، والتي رسمها رجل الأشعة، ليحدّد مكان الضربات العلاجية، والتي ستبقى إلى الأبد، لتذكّرني بأنّ العذاب مرّ من هنا. لقد تجاهلتها على أيّ حال. شعري لا يحتاج إلى تمشيط، علّمني المرض أن أتركه قصيراً مثل شعر الأولاد، ومثل شعر هانية، بل أجمل، لأنّ سواده أحلك، وموجاته أصغر. وضعت قدمي في حذاء بيج بكعب مرتّب، اشتريته خصيصاً لأنسف فكرة الكعب العالي، إنني أريد حياة بلا أيّ نوع من أنواع المعاناة. اكتفيت من الزينة بعقد من اللؤلؤ في رقبي، محتفلة بألواني الطبيعية التي استعدتها من جديد.

نزلت الدرجات إلى النادي، فوصلتني أصوات موسيقى بوب غير مميّزة، ممّا يشير إلى أنّ السهرة لم تبدأ بعد. قابلني وجه الدكتور يعقوب وسط العتمة المواربة، فارتبكت! أوّل مرّة، منذ عرفته قبل ما يقارب السنوات الثلاث، أراه خارج غرفة التعذيب. كان يشبه تماماً الولد الذي رأيته في بورتوفينو، وحيداً على طاولة مربعة صغيرة، مضاءة بمصباح صغير، يتأمل في مملحة من الخزف الأبيض أمامه، ويبدو مثل من يفكر بخطّة جهنميّة. ترددت في الاقتراب منه، استذكرت طفولتي القريبة من يفاعته آنذاك. ليس ثمة محل جيلاتي لأمنحه كوزاً، فنوقف لعبة الاختباء وراء الزمن. رفع رأسه، فألفاني قريبة منه، حيّاني بتلوحة، ودعاني، فذهبت كطفل يصلحه أبوه بعد أن أشبعه ضرباً. وقفت عند الطاولة فقام وعانقني، وترك كرسيّه إلى الاتجاه الآخر، وأجلسني إلى جواره على الأريكة الحمراء، مواجهين حلبة الرقص. كان شخصاً آخر مختلفاً، رائقاً وأنيقاً، ببذلة سفاري من الكتّان الرماديّ، وقميص أزرق. وحذاء غامق يكاد أن يكون رياضياً. حطّ علينا الصمت بعد أسئلة المجاملة، كلّ منّا كان يختلس النظر إلى الآخر، ثمّ يغضي بابتسامة، لقد كان يعرف أنني أعرف بعلاقتهما. شعرت بأنّه قريب جداً، أخي الذي لم يأت إلى العالم مثلاً، أو صديقي العتيق الذي عاد بعد غياب، بل أكثر من ذلك، إنّه يعرف تاريخي، ونقاط ضعفي، ودموعي، وأوجاعي، وأطوار جسدي الذي انتقل من منتهى القبح إلى

ريعان العافية. شعرت به مغتبطاً بي، إني صورة من صور انتصاراته في الحياة.

دخلت مجموعة من الرجال والنساء، متابعين، بينهم صبايا وشباب، وعجائز وكهول، أثاروا جلبة في المكان، وجلسوا إلى طاولات مقاربة. كلهم احتفلوا بمظهرهم، ملابسهم أنيقة ومريحة، لم أتميّزها لوهلة، فيها الكثير من اللّمعان، الشباب أكثرهم بالجينز، والقمصان الكلاسيكية، والنساء بأحذية الرقص اللاتيني ذات الكعوب العريضة، والوجوه المدوّرة الصغيرة، ارتدين فساتين هفهافة، قصيرة، بقصة (الكلوش)، أو بطبقات متراكبة، الظهور عارية، والنهود مشرّبة، وبينهم تلمع هانية، بثوب من جورسيه الساتان أبيض اللون يلتصق بجذعها العلويّ، وينفرد من عند الخصر بطبقتين من الموسلين إلى منتصف الفخذ، تزين صدره المقصوص على شكل هديها حبّات من الكريستال، ويمسكه خيطان بلون الفضّة معلّقان بكتفيها، يشتبك أحدهما في عراك مع التين المستلقي على رقبته، فيبدو الأخير هارباً منه. الحذاء الفضّي الذي في قدمها يؤكّد حرفيتها البالغة، وقد شدّ الكولون الذي له لون جلدها ساقبها الممتلئين، فظهرت العضلات أكثر وضوحاً، ترتخي وتتقلّص وفاقاً لحركتها. أقبلت علينا، عانقتني، ثمّ أطالت في عناق يعقوب، الذي بدا متحفّظاً قليلاً، ربّما بسبب وجودي، لكنّهما كانا سعيدين جداً. ذلك هو العرض الأوّل الذي تخرج فيه هانية على الملأ، بعد أن أنهت علاجها، وقامت بتدريبات في حلقات مغلقة في

الاستوديو. ليس عرضاً رسمياً بقدر ما هو عرض تفاعليّ مع المتدربين، وروّاد النادي الذين هم في معظمهم قد تعلّموا الرقص أو احترّفوه في مكان ما من العالم. يعقوب كان ينظر إليها بشغف، وقد احتضن كتفيها العاريين بذراعه. ما زالت أظافره مهملة! عيناها الصغيرتان المبطنتان بشنيتين جلديتين، ترسلان نظرات تواطئ باتجاهي، أستقبلها بابتسامة. غرت منها بشدّة، شعرت بأنّها قهرتني، إذ سطت على ورقة سرّية من أوراق طفولتي، وتركتني مثل الجنّة التي أنقذت الأمير من الغرق، فوجدته فتاة أخرى على الشاطئ، وادّعت بأنّها من أنقذته، فأحبّها. لكنّ هانية أنقذته حقّاً، وصلت إلى السرايب التي حفرها لنفسه في الداخل، وأضاءت العتمة والرطوبة بشعلة الحياة التي تمسك بها، ومدّت قنواته نحو العالم. يستحقّ هذا الرجل الذي خلّص مئات المرضى من عذاباتهم أن يكون سعيداً، وتجهل هانية أنّ قيامها بإسعاده أشبه بمهمّة رسوليّة. أسرق بضع نظرات إليه، أرأف بوحده، وأتحيل طفولته السعيدة التي مضت سريعاً في حضن أبويه، لا بدّ من أنّه كان ولداً هادئاً، لم يجرب يوماً أن يتسلّق الزحليقة من الاتجاه المعاكس، ولم يحظ بممتعة أن يهتّم بأخ صغير أو أن يذوق عطف أخ أكبر، ولا يعرف المدى الذي عليه أن يغطّ فيه الكعكة بالحليب كي تلين، ثمّ يرفعها إلى فمه قبل أن تفتّت. نبيلة لن تسمح له بمثل هذه الممارسات التي تخصّ مجموعة من الأولاد الأشقياء، لا فرداً هادئاً مستسلماً لوحده. لو كان

يعقوب لي لعلمته كي يتزحلق على إفريز الدرج، وكيف يضع قدميه على عارضتي الباب الخشبيّ ويتسلّق إلى فوق، وكيف يقف تحت مياه النافورة من غير أن يتبلّل برذاذها، ولحكيت له حكايات عن البلاد البعيدة، حكايات لا تعرفها نبيلة ولا هانية، عن "جمل غيدا الحزين"، وعن "مرعي الخيال"، وعن "برج عليا"!

بدأت فرقة مكوّنة من خمسة رجال وامرأتين، بالعزف على الغيتارات والساكس، والخشاخيش، وطبول صغيرة، وبدأ عالم السالسا يشرع أبوابه للراقصين، بإيقاعات مهجّنة بين إفريقيّة مغنيّة، ولاتينيّة مندفعة. كان الاستهلال هادئاً بكلاسيك سالسا، وحركات الثنائيات القليلة التي تمادت على الحلبة كانت رزينة وواضحة التقاسيم. ثمّة مغن ومغنية يتبادلان الأدوار، من غير أن تتوقّف الوصلة، يدخل كلّ منهما من حيث يخرج الآخر، مع صيحات تعلن الحماسة. بدا الراقصون وقد اعتادوا على بعضهم، تتحاور أجسادهم بوثام، والسعادة على وجوههم. كان عجوزان في السبعين يستمتعان بتحوّلات اللّحن، أمّا أنا فحننت إلى ناصر، غاب في وقت الفرح الذي يستحقّ، وغبت مع الموسيقى الكويتيّة في بيوت القصب المستلقية على شواطئ الكاريبي، حيث يعيش الأفارقة الذين استعبدتهم إسبانية، يعودون منهكين من المزارع القرية حيث يستنبتون البنّ والتوابل، وبدلاً من أن يغرقوا بالنوم، يشعلون الشواطئ بأغاني الحنين إلى الوطن، والحريّة، فتلتحم الأجساد في رغبات محمومة، تقوم الإيقاعات مقام فحيحها

المتعالى. إنها الطريقة الوحيدة التى تشعر أصحابها بأدميتهم فى المستعمرات البعيدة.

يأتى أكرم شريك هانية فى الرقص، يستأذن يعقوب، وتقوم هانية مستسلمة لموسيقى سولو بصوت ذكورى له رائحة تبغ محترق. جذعها ثابت فى مواجهة رفيقها، يقتربان خطوة بحركة القدم، ويتراجعان خطوتين بحركة الورك. جسدهما فى استسلام مطلق إلى الموسيقى، والنشوة تفيض من العينين والشففتين كلما أوغل الإيقاع فى جنونه. اشتدت الحركة، وصارت دائرية، موقعة، وتخلت هانية عن ثبات جذعها مع موسيقى مطورة لـ "بوبي كروز"، وبدا كنفها وقد تخلت عنها، يرقصان وحدهما، تدخل فى جسد أكرم ثم تنطوي لتمرق من بين ساقيه، ثم تنتصب، فتظهر عروق رقبتها الزرقاء وقد لمعت فوقها قطرات العرق. أحب ذلك الوريد الذى ينفر من يسار رقبتها، حينما ترفع رأسها، أو تضحك، إنه يغري بالذبح.

نسيتنا هانية وسرحت فى الحلبة مثل حصان موستانغ عَزَّ ترويضه. كان أكرم يحيطها بجسده، فتلتصق به ثم تبتعد بحركة عنيفة، تحرقه بها من جديد. الأضواء المتناوبة بين العتمة والظلال تربك المشاهد، وتقربه من اللائقين. مع ضربة النهاية وصياح الراقصين والجمهور غطى أكرم بجذعه جسد هانية الذى اقترب من ملاسة الأرض، كانت مستلقية فوق ذراعيه، وقد منحها قبة محمولة فى عنقها، إشارة إلى الشكر على تشارك المتعة.

نظرتُ لحظتها إلى يعقوب الذي كان مستغرقاً في المشهد، يبحث عن الشائنيّ المحترف الذي اختفى بين الأجساد الهاوية. كان الجفن تحت عينه اليمنى ينبض بحركة سريعة، ووجهه بدا موحشاً مثل بيت بلا أم.

قالت هانية إنه عاد معها إلى الاستوديو. كان هادئاً، لكنّه لوى ذراعيها بعنف مؤلم، وقال إنّ عليها أن تكسب بضعة كيلو غرامات، فقد بدت هزيلة وهي ترقص.

- ممممم، وماذا قال أيضاً؟

- قال إنه يحبّ الأشياء التي تمكّنه من أن يمسكها بيديه.

- وهو يرتدي قفازيه المخيفين؟!

- بل بلا آية حواجز معيقة.

ضحكت ضحكتها الرثانة كأنّها جنديّ هارب من الحرب العالمية الثانية! لا تعطيني هانية الإجابات التي أنتظرها، فتحفّزني على أن أصغي تماماً، من غير أن أجرؤ على مقاطعتها:

- صفات عديدة تجمع بين الرجل والحصان، كلاهما يملك

غريزة الحرب، وشغف الطراد، وجموح البدايات، إلى أن

يأنس الحصان لفارسه، والرجل لامرأته، عندئذ يتشابهان

ببسط سطوقهما، فالحصان يحمي فارسه، والرجل يقود

امرأته إلى حيث يظنّ أنّه الأمان، ومع ذلك تستطيعين

المراهنة على جواد، لكنك لا تستطيعين المراهنة على

رجل. فالجواد يمنح فارسه إشارات تدلّ على تعبهِ، أو

على رغبته باللعب، أو على أمله، أمّا الرجل فيجمع بلا
سابق إنذار!

- تعتقدن أنّه سيذهب؟

- ممكن.

أخافني!

- كيف سيذهب ويتركنا؟ كيف سيتخلّى عن كلّ هؤلاء
المرضى البائسين! أنا ممكن أن أموت لو لم أجده في
المستشفى.

- لا تقلقي، سيذهب منّي، لا منك! عموماً أنا سأغادر.

- إلى أين ستذهبن أنت الأخرى؟

رفعت حاجبيها، كما تفعل طفلة تحاول إغاطة صديقتها
بحصولها على ما لا تملكه:

- تواعدت مع ماما على أن نلتقي في كوالالمبور. أنا
متعبة، لم أسافر منذ سنتين، موسم التدريب المقبل سيبدأ
في نيسان، وأوّل عرض سيكون في تريدر فيكس، ليلة
الجمعة الأولى من أيار. ربّما عليّ أيضاً أن أبتعد قليلاً
عن يعقوب، لا أريد أن تطغى على علاقتنا صبغة
الاعتياد. ستحضرين العرض طبعاً. أكلمك عند عودتي.
- إن شا الله...

مدّت قدمها العارية على الطاولة المرتفعة أمامنا، فانحسرت
تنورتها الرياضيّة الرماديّة لمسافة بعيدة، وبدا أنّها تستعيد ألوانها

الطبيعية بسرعة شديدة، ضربت على فخذهما، فسمع صوت رثان للصفعة، واحمرّ المكان فوراً فوق الجلد الأبيض الصقيل. طوت ساقها إلى الخلف، بحيث صار كعب قدمها في وجهي:

- انظري، بشرتي ناشفة، وجلد كعبي صار سميكاً، الكيماوي يحرق الجلد حرقاً. هل ذهبت قبلاً إلى (الفيش سبا)!

- آه، سمعت عنه، لكن لم أذهب. هو السمك الذي يتغذى على الفطريات وجلد القدمين الميت!
- تماماً. سمكة جارا روبا التي تلقّب بالذكورة سمكة. هيا تعالي معنا.

- حينما يصير وضعي أفضل، سأخطط لرحلة، سأذهب لأرى أهلي أنا أيضاً.

- وضعك ممتاز، تعالي معنا، سأعرفك إلى (ماي مام)، سنقضي وقتاً رائعاً، ونذهب في جولة ساحرة، كوالالمبور، ثمّ بكين.

- أووووو، بكين! لا أعرف أحداً ذهب إلى هناك.

- هه، ماذا أحضر لك معي إذن؟

- مايوه بكيني بالتأكيد.

- هههههههه... قد نعود بعدها إلى فيتنام، لم نقرّر بعد، لكنني مشتاقة لجدي، أفقده كثيراً. يملك مطعماً في (هوان كيم)، يطلّ على البحيرة، وعلى مقربة من

الأوبرا هاوس.

- يحمل اسم نورينكو أيضاً؟!

- هههههههههه، بل (کامیکازی)، تحية للانتحاريين

اليابانيين في مواجهة الحلفاء.

غرقتنا بالضحك... أضحكنا مفارقات الحروب التي لا تنتهي، تقتل الناس، ثم يتمسكون بذكرياتهم الموجهة في كل مكان من العالم، عبر أسماء، وأزياء، وموسيقى، ومشروبات روحية، حتى العجوز الثمانيين، القابع في فيتنام، لم ينج من نوستالجيا الألم.

* * *

كان جدّ هانية يجلس وحيداً على طاولته المعتادة، فوق
رصيف شارع البحيرة، وكانت أذناه العتيقتان تعجزان عن تمييز
نغمات موسيقى قادمة من دار الأوبرا، والتي تستقبل فرقة صينيّة
تؤدّي عرضاً لأوبرا كارل أورف الشهيرة "كارمينا بورانا"،
حيث لا أحد يقف في وجه آلهة القدر (O Fortuna)، هادمة
اللذات:

وانصبياه! مثل القمر أنتَ متقلب،
أحياناً تمنح وتزيد، ودائماً تمنع وتنقص،
الحياة البشعة، أولاً تقهر؟!

المصير موحش وفارغ،

يا عجلة القدر الدائرة،
إنّك لحاسدة حاقدة...

عند منتصف الليل خرج الموسيقيّون، انتشروا في الساحة
الممتدة بين المبنى الكبير والسوق المجاور، الرجال بيدلائهم
السموكينغ، والسيدات بفساتينهنّ السوداء السواريه، يحملون
آلاتهم، وحقائب مستلزماتهم الأخرى. المايسترو، والمغنون
الثلاثة: التينور الصادح، والباريتون صوت الجهير الأوّل،
والسبرانو الصوت النديّ، تلقّوا باقات من الزهور الزرقاء
الباذخة، يتبعهم المعجبون، ويستوقفوهم لالتقاط الصور. وصلوا
إلى مطعم الجدّ القريب، وملّؤوا الصالة الداخليّة، والرصيف،
وبعضهم جلس إلى البار، وطلب "البلو كاميكازي"، المشروب
الرسميّ للمحلّ، مع الأرزّ بثمار البحر.

في ذلك الوقت كانت (يان) تحتضن ابنتها هانية، التي
استجابت لإعلان مساعد قائد الطائرة، حينما حدّث الركب
من قمرة القيادة قائلاً: "حسنًا، تصبحون على خير..."!

بعد أقلّ من ساعة كانت طائرة البوينغ 777 الماليزيّة، في
رحلتها رقم إم إتش 370، والمتّجهة من كوالالمبور إلى بكّين، قد
اختفت من على شاشة الرادار، جنوب المحيط الهندي، قرب
السواحل الفيتناميّة.

* * *

التقيت بالدكتور يعقوب في "تريدر" يوم العرض المحدّد، كانت هانية بالنسبة لكلينا ما تزال احتمالاً قائماً. لم يكن هناك أية إشارة لـ "سالسا نايت" في النادي. الذي جي كان يلفّق أغنيات دارجة إلى أخرى قديمة بإيقاعات محدّثة. جلست إلى جواره، تناول منديلاً ورقياً، وكتب عليه شيئاً، وأرسله مع النادل إلى الذي جي. لم تظهر هانية، حاولت الاتصال بها مراراً، كان هاتفها مغلقاً. الأغنية التالية كانت:

(I found my love in Portofino)

نظر في عينيّ من تحت عدستيه المدوّرتين، وسألني بلهجة حياديّة:

- هل تعرفين هذه الأغنية؟

أجبت بتأكيد قاطع:

- لا.

اعتذرت منه لرغبتي في الخروج، متعلّلة بغياب هانية، فسألني إن كنت بحاجة إلى أن يوصلني، شكرته، وانطلقت بسيّارتي، وأنا أسأل نفسي ما الذي أتى بي إلى هنا أصلاً! لقد ولدت مؤخّراً، والمواليد الجدد شديداً الهشاشة، ويجب حمايتهم من عنف التقلّبات! أشرفت على جسر المدينة الرياضيّة، وبدلاً من أن أنزل تحته، لأتوجّه باتجاه الرايبة، صعدت نحو تلاع العلي.

عمّان نائمة، الحركة في الشوارع الكبرى قليلة جدّاً، والمدى مفتوح، والهواء الذي أعقب زخّات مطر مسائيّة ما زال بارداً،

رغم أننا نستقبل الصيف. ناصر ما زال في (كاليفورنيا)، ذهب لحضور زفاف ولده، وسيعود، كما وعد، بعد أيام.

وجدت نفسي وحيدة في مكان غريب. المكان الوحيد الذي أنتمي إليه هو هذا المبنى الذي يقف إلى يساري. بعض الغرف مضأة بأضواء بيضاء، وأخرى معتمة. لا أحد يقف على الرصيف أمام الحديقة الصغيرة، بائع القهوة أغلق كشكه، وسيارة دفن الموتى غادرت. جلست على المقعد المثبت بالأرض، مواجهة البوابة الرئيسة. ثمة مرضى يخرجون من غرفة الطوارئ، متكئين على مرافقيهم، لا بدّ من أن تكون آلام الكيماوي قد منعتهم من إكمال الليلة في أسرّتهم، فجاءوا يبحثون عن المسكنات. معظمهم بلباس النوم، وآخرون يبدلات رياضية، وقد ناءت أرجلهم بالأحذية، فاکتفوا بصنادل أو أخفاف منزلية. في تلك الغرف المترابكة، أجساد تئنّ من الوجع، وأخرى تفارق أرواحها، وهناك في الثلاثّات موتى، ينتظرون الصباح ليستقرّوا في باطن الأرض. كنت قبل أشهر واحدة من هؤلاء جميعاً، والآن أجلس على الرصيف المقابل، وربّما أعود إليهم قريباً، أو بعد حين. مهما ابتعدت عن هذا المكان، سأظلّ أحمل احتمال عودتي إليه بين خلايا جسدي، أهرب منه إلى ناصر، أو إلى يعقوب، أو إلى هانية، أو إلى بابا، مثل سمكة تقطع المحيط هرباً من ذيلها.

شيء ما في موت هانية حمل إليّ سكينه عميقة، شعرت بأنني تحرّرت من سطوتها، وارتحت إلى أنّها ماتت بحادث مفاجئ لا

بالسرطان! أغصان الصفصاف انثت من شدّة الهواء حتّى
لامست رأسي، ثمّ انفرجت، ففاجأتني قبة السماء وقد انجلت
لعيّني شيئاً فشيئاً، وحين انطفأ صفّ من الأضواء في أحد طوابق
المركز، صارت النجوم أكثر لمعاناً، وبدأ كلّ شيء محتوماً، الألم،
والموت، والشفاء. السماء هنا قريبة، قريبة جداً، ولا تحتاج إلى
سلام أو حبال.

تمت

عمّان في 18-6-2015

سَمَاءٌ قَرِيبَةٌ مِنْ بَيْتِنَا

شَهْلَا الْعُجَيْلِي

■ روائية من سورية.

■ صدر لها عن ضفاف:



جاءني خاطر في تلك الجلسة أنه كان علي أن أدرس الجغرافيا، لقد اكتشفت معه أنني أحبها حقاً، وأنها ربّما كانت شغفي المغيّب الذي لم ينتبه أحد إليه، حتّى أنا، وربّما لهذا السبب تخصصت في مجال قريب من الجغرافيا البشريّة تحديداً، وهو الأنثروبولوجيا الثقافيّة. لو قام ناصر بتدريسي هذه المادّة في سنواتي المدرسيّة المبكّرة، لكنت أعددت معه خرائط بديلة لهذا العالم الرديء، ولو أنّ بابا اشترى لي تلك الكرة الأرضيّة التي رأيته في واجهة مكتبة في شارع جان دارك في منطقة الحمراء ببيروت، لكنت ذهبت باتجاه الجغرافيا بلا شكّ، ولكتبنا أبحاثنا معاً، أنا وناصر، حول الفخاخ السياسيّة التي تصنعها التضاريس مثلاً. كنت في الرابعة من عمري، ووقفت أشير إلى تلك الكرة وراء الزجاج، وقد غطّى الأزرق اللامع المخطّط بخطوط الذهب جلّ مساحتها، وأصرخ: الدنيا، الدنيا، أريد الدنيا... يسحبني بابا من يدي، ويقول: سنشتري «الدنيا» من الشام، من الشام!



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com